طيف الحلاج

القرآن المقدس



طيف الحلاج

القرآن المقدس



الإهداء

هذه السطور ليست معنية لديناصورات الأرض

المتكبرة ولا لخفافيشها التافهة....

بل لمن يتساءل عن العتمة ويصارعها

لـــوالدتي سلـمى

وأخــتي فاطــمة

المحتويات

ما بين غفوة وصحوة

التفاؤل التاريخي مهما اشتدت حيطانه يعجز أن يسند الظهور المهزومة والأعناق التي أعياها إدمان الانحناء

سماء عاجزة عقيمة لا تنجب سوى مطر اعتاد على السقوط..وأرض باهتة سقيمة من كثرة ما مرت بحالات عصيبة من الإجهاض..بين العجز والسقم هاهي ليلى تسافر بالسيارة مع أخيها إبراهيم في يوم قيظ حارق، تاركان خلفهما ربوع الواحة الخضراء الخصبة، مهد رأسيهما وربما يكون يوما ما مقرا للحديهما. قضت ليلى وإبراهيم أسبوعا كاملا في الواحة في بيت خالتهما "أم علي". كانت الزيارة بالنسبة لليلى مليئة بالمفاجآت، كصندوق سحري لا يكف عن لفظ محتوياته العجيبة وأرانبه الصغيرة البيضاء. فقد عادت ليلى وهي محملة بكم من علامات الاستفهام والتساؤلات التي لا تدري إن كانت ستقدر على أن تُخلص نفسها منها أو أن تحل طلاسمها المتشابكة. لأسبوع كامل عاشت ليلى في حيرة صعبة، لم

تعرف لماذا وماذا دبَّ في عقول وقلوب كثير من شباب مدينتها الوديعة التي احتضنتها في كنفها الدافئ لسنوات طويلة هادئة. لأول مرة تكتشف انه لم يعد أحد هناك يرى الآخر، ولا يسمعه من شدة قتامة الليل ورعش الارتباك المخيمة على الأجواء. كانت زيارتها تلك الأخيرة لواحة النخيل الخضراء حيث يقطن هناك والدها المسن وزوجته الشابة وكثير من أقاربها. فقد قررت ليلى أن تشد رحالها في الشهر القادم، لمغادرة وطنها الذي صرفت فيه سنين طفولتها وريعان مراهقتها بحلوها ومرها. ليلى سترحل عن البلد بعد أن مسّها كيد الأيام وعاث بها الزمان. هي فتاة حالمة تود أن تترك بلدها آملة أن تمطرها سماء تلك الأرض الغضة بزخات حياة جديدة. ستتوجه غربا، إلى أرض بعيدة جدا عن بلدها حيث ليلهم نهارها، ونهارهم ليلها. ارض الفرص المتاحة للجميع كما يُطلق عليها الكثير، تقع على الطرف الآخر من العالم. ارض لا تعرف عنها ليلى سوى كل مشوق ومثير، ارض عرفها وغزاها "الفياكنز" الاسكندينافيين منذ قرون، لكن التاريخ سجلها لصالح "كريستوفر كلومبوس" وحسبها من ضمن مكتشفاته، انها ستسافر إلى أمريكا .

هاهي ليلى مع أخيها إبراهيم في طريق العودة بعد أن انهيا زيارتهما لبيت خالتهما، حيث تمخر السيارة بهما عباب الطريق وهما متجهان إلى بيت والدتهما في المنطقة الساحلية. إبراهيم يعشق الرحلات بالسيارة لأنه يستمتع كثيرا حين يقود بسرعة مخيفة وكأنه مرسل في مهمة مصيرية. تحيط بهما الرمال الصحراوية من كل جانب، وتطوّقهما الشمس بحرارتها الغليظة. تلتهم عجلات السيارة

امتداد السواد الإسفلتي بنهم شره في جو يسوده الصمت والريبة. يعبر الأجواء غناء عشق "للست" أم كلثوم، بصوتها الطري، تدغدغ المسامع وهي تردد وتشكي "تسيت النوم وأحلامه..نسيت لياليه وأيامه..غلبني الشوق وغلبني وليل البعد سهرني..لا طول بعدك يغيرني.. ولا الأيام حتبعدني ..بعيد ..بعيد عنك" وتتابع "الست" الملقبة بكوكب الشرق تأوهاتها، بينما ليلى جالسة تتقمص هدوء مترنح مفضوح، تعجز أن تداري آثاره الصاخبة عليها. تتربع ليلى بصمت مطبق في السيارة على المقعد الأمامي بالقرب من أخيها إبراهيم، ورنين جرس الإنذار يدق ويدق باستمرار ليعلمهما بتجاوز السرعة القانونية دون أن يكترث إبراهيم لذاك التحذير. بين الفينة والفينة يظهر على ليلى الوجوم، وهي مرتدية بسكون عباءاتها السوداء وكأنها خيمة من كثرة الأوشحة التي تغطيها..لا تبصر ليلى سوى بصيص شاحب من النور يتسرب إليها من خلال الغطاء الأسود للوجه الذي فُرض عليها ارتداءه منذ أكثر من عشر سنوات، بعد أن أثمر جسدها وظهرت عليه تقاسيم الأنثى. ليلى الآن ابنة الثانية والعشرين، فتاة سمراء جميلة ذات وجه مستدير وأنف شامخ، وعينان عربيتان واسعتان يتفقان بانسجام مع شعرها في لونه الداكن البراق، لكنها مثل سائر نساء هذا البلد، العباءة السوداء والأوشحة المنسدلة على وجهها تجعل من الصعب التعرف عليها. فحالها كحال الأخريات من بنات جنسها ما هي سوى واحدة من الأسراب السوداء المتحركة ، مجهولات بلا وجه ولا هوية، ودون أي دلالة على أنهن بشر. منذ نعومة أظافر الإناث إلى حد خشونتهن يعشن حياتهن خلف الأسوار والسواد، والكثير منهن لا يعرفن أن هناك حياة في الخارج.

معظمهـــن لا يدركن أن النور والظلمة لم يجتمعا قط في مكان واحد في هذا الوجود.

إبراهـــيم أخـــو لـــيلى شاب سيطرق قريبا أبواب العشرين، لم يمسســـه غدر الزمن بعد. يقود السيارة وهو منتشي بسماع أغنية "أم كلـــثوم"، ومستمتع بالتـــفنن في تجاوز السيارات التي أمامه، مع أن الطـــريق لا يسمح لأحد بالمزاحمة لأنه خط واحد. وجه إبراهيم ينم بالغـــبطة، فكلما تمكن من التقدم أكثر وسبق الحافلات التي يعج بها الطـــريق أحس بأنه أدرك العظمة. ملامحه ساكنة وصافية حيث لم تعبث بها أعراض المراهقة أبدا، ولم يغزِ حب الشباب وجناته وجبينه كأخـــيه الأصـــغر يوسف. يرتدي وجهه شارب جميل وذقن خفيف. إبراهيم لا يميل إلى لبس الغترة والعقال على رأسه إلا إذا كان مجبرا علـــيهما، ومـــا أكثر ما يُجبر عليه الإنسان في تلك الديار من ارتداء وخلع للأقنعة. يهتم إبراهيم كثيرا بشعره الأسود الناعم الملتف حول رأســـه حيـــث يعطيه صبغة هندية نوعا ما، لكنه مرات يضطر أن يداريـــه تحـــت طاقية الرأس كي لا يعرض نفسه للمضايقات بسبب طولـــه. الـــناس هناك لا تحترم أي شخص إذا ظهر بنمطه الخاص المخـــالف للمعتاد. أقسى الدروس التي يعيها البشر في بلد ليلى، إنه مـــنذ الصـــغر لا مكـــان للفـــردية أبدا ولا مجال لممارسة الحريات الخاصـــة. كل فرد يتوجب علية أن يطلي نفسه بصبغة الدين ولون العادات والتقاليد المتوارثة منذ سنين.

إبراهـــيم يدرك ما يليق ومالا يليق في مجتمعه لكنه من الشباب

المتهوريـــن خاصة في قيادة السيارة، وتسبب في عدة حوادث نجا من بعضها بأعجوبة. فهو مثل كثير من الشباب، يمر بمرحلة عجيبة حيث تُوهمه دمائه الفتية النشطة التي تجري في شرايينه، بأن الحياة ملك لا يـــزول ونعمة لا تفنى، ذاك الوهم يدفعه ليراهن على الدنيا دائما، لذلك يقود السيارة كالمعتوه دون أي مراعاة أو اهتمام لقوانين السير.

صـــار الحـــر يخنق أنفاس ليلى أكثر وهي جالسة بجانب إبراهيم تحاول أن تتجاهل عبث قيادة أخيها وتجاوزه للسرعة المحددة. تود أن يسكت الضجيج المتراكم في داخلها الذي يخبرها بخطورة الوضع.تريد أن تنسجم مع معشوقة الجماهير العربية "أم كلثوم" وذاك الكوكب الذي لـــم يلمـــح هـــذا الشرق غيره منذ أفل. تلك المغنية التي تُكن لها ليلى إعجابا كبيرا، لأنها بَنت لنفسها مجدا ووجودا متميزا في عالم لا مكان للإنـــاث فـــيه. فأم كلثوم تنحدر بجذورها من الريف المصري، حيث تربت في كنف أسرة محافظة وفقيرة. والدها الذي كان إمام مسجد، هو مـــن حـــثها على الغناء، لأنه رأى أن صوت ابنته هبة من الله، كشدو الكـــروان، وزقزقة العصافير وتغريد البلابل، ومن حقها أن تتغنى به، ومـــن حق الآخرين أن ينعموا ويتنعموا بسماعه.غادرت أم كلثوم في شـــبابها الريف إلى القاهرة وأصبحت أشهر مطربة عربية. لقبت فيما بعد بـــ"الست" حيث كانت صرح للغناء العربي الأصيل. تبوأت عرش الفـــن دون مـــنازع لأكثر من ثلاثة عقود. صوتها ظل يخلب العقول، ويؤجج الشجون، ويثير المشاعر، وأداءها ونَفَسها الطويل في الغناء لم تستطع أية مغنية عربية على منافستها عليه حتى اليوم.

تحاول ليلى أن تعتدل في جلستها وتشد ظهرها كتلميذة مجتهدة، لتستمع للأغنية لكنها أحست أن أذنيها صارتا تفقدان مهارات الإصغاء شيئا فشيئا. فشلت ليلى في جميع محاولاتها من أجل الانسجام مع سرعة إبراهيم في القيادة، فشرعت تتلفت بارتباك من حولها ثم نظرت في وجه أخيها المتلهف للوصول حتى سأمت تقاطيعه. أخذت تدير أنظارها عنه يمنة ويسرة، وبدأت تطالع الصحراء الممتدة عبر النافذة بدون أدنى رغبة في النظر. تعبر الصحراء أحيانا قوافل من الجمال الكسولة مع راع نحيف يرتدي ملابس رثة. تبدو الشمس الساطعة من بعيد وكأنها تكاد أن تتنازع مع المساء على البقاء وتستنكر قدومه المبكر. كأنها ترفض أن تغيب عن حبات الرمال التي اعتادتها واستأنست جفافها وأودعت بداخلها حرارتها القاسية. العشب بين الفينة والفينة يظهر باهتا ومنهكا ليخبر المارين بحضوره، ويعلمهم أن في الصحراء حياة، مهما اشتد الجفاف فيها وشحّت الدنيا عليها بالماء..

في كل مرة تعبر ليلى رمال صحراء بلدها القاحلة، تتذكّر أستاذتها المصرية لمادة العلوم "ناهد" حين كانت تدرسها في المرحلة الثانوية. كانت هواية تلك المعلمة المفضلة الحمل والإنجاب، مثل كثير من زميلاتها المعلمات. كانت الأستاذة "ناهد" قد أخبرت تلميذاتها يوما بأن أرضهم الصحراوية الناشفة هذه، كانت قبل ملايين السنين غابات فسيحة تزدان بأصناف متعددة من الأشجار وتعج بحيوانات مختلفة متحركة على الأرض وعائمة في بحرها ومحلقة في سمائها. كانت زخات الأمطار لا تفارقها أبدا. كانت أرض تمتد

على سطحها النباتات والخضار، وتجري في وديانها وبين تلالها الأنهار. كانت بيئة خصبة لحيوانات كثيرة حتى الديناصورات الضخمة مشت بجبروتها عليها، وترعرعت واندثرت في هذه الأرض، لذلك جوفها اليوم عامر بالنفط بكميات تجارية مهولة. كل تلك الحقائق العلمية التي سُكبت في دماغ ليلى لم تكن تصدقها أبدا، تراها من خيالات معلمتها لأن المعلمة لم تلحقها ببراهين وإثباتات، ولأن من يرى الآن مدى قسوة هذه الصحراء، لا يستطيع أن يتصور أبدا أنها كانت بالفعل يوما ما بقعة خضراء.

تستمر رحلة الرعب بالنسبة لليلى، فتمر بجانبها السيارات المسرعة هاربة من الحرارة الحارقة، حيث تبدين كالمخلوقات البائسة التي وُجِدت في مكان لا تقوى على العيش فيه لكنها أجبرت عليه. سيارة إبراهيم تناضل تحت لظى الشمس الشديد الحرارة. الذي يقلق إبراهيم الآن هو العجلات لأنها قديمة وتحتاج أن تُستبدل، ومع ذلك لم يدفعه ذاك القلق على أن يكون أكثر حرصا واهتماما في قيادته. إبراهيم اشترى هذه السيارة "الهوندا" ذات الصنع الياباني من رجل مغترب انتهى عقد عمله، فباع معظم ممتلكاته وعاد لوطنه. هذا الصنف من السيارات مرغوب فيه، يقتنيها عادة الناس بسيطي الحال، لأنها اقل تكلفة واستهلاكا للوقود من غيرها..دائما في هذه البلاد هناك أناس قادمون إليها أو راحلون عنها. الحياة فيها تتشابه مع الحياة في أمريكا الشمالية في منتصف القرن التاسع عشر إبان اكتشاف مناجم الذهب في الولايات الغربية. فقد كان طالبي المال ومهووسي الثراء يتهافتون عليها كالمجانين من جميع أقطار العالم.

كانت ولايات ممتدة مثل كاليفورنيا و"أريزونا" و"نيو مكسيكو" تعج بالرجال. لم يكن للنساء الوافدات دور يُذكر سوى في الدعارة وبيوت البغاء.

البلدان الواقعة على ضفاف الخليج العربي حالها يشبه كثيرا لحال أمريكا في عصر اكتشاف الذهب الأصفر، حيث تبدل في الخليج إلى ذهب أسود. أصبحت تلك البقعة بين عشية وضحاها بلدان نفطية، ثرية جدا وفتية جدا.أيضا صارت مكتظة بالذكور المهووسين بالغنى القادمين من شتى أنحاء الأرض. تتزاحم في بعض البلدان الخليجية الأكثر انفتاحا المومسات الفاتنات الوافدات من مختلف الأقطار من اجل الاسترزاق وسد حاجة الذكور المحمومين وفك محنتهم. معظم أفراد شعوب المنطقة ما دون الخامسة والعشرين، ومازال أكثر من نصفهم مُبتـلَين بالأمية. لذلك هذه البلدان تعتمد بشكل كبير على العمالة الوافدة. حيث يشكل الآسيويين النسبة الأكبر والأقل حظا من الأيدي الأجنبية العاملة. بعضهم لا تتوفر لهم أساسيات العيش من مأكل ومشرب ومسكن نظيف. كثير منهم يعيشون في أماكن غير قابلة للاستهلاك الآدمي، حيث يُكدسون في مساكن ضيقة قذرة ويرصون كالسردين ويعاملون كمعاملة العبيد. الجو قاس هناك والناس والقوانين أقسى بكثير. العمال الأجانب يكدحون طوال النهار وأطراف الليل، ولا يتلقون سوى مرتبات بسيطة وأحيانا لا تدفع لهم كاملة. يقومون بالمهن الصعبة: مثل بناء العمارات ورصف الطرقات وسفلتة الشوارع وتنظيف الأزقة والحارات وتشجير المدن والحدائق العامة وضخ البترول من أعماق الصحاري الجهنمية. كل يوم تعبر الطرقات كتل وقوافل من البشر

المغطاة بملابس رديئة باخسة تأكل لحومهم الشمس دون أن يظهر على معالمهم أي تعبير ينم عن مشاعر إنسانية مكنونة في نفوسهم. أعمالهم تستهلك الجسد وتقرض العمر بشكل سريع كالخلايا السرطانية. لذلك يأتون شباب، بعضهم فيما دون سن العشرين، وفي غضون سنوات قليلة تزحف في أجسادهم علامات الكبر والوهن والمرض، فيردون إلى أوطانهم وهم كالكهول مع إن أعمارهم لم تتخطَ سنين الثلاثينات.

يستمر السيناريو المقلق فتبدو ليلى وهي جالسة بجانب أخيها كالفتاة التائهة التي فرطت ببكارتها في لحظة غباء مع شاب تافه، والآن تبحث عمن يساعدها على لملمة نفسها من دون أن تدري كيف ومن أين تبدأ.

بالرغم من أن إبراهيم يصغر ليلى بسنتين لكن تصرفاته لا توحي بذلك. ليلى أكثر اتزانا وعقلانية منه ودائما توجهه وتصحح عثراته خاصة في تعامله مع أصدقائه. لكنه لا يتعظ فيعيد الكرة تلو الأخرى. ربما وسامة إبراهيم العذبة وتقاطيع وجهه العربي الناعم، هي التي تغفر له هفواته عند الآخرين.

يقود إبراهيم سيارته بهمة دون أن يعبأ بما تحسه أخته. لأنه لا يريد أن يدع السيارة التي بجانبه تسبقه. كأنه سينال جائزة حين يتفوق على الآخرين ويصل قبلهم. رافق إبراهيم ليلى في رحلتها هذه لأنه سيحضر دورة تدريبية في الواحة لمدة أسبوع. يعمل إبراهيم في

شـركة الكهرباء. فهو لم يكمل تعليمه الجامعي لأنه أراد أن يستـقّل اقتصاديا عن أهله بعد زواج والده وانفصاله عن والدته.

بيـن الحين والآخر يتفاعل إبراهيم بحماس ملفت للنظر، وينشد بصـوت مرتفع مع "الست". يغني بترنيمات حميمة كمحب هائم في فضاء لانهاية له، ويدندن بنبرات صوت مغرم وكأنه غارق في أنهار العشـق مـع امرأة تكمل نصفه الآخر، حيث يرتشف من ثغرها ما يؤجـج رمقه ويحرضه على طلب المزيد. بالرغم من إن إبراهيم لم يـرَ من الإناث سوى والدته وأخواته وعماته وخالاته، لكن من يراه الآن يشعر انه واقع في وكر الحب مع أنثى، ومتلذذ بغنجها وحسنها. جميع ذكور هذا البلد وإناثه يمضون حياتهم محرومين من أن يعيشوا تجربة حب حقيقية، لذلك دائما يتغنون بعشق مجنون ليلى، ويطربون لحـب جميل بثينة، ويهيمون بولع "رميو" و"جولييت". لأن الحب في الـبلد لا يحدث بين اثنين بدون رابط الزواج، وإذا حصل بدون ذاك الـرابط فأنـه يُعـد عمل محرم وخطيئة كبرى يعاقب عليه العرف والدين والقانون. لذا اعتاد الكل أن يسرق لحظات الحب في العتمة، أو أن يقضـم أحاسيس الحب الذليل على الورق، ويجتره بشغف مع تحـركات الممثلات والممثلين، أو بصدى المغنيات والمغنين، الذين يتقمصون حالات العشق على خشبة المسرح ويجيدون أداءه. العاشق على هذه الأرض يظل دائما كربعها الخالي، منبوذ، معدم، متصحّر، عَطِـش، مجرد من كل معنى للحياة. فالحبيبة والدنيا متحالفتان ضده ودائمـا تقسوان عليه. الحبيبة لا تترك له سوى لهيب من ولع الحب والأسـى، ووجع الفراق وحرقة الانتظار، وتدفعه الحياة أن يستجدي

دائمـا بعض قطرات مطر مودة من حبيبة بخيلة، تحن عليه مرة ثم تتركه للجفاف يلوكه لفترات طويلة متباعدة.

ليلى التي امتازت من بين أخوتها بالهدوء والبرود فجأة صارت تغلـي بارتـباك شديد وكأن خوف ما يطرق ذهنها من جهات عدة. القلـق المتفاقم يتزاحم عليها في النفس ويشتت روعها. لا تدري ماذا تفعـل، وكـيف تُكمم فاه هذا الاضطراب الذي يقضم سكينتها دون توقف.مرت دقائق متلعثمة، وبدت ليلى أكثر انزعاجا وخشية . ازداد إحساسها بسرعة السيارة بسبب نتوءات الطريق التي أشعرتها بهزات قويـة متتالـية. تريد أن تلهي نفسها بأي شكل من الأشكال عن تلك المشـاعر التي تحرمها من نعمة الراحة، تحاول أن تصغي بفضول مفتعل للأغنية لكن حتى "أم كلثوم" سيدة الغناء العربي العظيمة لم يعد لها سحر أو تأثير على ليلى. تعاود التحديق في الطريق فتراه مشوها مـثل وجـوه كثـير مـن المسنين في هذا البلد، الذين نقر الجدري مساحات من وجوههم، وعبثت بمعالمهم أيدي الزمن. تتعب ليلى من كـل محاولاتها عديمة الفائدة، وتضيق من تلك الأحاسيس الملبدة في سـمائها.تصـل إلى حالة متأزمة من التوتر والرفض، لأنها لم تعد تقوى على حمل كل ذاك الهم المتخم، صرخت بأخيها بصوت مرتفع ساخط :

– إبراهيم..أرجوك خفف من السرعة الآن، لمَ هذه العجلة؟

يـرد عليها أخيها بسرعة وكأنه يشعر للتو بارتباك أخته وفزعها ويقول :

– ليلى..ما بكِ؟ لماذا أنتِ متوترة إلى هذا الحد؟ كم مرة أحتاج أن أقول لكِ لا تخافي ستصلين سالمة وأنا أيضا، وسأستمتع بمشاهدة المباراة النهائية على البطولة.

أردفت ليلى قائلة بصوت ينم عن خوف:

– إبراهيم ألا ترى أن الطريق خطر والظلام قد قرب تخييمه والرؤية ستصبح بعدها شبه معدمة؟ لا تدري يا أخي ما قد يحدث فجأة. ثم أن المباراة سيعاد بثها فيما بعد، وبإمكانك أن تشاهدها لاحقا.

– ليلى..أنت تعلمين أني لا أتلذذ بمشاهدة المباريات المعادة..لماذا تصرين على إقناعي بذلك؟ ما الذي جرى لكِ اليوم؟ مما تخشين؟ لـمَ أنتِ مرعوبة إلى هذه الدرجة؟ هذه ليستَ المرة الأولى التي تصطحبيني فيها في هذا الوقت وتحت هذه الظروف..لا تخافي يا أختي العزيزة، فأنا أجيد القيادة. ضعي حزام الأمان وارتاحي..ولن يجري إلا الخير.

واصل إبراهيم مغامرته التي لم تختر ليلى أن تكون جزءا منها، مثل أوضاع كثيرة تتعايش معها أو تمر بها في هذه الدنيا.فهي تدرك جيدا أنه لن يأتي أبدا اليوم الذي ستستقل بنفسها، وتقود سيارتها بمفردها على هذه الأرض. فذاك أمر مستحيل المنال، لأنها أنثى وقانون بلدها الذي نمت فيه، لا يقر لها بذاك الحق أبدا طال الزمن أم قصر.

أغمضت ليلى عينيها وهي غاضبة لكن لا تعرف أين توجه غضبها، لذا لم تعبأ بأخيها ولا بطلبه لربط الحزام.. تركت نفسها لبعض الوقت تجوب بعيدا عنها باطمئنان مترنح، وهي تفكر ما الذي دفع بها أن تأتي مع هذا الأخ المتيّم حتى النخاع بكرة القدم. وهل

كان لديها خيارا أصلا!!هي أنثى لا يمكن أن تتحرك في سيارة سوى بصحبة ذكر.

استرجعتها الذاكرة لتعلمها مرة أخرى سبب رحلتها المفاجئة هذه.. وإذا بها تحملها اللحظات إلى الدائرة المؤلمة التي أحاطت بها من كل الجوانب.. حيث كانت في تلك الليلة قابعة في غرفتها تجرد وتبحث بهمة فيما تبقى لها من ماض كان حاضرا قبل شهور ولّت. فبعد وفاة زوجها سامي الذي لم تكمل عامها الأول معه، وبعد انقضاء شهور العدة بقليل، شعرت ليلى أن كل الأمور باتت بلا ملامح، لأنها اُختطفت منها قبل أن تتعرف عليها. مما جعلها تحس انه لا أمان لهذه الدنيا. تشعر أنها كعصفورة تائهة جريحة ضلت الطريق المؤدي لعشها في يوم عاصف.

كانت ليلى في تلك الليلة منهمكة تدوّر في غرفتها من أجل أن تعثر على سكينتها التي تفتتت وابتلعتها رياح الأيام العاتية برعونة. هاهي حاجاتها التي جُلبت إليها بعد أن اُقفل بيتها الزوجي، ومُسحت عنه صبغتها إلى الأبد. فقد عادت ليلى لحضن أهلها بدون أن تحمل معها حتى خفي حنين، أرملة في عمر الورد، لتعيش مرة أخرى مع والدتها البائسة وأخويها المراهقين إبراهيم ويوسف.

كانت ليلى تنظر بألم إلى بعض ملابسها المنثورة في الحقائب، والبعض الآخر مرمية في زوايا الغرفة. حتى أن بعضها مازال جديدا، حيث اقتناها لها زوجها سامي قبل وفاته بأيام معدودة من آخر رحلة عمل ذهب فيها إلى الخارج، لكن لم تسنح لها الحياة أن ترتدي

تلك الملابس الأنيقة. تتطلع ليلى بحسرة إلى عطورها ومساحيق التجميل وهدايا العرس، جميعها أصبحت هموما ثقيلة بالنسبة لها، وعبئا على كاهليها النحيلين، لا تدري كيف ستخلص النفس من كل ذاك الغم. كانت تنبش وتنكش بجدية في أشيائها الصغيرة كي تجردها، لأنها عازمة على السفر قريبا إلى أمريكا، حيث يقطن أخوها الأكبر نور. فقد قررت أن تهجر هذا البلد الكئيب كما هجره أخوها منذ سنين طويلة.

توقفت فجأة، وإذا بالهاتف يرن ويكسر زوايا الصمت في غرفتها ويثقب حائط السكون في أعماقها، فينتشلها مما كانت فيه.أحست بنفض ترددت في النهوض لالتقاط السماعة. باتت تخشى ذاك الجهاز كثيرا الذي وإن بدا وديعا كما الحمل، ولكن في جعبته يخبئ مخالب حادة، تنبت فيه فجأة حين يحمل أخبارا سيئة، تمزق المسامع من شدة وطأتها. فمنذ آخر وقفة لليلى مع جهاز الهاتف والتي كانت حين تلقت من طرفه الآخر نبأ مقتل زوجها، صارت تتجنب ملامسته وتخشى رنينه.

غرقت ليلى لوهلة في قلق لا نزعة له، شعرت بارتياح حين كف الهاتف عن الرنين والمناداة. عاودت تشغل نفسها بترتيب حاجاتها. زحفت عقارب الساعة بكسل عابرة بضع دقائق من الزمن، وإذا بصوت والدتها يأتيها على عجل .. وهي تقول :

ليلى خالتك تود محادثتك على الهاتف

جفلت ليلى دون أن يرف لها جفن، وبخوف متأهب التقطت

أنفاسها وحملت السماعة ببرود فيه ترقب وقالت :

– ألو.. أهلا خالتي..نعم بخير ..نعم تمام ..الحمد لله..أحاول والله يا خالتي..إيه.. نعم..اقرأ قرآن كل ليلة..إنشاء الله..إنشاء الله ..ماذا..؟ ماذا تقولين؟؟ وجدتم مشتريا لبيت العائلة الكبير؟..بيت "الفريج" الحي القديم؟ من المشتري؟ آل لواء.. نعم.. نعم أعرفهم ..هم من يملكون حسينية الزهراء المجاورة .. آها.. نعم.. حتما سأقوم بزيارتكم في أقرب فرصة..إنشاء الله ..سأحاول الأسبوع القادم.. ربما.. أجل يا خالتي.. سأحاول أن أأتي مع أخي إبراهيم فلديه دورة تدريبية لمدة أسبوع هناك..نعم من الشركة ..نعم.. نعم.. بالتأكيد..حاضر...."

هذا كل ما تتذكره ليلى من الحوار الذي دار بينها وبين تلك الخالة التي تكن لها محبة خاصة واحترام، بعدها فقدت ليلى القدرة على المتابعة والإنصات! تصلبت في مكانها. ولم تقو على الحراك.

أحسّت ليلى بجمود وغبن وشعرت بدهشة عجيبة.سخرت من نفسها ومن طرافة الموقف وتناقضه.كيف أن الأجساد تقوم بممارسة طقوس غريبة على أصحابها في الفترات الحاسمة، فتفرض املاءاتها عليها من غير أن تنتظر إذننا منهم! ثم يأتون الناس ويتبجحون بلا وعي ولا دراية، زاعمين أنهم يمتلكون هذه الأبدان وأنهم يتحكمون بمفاتيحها، والغريب أنهم مع مرور الزمن يحشون أدمغتهم بتلك الخرافة السمجة..

توارى صوت خالة ليلى الملقبة بأم علي وراء الأثير. عرفت

بعدهـا ليلى أن المكالمة الهاتفية قد انتهت. حزنت حزنا شديدا بسبب نـبأ بيت طفولتها الذي سيباع قريبا. بدأت تشعر كأن أمواجا هائجة تعصـف بمـا تبقى لها من روحها الميتّمة. منذ وفاة زوجها الشاب سامي وهي تحس كل يوم أنها تغرق في بحـر أزلي يحيط بها من كـل جانـب. تـتلوى مـن حرقة السقوط وتتوجع من ألم الخيبة. الاكتئاب صار حليفها الدائم ينخر في صدرها المثقل بالجروح الدامية دون توقـف. لـم يـبق لهـا شيء لتستند عليه في هذه الدنيا، حتى تاريخهـا المعـدود الصفحات قريبا ستسحق معالمه وتمزق أوراقه وتلغى فصوله للأبد.

لم تتوقع ليلى أبدا انه ستمر بها أيام بهذا السواد الحالك. مأساتها العصـيبة أنها تصورت أن الزمن الباهت هذا هو ملاذ آمن تلجأ إليه حين تعصف بحالها السنون وتعبث بسكينتها. أوهمت ليلى نفسها بأن هـناك معـاهدة سلام أبدية بينها وبين الدهر غير قابلة لإحداث أي تغيـير فـيها. اعتقدت أن ما يجري على غيرها لن يحدث لها بنفس الوتـيرة ونفس الحدة، وهذا وهم يعشش داخل كثير من الناس. لكن الزمـن لـم يعـبأ بأحد قط ودائما لاتهمه تلك المعاهدات الأحادية الجانب، فهو يخل بها كل مرة.

المحـزن أن لـيلى تعاود تعشيم روحها بأن الأيام ستعينها على تحمـل أوجاعها التي لم تعد قادرة على تحملها، بسبب ثقلها وألوانها القاتمة. تتصور أن الدهر سيرتدي لباس الصديق الحميم ويأتي بدوره البطولـي ليطلـي الأيـام بأصباغ النسيان كي يخفف من وطأتها،

وتـتلقف الأحـداث مـنه بـروية وهدوء لكي تواصل المسيرة من جديد..وبكل سذاجة تغفل ليلى عن أن هناك مرارات شديدة البشاعة، تسكن في القلوب بإقامة أبدية، فتعجز أن تزيلها الأيام، أو أن تطويها السنين بين صفحاتها مهما تلاحقت وتتالت..

مـرة أخـرى يتبدد صمت حيطان غرفة ليلى وظلالها. فتسمع طرق الباب.. ترى ماذا بعـد ينتظرها؟ ما الذي ستقذف به السماء إلـيها في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ ألا يكفيها جرعة بيع البيت وتبديد بقايا ماضيها؟؟ وقبل أن تعثر هذه الأسئلة على إجابات، تأتي والـدة ليلى وتدفع بالباب وتدخل. ليلى تعلم مسبقا الغرض من زيارة والدتهـا لها ولماذا هي متسمة بالسرور. تقترب الأم من ليلى حاملة رسالة في داخلها يظهر بوضوح فحواها على تقاسيم وجهها. تتوقف ثـم تدنو أكثر من ابنتها، لتحط بجسدها المنهك المكتنـز على مقدمة السـرير حيث كانت ليلى مستلقية عليه..ثم توجه سؤالا لها دون أن تبين أنها تنتظر إجابة ..وتقول:

– ها يا ليلى.. كيف وجدت خبر بيع بيتنا القديم في الحارة؟

ترد ليلى بصوت مغبون:

– لا أدري يا أمي!

– كيف يعني لا تدرين؟

شعرت ليلى باستياء والدتها فعالجت الموقف بسرعة قائلة:

– يمـه..أنا اعلم أنك وخالتي سعيدتان بنبأ بيعه لأنه أمر كنتما

تتمنيان حدوثه منذ أمد طويل! وأنا فرحة لكما..

سعدت الأم بإجابة ابنتها فقالت:

– نعم يا بنتي انه سيصبح ملحقا للحسينية، أي مأتما حسينيا خاصا بالنساء. سيكون مكانا لتجمعات نساء الحي تستخدمه لجميع المناسبات. وفي الوقت نفسه ستكون النساء على علم ودراية كاملة بالأنشطة التي يقيمها الرجال في الجانب الآخر من الحسينية مثل: المحاضرات، والاحتفال بمواليد الأنبياء والأئمة، والعزاء الذي يعقد طوال العام للإمام الحسين ولآل البيت عليهم الصلاة والسلام. نساء الحي في حاجة إلى مكان واسع لتجمعاتهن يا ابنتي..

ودون أن تظهر أي علامة تنم عن اقتناع أجابت ليلى والدتها:

– نعم صحيح..هن في حاجة لذلك..إنشاء الله يا أمي يحصل ما تحلمان به أنتِ وخالتي..

واصلت والدتها كلامها وهي مبتهجة ومعتزة بأن الدار الذي ترعرعت فيها ستساهم في توسعة الحسينية في ذلك الحي البائس. فأهله التعيسي الحظ والحال في حاجة ماسة إلى حسينية ليغسلوا فيها حزنهم المكدس وذلهم المتراكم منذ دهور. فعدد لا بأس به من سكان ذاك الحي يرزح تحت خط الفقر. معظم الذكور فيه طبقة عاملة أو أصحاب حرَف يدوية.كل من هم من جيل والدتها رجال ونساء لم تعتب أقدامهم مدرسة قط. بعضهم تعلم قراءة القرآن في الكتاتيب مثل والدتها، لكن وغالبيتهم لا يحسنون فك رموز الأبجدية مثل والدها.

والدة ليلى الملقبة بـ"أم نور" هي ملاية، وإحدى شيخات الحارة. هي واحدة من ثلاث نساء في الحي امتهن ذاك العمل. حيث يقرأن في المآتم الحسينية ويساعدن النساء على تفهم أصول الدين. ام ليلى تعلمت القراءة ودرست القرآن والسنُة النبوية في الكتاتيب، وصارت بعدها مرجعا دينيا حصرا للنساء. كان السبب وراء تعلمها القراءة هو والدها جد ليلى، لأنه عاش طوال حياته أمياً بسبب التزاماته الأسرية، لذلك أراد لأولاده وبناته أن يتعلموا فك طلاسم اللغة وبالتالي يحسنون القراءة.

والدة ليلى فرحت لتوسعة الحسينية فهي مثل كل المنتمين للمذهب الشيعي، تؤمن أنها ستكسب أجرا، وتجني ثوابا من الله لخدمة آل بيت النبي والأئمة الطاهرين. هي امرأة ملتزمة بشدة بمعتقداتها ومتتلمذة على نهج الفكر الشيعي. همها في الحياة نيل رضا الله وإبقاء ذكر آل البيت مشع عبر السنين.

المآتم الحسينية تعني الكثير لفئة الشيعة ، فهي مدارس تنمي فيهم أخلاقيات أئمتهم الاثنى عشر الذين هم من سلالة الرسول. أيضا توجههم لنهج الإمام جعفر الصادق الذي وضع القواعد الأساسية للمذهب الشيعي. أهمها هي التقية أي العيش والتعايش بسلام تحت ظلال أي دولة. مذهبهم لا يحثهم على مواجهة العنف بالعنف، وعقيدتهم أساسها في الوقت الحاضر فصل الدولة عن الدين، لأنهم مؤمنون أن الدولة الإسلامية ستنجبها الدنيا يوما ما تحت راية الإمام

الثاني عشر الملقب بالمهدي المنتظر.الإمام المهدي بالنسبة للشيعة كالمسايا بالنسبة للمسيحيين. غائب عن الدنيا لكنه سيعود يوما ليؤسس دولة العدالة والمساواة والحق. الشيعة أيضا يتفقون مع المسيحيين في إحساس متوارث ممزوج بمشاعر الذنب المنهك، لأن إمامهم الثالث الحسين بن علي، كالمسيح الذي ضحى بنفسه من أجل ناسه وأتباعه.انتظار الخلاص وأيدلوجية التقية الشيعية التي اجترتها تلك الفئة لقرون بددتها بين ليلة وضحاها الجمهورية الإسلامية بظهورها في إيران. فمنذ تأسيس تلك الجمهورية انقسم الشيعة بين مؤيد ومعارض ولم يتفقوا أبدا بعد أن دبَّ الخلاف بينهم، ولم تعد أفرادها تحيى كما كانت. فقد خرج الإيرانيون من حلقة الانتظار وهشموها، وابتدعوا فكرة ولاية الفقيه المتمثلة فيما يسمى بالمرشد الأعلى الذي هو بمثابة روح الله وظل المهدي على الأرض حتى يحين خروجه. بذاك التوجه المختلف تمكن الإيرانيون من تأسيس دولتهم الإسلامية الشيعية وتحديث مرجعية منفصلة تماما عن المرجعية الموجودة قبل الثورة.

ليلى تُدرك جيدا أن الحسينيات قد تكون بأهمية المساجد لدى فئتها. المساجد بالنسبة للشيعة أماكن يؤدون فيها الصلوات المفروضة في أوقاتها والتي هي ثلاثة مرات وليس خمسة، والحسينيات تخصص لكل التجمعات الدينية والاجتماعية والترفيهية أيضا. جرت العادة في بلدها أن الحسينيات والمساجد الشيعية تبنى في السر وبالخفية في الحارات الفقيرة المهملة حتى لا تفطن لها الحكومة، ولكي يمارسوا أبناء تلك الفئة معتقداتهم فيها دون أن يراهم احد، لأن قوانين الدولة تمنعهم من القيام بطقوسهم وشرائعهم الخاصة، ومن يفعل ذلك يُعاقب بالسجن، ولا يُطلق سراحه إلا بعد أن تؤخذ عليه تعهدات أن لا يعيد الكرة.

مرّ الوقت ووالدة ليلى مازالت تتشدق بالحَدَث، حتى أصاب ليلى الملل. بعدها افتعلت ليلى النعاس، وأرسلت إشارات وهمية في الأجواء لكي تلفت نظر والدتها لها. التقطت الوالدة بوضوح ما بعثت به ليلى وما تريده منها أن تفعل، حينها توقفت عن مواصلة الحديث معها، بعد أن أخبرتها ليلى بأنها متعبة وتود أن تسلم جسدها الناحل للنوم. ربما التظاهر بالنوم هو الأمر الوحيد الذي لا يستطيع الآخر إثباته أو نفيه على غيره، لذلك هو العذر المقبول دائما في جميع الحالات.

خرجت الأم متسللة من غرفة ليلى وهي تترنح من ألم في ركبتيها بسبب وزنها الثقيل. أغلقت الباب خلفها، وهي تعلم جيدا أن ابنتها المسكينة لا تنام جيدا منذ أن فقدت رفيق دربها وتوأم روحها سامي، حيث انهار صرحها في غمضة عين. النوم صار بالنسبة لليلى أمر مستحيلا ، لأن ما بداخلها من تشتت وتمزق يُحرم عليها استقباله.

كل يوم تشعر ليلى أن الدهر قاس عليها ويتعامل معها باستخفاف وعدم اهتمام. يدهس قلبها ويفتح جروحها بصلابة دون أن يكترث لتأوهاتها،إحساسه بها جامد وكأنه عوامل التعرية العاتية التي تعصف بصخور صماء متناثرة في البراري وتفتت جوانب منها.

يوم بعد يوم ليلى تستوعب أن ما هي فيه ليست بحالة شاذة من بؤس الدنيا، فالزمن يعامل معظم أهل هذه الأرض بجفاء وسادية. فالبلد منكوب من تجبر قادة من الذكور المتسلطين على رقاب الناس.

لا يحسنون سوى البطش والرقص بالسيف والتهديد بإشهاره.عروشهم وقوَتهم ورثوها عن آبائهم وسيورثونها لأبنائهم.يحكمون الناس بالنار والحديد. يقطفون الهامات قبل أن تينع.في صغرها كانت تسمع أنهم يقطعون رأس القاتل ويبترون يد السارق بالسيف في الأماكن العامة. ومن يرتكب جنحة الزنا يُلقى به في حفرة أمام العيان ويُرجم حتى تفارق الروح جسده، وشرب الخمر يُعد جريمة شنعاء يعاقب عليها القانون. مع أن العرب هم أول امة في التاريخ صنعت الكحول المعتقة وارتشفتها واعتبرتها شراب بمذاق الجنة. هذا البلد هو مهد الخمور المسكرة ذات الجودة العالية، لكن من بعد بزوغ الإسلام قبل ألف وأربعمائة سنة لم تعد كذلك. اليوم من يُدان بشرب الكحول يُجلد ويُسجن ويُشهر بسمعته. ذاك العنف في تنفيذ الأحكام على الجناة صحّر المساحات الإنسانية في قلوب الناس في هذه الديار، وحولَ الناس إلى رعاع كأنهم قطعان من الوعول الضارية..كل منهم يبطش بالآخر وينتهك حقه.

بين الآونة والأخرى تجد ليلى إن وضع البؤس الذي تعيشه يتلاءم مع حال البلد كله.الفقر والجهل متجذران بين الناس البسطاء. الاختناق السياسي وقلة الحيلة جعل أهل البلد يصابون بالحسرة، وتقضمهم خيبة الأمل، ويلوكهم الانكسار كل يوم من شدة هزائم القهر التي تتوالى عليهم من كل حدب وصوب. بلد ليلى يعج بانتهاكات حقوق الإنسان، لا الأب يرحم أبناءه، ولا المسئول الذي يمثل السلطة يحترم آدمية من هم تحت إمرته. والأنثى لا تعادل حتى قيمة الصفر فهي ليست من عداد البشر في العرف، واقل شأنا من الرجل في الدين. الدكتاتورية مهنة يمارسها صغار وكبار البلد، بدءا برموز الدولة حتى أصغر مسئول فيها.

بعد أن غادرت والدة ليلى الغرفة، تاهت ليلى قليلا بالتفكير وهي مستلقية على الفراش. ليلى متيقنة أن هذه الليلة ستكون أطول عليها من الليلة التي قبلها، التمرد والرفض سيزدادان في داخلها. العصيان الجسدي سيجيش جنده الساخط ضدها. لن توقفه القراءات والأدعية والترتيلات القرآنية التي حفظتها إياها والدتها عن ظهر قلب والتي تجترها كل ليلة، سلاحها القديم ذاك هذه المرة لن يجدي. لأن حزنها كبير فبيت الطفولة سيُباع دون اكتراث، وجذورها ستقلع بقسوة منها، لتقدم قربانا لمأتم الإمام الحسين فيسعد به الآخرون ويحتفون به طوال السنين.

لا تدري ليلى لماذا تفرض الأقدار تارات أدوارا بطولية عليها من غير أن يكون لها خيار فيها، ولم تسعَ لحظة في طلبها! ألهذا السبب كل أنثى خلقت لأن تصبح أما؟ هل هناك بطولة في هذا العالم أكبر من الأمومة؟ الأمومة تجرد المرأة من "أنا الأخذ" وتخلق في عمقها "أنا العطاء" المتدفق دون توقف.

البطولة المفروضة إحساس يجعل ليلى تشعر بالخوف والارتباك والرجفة، لا تدرك لماذا أجبرت على ارتداء كساء بطولة لا يليق بها ولا هو مقاسها ولا هي أهل له، لكنها تحس لسبب ما أنها لابد أن تكمل دورها حتى لو تَطَلبَ منها الأمر أن تُسلم كل غال ونفيس سواء برضا أو بعدمه. فهي تعتقد أن ما يجري عليها من شؤم ربما سببه عشوائية أزلية متربصة بها منذ الأزل!

صوت التكييف يزن كالدبور على رأس ليلى. تشعر أن طحنه ازداد فأصابها قلق منه. الحر في البلد لا يُحتمل بدون مكيفات الجو.

عاش الناس حياتهم سنين طويلة دون تلك الآلات الملطفة للقيظ، لكن الأحـــوال اختلفت بعد اكتشاف النفط فيها. صار الصيف أشد حرارة والشتاء أقل برودة بسبب مصانع تكرير البترول بالإضافة إلى ألسنة اللهيـــب التــي لا تتوقف طوال الأربعة والعشرين ساعة من حرق الغـــازات الطبيعـــية الفائضة. صارت تصل درجة الحرارة في عز الصيف أواسط الأربعينات بالسيلوزي.

ضجيج التكييف دفع ليلى أن تنهض من سريرها بانزعاج وهي مـــرتدية ثـــوب قطني طويل، بأكمام ساترة، ذو لون أبيض ومزهر بـــورود صفراء. تناولت ليلى دواءها المنوم وسكبت ماء من زجاجة في كأس موضوع على مكتبها الدراسي القديم، كانت تستخدمه وهي طالـــبة. قذفـــت بقرصـــين في فمها، وتجرعت الماء آملة أن يسري مفعـــول التخدير بسرعة. فهذا هو سلاحها الوحيد الذي تبقى لها في هذه الدنيا لتحارب به أزمة الاكتئاب والأرق اللذان ألما بها منذ وفاة ســـامي. تستخدم الدواء المخدر دائما لكي يصرعها سلطان النوم به ويلـــتهمها بظلمته، لتحلق بعالم بعيد عجيب، وتنضم إلى سرب ليلي يحلـــق كلما حلّ الظلام في مساحات لا متناهية. يسافر أفواج وأفواج من الناس كل ليلة في سباتهم بهدوء نقي إلى تخوم مجهولة التقاسيم. يتـــنقلون هناك دون الحاجة إلى حمل وثائق رسمية أو بوصلة تدلهم إلـــى أي جهة يذهبون، يعبرون أماكن بعيدة من غير أن يكون هناك مراكـــب تحملهم، يجولون من أقصى الدنيا إلى أقصاها، ثم يعودون مـــن حيث كانوا دون أن يتعرف أي احد منهم على علامات طريق الذهـــاب أو العـــودة. الـــنوم عالم حر بديع، مرات يكون في غاية المثالـــية، قـــد لا يقـــوى على العيش فيه حتى سكان مدينة أفلاطون

الفاضلة، حيث لا تحكم عوالمه سوى خلود قصير المدى، ولا تسيره سوى قوانين وسنن الغارق فيه، ولا يكلف الإنسان لينضم اليه سوى الراحة الجسدية والنفسية.

تمددت ليلى على الفراش مرة أخرى مستسلمة لعبث الغياب عن حالـــة اليقظة، ومثل كل ليلة شعرت بالأيام تسحبها بشدة إلى الوراء، وتتسرب أحداث فاجعة زوجها في مخيلتها من جديد، وتمر بها لحظة بلحظـــة، وكأنهـــا شـــريط سينمائي لفيلم قديم يُعاد إخراجه من اجل الإثارة والتكسب.

فجأة فتحت ليلى عينيها بفزع لترى ما يجري. ودون أية مقدمات انـــتابها ذعر مذهل، واستعادت نفسها بسرعة من تلك الخيالات التي ألهـــتها عـــن مراقبة أخيها المتهور إبراهيم، الذي كان يسابق الزمن والـــريح فـــي آن واحد وبسرعة جِنونية. وجدت نفسها في السيارة وصـــرخت بـــأعلى صوتها وهي تقذف من مقعدها بشدة متجهة إلى الزجاجة الأمامية..

- إبراهـــيم ..إبراهـــيم انـــتـــبه لـلــــجمل أرجـــوك انتبـــــه..الجمل ..سيداهمنا الجمل.. يا إبراهيم ..سيصطدم بواجهة السيارة ..يمه..يمه..آه..آه

لكن زعيق ليلى لم ينفع بشيء، فقد سبق السيف العذل، واصطدم إبراهـــيم بســـيارته فـــي بطن الجمل ونتـــف أوصاله وقطّع أحشائه وســـالت دمائه على واجهة السيارة. تحطم هيكل السيارة من الأمام وتحولت تلك السيارة البيضاء إلى كتلة حمراء من غزارة دم الجمل.

أصـيب إبراهـيم ببعض الرضوض في الرأس وكسور خطرة في الأطــراف لكــنه لم يفقد وعيه. أما ليلى فقد أرتطم رأسها بالزجاج بقــوة، فزلزلت الضربة كيانها من هولها، وهشــمت جمجمتها. من شدة الضربة، زجاج السيارة الأمامي تكسر وتناثرت شظاياه في كل الأنحاء مغتسلا بدماء ليلى الفتية. تخضب المقعد بحمرة صافية حتى فــاح مــنه ســخونة الــدم الطــري الــذي لطــخ بفوضى معالم السيارة..وغمست أوشحة ليلى السوداء في دمها المهدور.

فــارق الوعــي لــيلى المضرجة بالدماء من الرأس إلى القدم. أختطفــت في عتمة وجُردت من سبل النور، كأن يد شيطانية نزعت مــنها لــباس الحياة وأسدلت عليها لفائف الموت، فاردتها جثة هامدة علــى قارعة ليل داكن كسا كل الأمكنة.. ثوان مرّت فخيــم سكون عليها بلا حدود.. وغابت ليلى باستسلام..في سواد حالك كسواد درب التبانة السحيق..وانتهى كل شيء في لمح البصر!

وحدة

بعد أن تغيب ملامح الأشياء التي تقتات عليها حواس البشر تبدأ الأذهان بالتساؤل بصدق عميق ودهشة حقيقية

"اجمــع أقطــار العجلــة إلى محور واحد..وانظر كيف يعطيك اللاشــيء حــركة..اعجــن الطين إناءً..انظر كيف يعطيك اللاشيء إنــاء..اصــنع أبوابا ونوافذا وارفع غرفة..فباللاشيء تكتسب الأشياء فوائدهــا" الشيء ليلى محاطة بمناخ مكتظ باللاشيء. سور أزلي سيّج عالم ليلى بظلمة مفزعة، وصقيع وحدة قارص، ووحشة لا تقوى على تحملهــا حــتى الآلهة . تجهدها عينيها وهما مغمضتان تحاول فتحهما لكنها لا تستطيع أن تحرك جفونها، وكأن ثقل الزمن كله رابض عليها. يتسرب همسها في الداخل ببطء، يحاورها.. فتتساءل :

– ماذا جرى لي يا ترى؟ هل أنا من عداد الأحياء أم الأموات؟ هــل مازلــت حية ؟ ربما..لكني لا أرى شيئا أبدا..لا أجد مؤشرات حــياة. هــل أصبت بعجز عن رؤية الأشياء!! هل فقدت البصر؟ لا أدري.. لا ادري..آآآه..مــاذا عن حواسي الأخرى؟ أنا أتيت إلى هذا العالم محملة بحواس خمسة ..أين هي؟ لماذا لا استطيع أن اشتم ولا أتلمس ولا أحس الأشياء من حولي؟ ولماذا لا اسمع سوى نفسي؟ هل أضــعت أدوات الســمع أيضا؟ أين غناء أم كلثوم وصوت إبراهيم وأنين السيارة التي كنت اركبها..؟ أين أنا؟..أين أنا؟..؟

تخفق ليلى في أن تجد أجوبة شافية لتساؤلاتها، فروحها صارت فــي عــالم آخر تجهله تماما. هي الآن كأنها تقطن خارج جسدها. تشــعر أنهــا تجوب بشرود في مكان ما غريب الملامح، تفتش عبثا عــن بصيص نور، تحس بجهد وتعب كلما واصلت البحث. ضعف وتصــلب شديد يدب فيها. يلتصق بهامتها صداع رهيب مؤذ يطرق فــي جمجمــتها وبشــكل دائم. تلازم بدنها حرارة شديدة تنبعث من رأســها، وتتســلل ببلادة في أنسجتها وتجتاحها بسخونة غريبة إلى ســائر أعضــائها المتهالكة. تحاول بأدواتها الحسية المعطلة أن تفقه شــيئا أو أن تلتقط صوتاً، أو تشتم رائحة تميزها لكن دون نتيجة، ما مــن هــناك جدوى ترتجيها ليلى من هذه الأعضاء المعطوبة، حتى أذنــيها تعصــيانها وتأبــيان أن تنصــتا لما يدور في المكان..تسأم الحــيرة..فتســأل دون أن تعــثر على إجابة و من غير أن يستمع لتساؤلاتها أحد..تردد :

– إبراهــيم ..إبراهيم ..أين أنت؟ يا عالم يا ناس ..هل هناك من يسمعني؟ هل هناك احد؟ أين أنا يا جماعة؟ وماذا حل بي؟ آآآآآه.. يا

رأسي لما كل هذا الوجع الذي أحسه فيه..؟ ثقله يضاهي الأطنان..ماذا دهانــي..أين يداي مني..؟؟ كيف يغدر بي هذا الجسد..؟؟ هذا الجسد الــذي أطعمته من جوع وحميته من برد وداريته عن المرض. خانني حيــن صــرت فــي أشد الحاجة له..حتى أطرافي ترفض الانصياع لأوامــري..أرغــب فــي تحريك يديّ لكنهما لا تستجيبان لطلبي..تبا لهما..منذ متى صارتا ترفضان لي أمرا..؟؟ هل من الممكن أن تتآمر الأعضــاء على أصحابها وتنكث العهد معهم؟؟؟ لا..لا..لا أصدق ما يجــري لي..ما الذي جنيته وما الجريمة التي ارتكبتها؟ هل هناك مَن قهــرته في هذه الدنيا..؟؟ لما يحصل لي كل هذا البلاء..؟؟ لماذا سوء الحظ صار يلازمني كأسمي؟؟؟

تود ليلى بعزم أن تتحسس رأسها، لكن تكتشف أنها لا تستطع أن تحرك يديها، ولا أي جزء من جسدها. فقدت القدرة على التحكم بنفسها وبمــا تملــك من دم ولحم. إنها بالكاد تنتزع أنفاسها.. وكأن كل نفس تلفظه يوحي لها بأنه الأخير وإنها ستتوفى من بعده لا محالة.

بقيــت لفترة طويلة لا تدري كم مدتها، وهي تحس بوجود اللا وجــود. تســتطعم فــي حلقها جمود الموتى، وتشم من حولها رائحة الثرى. تهمس بدون أن تحرك شفاهها..

– هــل أنا يا ترى ممددة في القبر دون أن أدري؟ ربما وأدوني أهلــي ..لكني لم أدنس شرفهم ولم أتعدى قط خطوطهم الحمراء!! هل أصــبحت روحا معلقة بين السماء والأرض؟ هل هذه هي النهاية؟ هل أنا ميتة؟ لا أعرف.. ربما أنا ميتة..

"الجســد الحي رقيق ولين وكذلك العشب والشجر الغض ..الجسد الميـت صـلب وقاس وكذلك العشب الجاف والشجر اليابس.." ودون درايــة لانــت قليلا مسامع ليلى فبدأ صوت مشوش يخترق مداركها الســمعية لفترات متقطعة، بل وبأصوات متناثرة هنا وهناك، بصبغة تكاد أن تميزها، وصدى عجيب يأتي من إحدى الزوايا، طنين و"بيبات" أجهــزة ملتصــقة بليلى، وآلات تقتات على نبضها كالكائنات الطفيلية اللاصقة. تخاطب الآلات بحيرة..

– مــا بي لا أقوى على الحراك؟ أوه.. لماذا أتنفس بصعوبة من أنبوب موصلا بآلة؟ وماذا عن هذه الأنابيب والأسلاك كلها؟ لماذا هي ملــتحمة بــي؟ ولماذا أتغذى واستخرج فضلات جسدي بمساعدة من آلات؟ ألهذا الحد أنا أنثى عاجزة؟ أجيبوني أيتها الآلات الصماء. كفوا عــن طباع العبيد هذا وصمت النساء العربيات المقيت. ردوا علي يا آلات، وإلا قطّعــت أواصركم المرتبطة بي وسلبتكم حياتكم.. هذا إن كــان لديكــم حياة. أعلموني ما هذا الجفاف الذي أحس به في الحلق؟ والــى مــتى ســأبقى هنا؟ والى متى سأظل على هذا الحال؟ آه.. لا يســمعوني .. يبدو أني أضعت مهارة الكلام مثلما أضعت القدرة على البلع والتنفس!

دبّ فــراغ أحاسيس في النفس، وفوضى أخذت تثــلم جسد ليلى المســجى. أحست أنها تتخبط في دهاليز الموت، وبالكاد تتلمس خيوط الحــياة.أسلاك ملتصقة بذراعيها وبصدرها تحسب دقات قلبها وتراقب تحــركاته. مازالــت العــتمة قاتمة! ولا تدري ليلى أين السبيل إلى الصحوة..

نافذة

هل بالفعل أن الأبواب المشرَّعة أقل أناقة وجاذبية من الأبواب المغلقة؟

ثغــور فــي جدار الصمت نبتت في ليل ليلى، وتبدد شيء من سكون الآلهة المطلق. لابد أن "يفرض النهر نفسه ملكاً على الجداول" ويتسرب راكضا ناحية منافذ الحياة التي تنتظر.

تــدوي بيــن الفينة والفينة في إذني ليلى كلمة غيبوبة من عدة حــناجر. تحوم حولها تغيب وتحضر. ترن وتثير باستمرار ضجيج في الداخل. وبعد طول انتظار وصبر يفوق صبر أيوب على بلائه. وجــدت ليلى نفسها حاضرة في المكان لاستقبال أي شيء يقدم نفسه على طاولتها. التصقت بمسامعها كلمة "غيبوبة" تتردد عليها بنبرات مخذولــة وبائســة! فــي البداية تلك الكلمة لم تكن ذات معنى، لذلك

احتاجت ليلى إلى زمن سحيق كي تبحث عن تفسير لها في دماغها المرتج وارسالاته المتقطعة. بعد عناء طويل، وبشغف دعوب، استطاعت أن تسترد من ذهنها معنى لكلمة "غيبوبة". أدركت ماذا يعنون بها .ذكرتها تلك الكلمة بعبارة أخرى وبحالها حين أدركت في يوم ما أن "الأنثى عورة".. روحها وعقلها وجسدها وكل ما فيها عورة. وأحيانا يضاف إلى صفة عورة نجسة أيضا.أحست ليلى بالغصة فبكت بدون دموع حتى أعياها البكاء، واشتعلت بحرقة الإنكار لواقعها المر، شعرت أنها في أمس الحاجة إلى مهاراتها كأنثى وبالذات كشيعية.. حيث زُرع في داخلها قريحة متأججة للندب والنحيب واللطم منذ الصغر. تمنت أن تشق جيبها وتلطم وجنتيها، وتشد شعرها، وتعفر وجهها في التراب كالحمامة الذبيحة، لكنها لم تفعل لأنها مكبلة مسلوبة الارادة. تلاشت أحلامها كلها أمام ناظريها وتبعثرت أمنياتها المؤجلة. صارت أرضها مهزوزة ورخوة، لأنها أيقنت أن وجودها في هذه الدنيا الشاحبة بات دون معنى..

بعد مرور وحدات زمنية عدة، لا تدري ليلى إن كانت أياما أم أسابيع أم شهورا، لأن العد صار أمرا مستحيلا على عقلها، فهو يعجز أن يجري أي عملية حسابية مجدية، لأنه قاطن في جمجمة مهشمة، يصارع ويلات صداع قاتل، يحاول عبثا أن يقوم بمهمة شبه مستحيلة وبدفع دم كسيح في الخلايا. لا أحد يدري إلى متى ستظل ليلى على هذه الحالة حتى أطبائها المختصين لم يستطيعوا أن يعطوا أهلها إجابة تشفي غليلهم، وتهدئ من روعهم، عن متى ستصحو ليلى من غيبوبتها وتتعافى.

في خلال رحلة شقاء طويلة، توقفت بليلى عقارب الزمن في يوم بدون لون، حيث أحست فيه بإشراقه شمس دافئة، سربلت أرضها الباردة، فشَرعت لها نافذة صغيرة محدودة الأبعاد، فقد تمكنت من فتح وغلق جفونها. صارت تنظر بذهول من حولها. تحرك عينيها وتتجول بهما في المكان وكأنها للمرة الأولى تمتلك القدرة على الإبصار. تنظر يمينا وشمالا فترى حيطان بلهاء، وسقف متستر بخبث بلون أبيض شاحب. تبدو الغرفة سقيمة تكاد زواياها تقص حكايات الاحتضار عمن قطنوا فيها، واستطعموا المرارات في كل تقاسيمها ولفتاتها. ليلى في غرفة العناية الفائقة..تلك الغرفة عبارة عن مكان انتظار وترقب لكثير من مرتاديها، حتى تعد الأجساد ويفارق النَفس أصحابه وتُجهز القبور على عجل لمودعي الحياة..

بدأت ليلى تستعيد قراءة بعض الوجوه البائسة في كل مرة يقوم أناس بزيارتها، حيث يلتفون بعيونهم المحدقة حول سريرها الحديدي ويطالعون بشفقة جسدها المشلول. من تقاطيع تلك الوجوه التي تفضح حزن محفور في أعماقهم، علمت ليلى أنها لا شيء وأن كل ما تبقى لها من هذه الدنيا هو نَفس عليل، ونبض منهك، وأعضاء بلا قيمة. تيقنت ليلى أنها في مستشفى وأن إقامتها فيه ستكون طويلة الأمد أو ربما قصيرة، وبعدها قد تولج في غياهب عالم آخر مجهول الملامح والأطوار.

كل تلك المعاناة التي تكابدها ليلى كانت بسبب جنون أخيها إبراهيم وتهوره في الطريق، أو ربما لأنها محرومة من حق قيادة

السيارة بنفسها تحولت الآن إلى مخلوق طفيلي عاجز عن الحركة والاستجابة..

من فترة إلى فترة طاقم طبي يحلّق حول سرير ليلى كي يشّخص حالتها، وأخصائي الأشعة يصورون هامتها كلما احتاج الأمر لذلك، وكل يوم يمر بها اختصاصي العلاج الطبيعي، ويقومون بتحريك أطرافها شبه الميتة، لتحريض دمائها الكسولة وتشجيعها على التدفق في الشرايين، وممرضات يغرزن الابر لسحب عينات دم منها، أو لدس العقاقير المسكنة في جسدها الصامت، أو يتحسسن المواسير الموصلة في مخارجها التنفسية والهضمية كي يتأكدن من انها تعمل بانتظام..

مرّت ألف ليلة وليلة، ربما أكثر وربما أقل، لكن بدون أن تمر بها شهرزاد بحكاياتها المثيرة وغنجها العذب. حالة ليلى تزداد سوءا، ووجع رأسها يتضخم، ووجوه مرتاديها تتكرر. مرات ترى والدتها مع أخيها إبراهيم الذي يأتيها محملا بسحنة ملطخة بإحساس الذنب والأسى، وكل مرة يحضر لها باقة زهور توحي بالندم وكأنه يطلب الصفح والغفران من ليلى . ومرات يزورها والدها وزوجته الشابة أنيسة التي تمقتها والدة ليلى بشدة، لأنها تتهمها باختطاف زوجها وتحمّلها كل ما حصل بينها وبينه من جفاء. وأحيانا تزورها أختاها زهرة ومريم وكل منهما تجر قطيعا من الصبية والصبايا. فهما كانتا ومازالتا تنجبان صغارا دون توقف مثل كثير من نساء البلد. زهرة ومريم تبدوان كأنهما أكبر سنا مما هما عليه بكثير، فقد تزوجتا وهما

ما دون سن الرابعة عشر والآن تحولتا إلى آلات تفريخ مهترئة.

تارات يمر بليلى بعض أفراد الأسرة مرور الكرام ، أو صديقات والدتها، أو أناس لا تميز ذاكرتها معالمهم. يلتفون حولها يحدقون بها ويتمتمون بآيات قرآنية ويغادرون. ليلى تصغي يوميا بسأم واشمئزاز إلى كل ذاك الزخم المكلل بالزيف والمطعم بالنفاق الاجتماعي، وهي ممددة كالفراش تماما متشحة بصمت بليد وقرف عاجز عن الظهور. عينا ليلى تبعث رسائل لمرتادي غرفتها باستمرار ،وترسل نداءات استنجاد وإشارات استجداء ، ليل نهار، لكن دون جدوى. لا أحد ممن يزورها أو يشرف على علاجها قادر على فك رموز خطاباتها ورسائلها اليومية المتكررة.. لا تدري كيف سيتسنى لها أن تتواصل مع عالم الأحياء ذاك وهي تنتمي إلى عالم يعد أعضائه أمواتا لكنهم مازالوا ينتظرون مواعيد لدفن رفاتهم...

القران المقدس

اللقاء الأول

التشبث بنزوات الحياة عبث ومصارعة سكرات الموت عبث أكبر

فكلاهما حالتان لاحتقان واحد

"مــن غــير أن تسافر بعيدا..تستطيع أن تعرف العالم كله ..من غير أن تنظر من النافذة تستطيع أن ترى طريق السماء..كلما ابتعدت أكــثر كلمــا قلّــت معرفــتك.." هاهي ليلى تعاصر زمن لم يحسب تحركات عقاربه أحد، ولم يُحدد من أي تقويم فلكي قدِم. نهضت ليلى فوق أكوام الألم بشموخ الفارس المنتصر. شعرت أنها كانت تتجول بحــرية في مكان ما، خارج أسوار الضجر. كأنها أنثى طليقة بدون أســوار ولا قــيود، تدفعها نفسها بهمة إلى الانتفاع بكل جوانب تلك الحرية العارمة، لا تدري ليلى أين هي، ولا على أي أرض تسير، قد تكــون لــيلى خــارج المدار الكوني، أو ربما فيما وراء الأفق. فقد أحسّــت وكــأن الدهر أخذها بقطاره ورحل بها تسعة قرون للوراء،

فرأت نفسها وكأنها في قلعة فرقة الحشاشين الخلابة. تلك القلعة التي كانت كالجنة الساحرة، حيث كانت واقعة بين جبلين في قزوين في إيران، وكان يطلق عليها "قلعة ألموت". قلعة الحسن بن الصباح الذي أسسها بخيالاته الجنونية، وشيدها بطريقة شهوانية مثيرة، وصاغها بعبقريته وعلمه وحذلقته بشكل يسلب العقل. كانت تحوي تلك القلعة على كل جماليات الجنة وملذاتها، فكل من ولجها تولعت نفسه بها وأصر على المكوث فيها إلى الأبد. كان مرتاديها لا يعرفون سوى المتعة الأبدية وهم يتعاطون الحشيش، ويغرقون في عالمه السرمدي. فزوار قلعة ألموت مدمنون على الحياة ومؤمنون إيمانا راسخا أن "لا حقيقة في الوجود وأن كل أمر مباح." مثل العالم الذي تحوم ليلى في تخومه وحدها الآن..

ليلى لا تدري إن كانت هي في قلعة "ألموت" أم في جنة الخلد ولا تستطيع أن تفرق بينهما على أية حال في هذه الوحشة. فقد تاهت في أجواء عجيبة، كأنها "ألس" في أرض العجائب، حيث بدت مبهورة وشاردة الذهن. فغرقت في بحور لا قاع لها، وعامت بين خلجات ذاتية متلعثمة، وبينما هي سابحة بين تلك الخيالات وبين نشوتها وجدت أمامها شيء ما، أو ربما شخص ما في أجواء ضبابية وسراب متكدس. السكون المطلق مازال يعج به المكان، تصالبت روح ليلى، واشتدت انهمارات القلب المتعطش للحياة، وولّت عن ليلى همومها، فشعرت وكأنها شُفيت من أورام الذاكرة. اشتدت صراعات رأسها وبدأ تآكل موجع يجري في خلايا الدماغ، كسمك القرش الجائع يلتهم حيرتها وهواجسها، لكن ذلك لم يحدها قيد شعرة

عن ذاك الشيء. اقتربت منه. باتت لديها رغبة مُلحة على الانبعاث والتحليق بين كواكب الفضاء. تألق القلب واشرأب اللسان لمحادثة ذلك الوجود، وإن كانت ليلى مشلولة تماما، ولسانها عاجز عن النطق، أو حتى عن إصدار أي صوت أو غمغمة، لكن اللغة حين تحتدم تصبح كشلالات "نياجرا" المندلقة التي عجزت كل الصخور العتيدة المتراكمة عن صدها أو تغيير مسارها. دنت ليلى شيئا فشيئا من ذاك الحاضر المبهم، وهي متلهفة كعاشقة للتو حظيت برؤية من تحب بعد غياب طويل مضني. أو كصوفي للتو التحم بربه وفاض النور منه وأضاء به الدنيا.

وضحت لدى ليلى الصورة أكثر، وازداد تأججا وتوهجا ذاك الإحساس الذي بدا بلا نزعة، وأرغمها على المواصلة. صارت تضيء في داخلها مشاعر أنثى باهتة منذ قرون، كنور قمر يحاول الظهور بين طيات سحب داكنة. تحفزّت نفسها أكثر فأكثر وتفاقمت الشهوة. وعزمت على أن تُكمل السير تجاه ذاك الجسم الغريب، علها تجد منفذا يخرجها من نفقها المظلم هذا.

بان ذاك المخلوق، وبرزت ملامحه بيّنت لليلى.. إنها أنثى! نعم أنثى!! حسب ما تعرفه عن ذاك المسمى من تفاصيل. أنثى ربما بعثت السماء بها إليها. لتبين لها قدرة الآلهة التي ستنتزعها من المستنقع الموحش التي هي فيه الآن ...

تلعثمت ليلى وتبعثرت في سقف حلقها الأصوات، وتعطلت

اللغــة. تعــثرت الكلمـــات بدت كطفلة صغيرة للتو تبنت الأبجدية، وتحاول عبثا أن تصفف عبارتها الأولى. احتارت ليلى في أمرها لا تدري ماذا تفعل. هل تبدأها بالسلام؟ هل ستستجيب إن فعلت؟ وماذا بعــد ذلك؟ هل ستسمعها إن نطقت؟ وماذا ستقول لها؟ ؟ هل ستفهم لغــتها ان تكلمــت؟ لا تعــرف أية إجابة لتلك الأسئلة الملحة.. كلها تحــتمل إجابة واحدة وهي ربما. مثل حالة صحتها الآن المعلقة بين خياريــن إما التطور ناحية الانبعاث أو التدهور تجاه الاندثار. ظلت لــيلى في صراع مع نفسها المعتلة..إلى أن دفعتها حنجرتها بصوت متردد قائلة بحذر:

– مرحبا

– أهلا..

سعدت وطابت نفس ليلى، لأن لغتها كانت مفهومة بالنسبة لذلك الكائــن العجيــب، لذلك وجدت أنه من الأفضل أن تسارع في تلبية حاجــتها فـــي الــتعرف عليها، من أجل إدراك الحالة التي تمر فيها الآن.. فبادرتها دون وجل بأسئلة متلاحقة..

– من أنتِ؟ و ماذا تفعلين هنا؟ بل ماذا نفعل نحن الاثنــتان هنا؟

– أي سؤال تودين مني أن أجيبك عليه أولا؟

– من أنتِ؟

– إذا عرفــتِ مــن أنــتِ فلــن تجدي حاجة للإجابة على ذاك السؤال.

تعجبــت لــيلى مــن إجابتها ..كانت بالنسبة لليلى إجابة مبهمة

ومحيرة لكن ذلك دفعها أكثر لتستفسر.

– لم أفهم ..ماذا تعني بما قلتيه!

– حسنا، أنا من كنتِ تبحثين عنها منذ دهور وتتوقين للتواصل معهــا، فــإن تيقنــتِ عن ماذا كنتِ تفتشين عنه طوال السنين التي مضت، ستتعرفين على ملامحي دون أدنى شك.

–هــل يعنــي ذلك أنك لن تجيبيني على ذاك السؤال؟ دعينا منه إذن.. أين نحن الآن؟

في المكان الذي اخترت لنا أن نلتقي فيه.

– حــتى هــذا لــن تــردِ عليه بإجابة صريحة. كم امقت اللف والمــراوغة لا بد أن عروقك تجري فيها دماء ذكورية. الآن سأوجه إلــيك سؤالا يا ..يا أنتِ...لا يحتمل ردودك الرمادية تلك. أنا أسمي على حسب ما أذكر ليلى، ما أسمك؟ ومن تكونين؟

– أحمل أسماء كثيرة يا ليلى، وأعشقها جميعا، فحيثما ذهبت وجدت لي لقباً إنسانيا جميلا، وقلوبا تبسمل وتسبح به، وعيونا تحلم وتتألق معه. قد أكون أي شيء لبعض الناس وقد أكون كل شيء لأناس آخرين، وقد أكون لا شيء للبعض الآخر! ربما زهرة جميلة في بستان فلاح معطاء، ضــحكة لصــبية صغيرة حظيت بقبلة فخر من والدها، قصيدة أو نغمة صيغت ببهجة كي تحيي حلما ما في نفوس ضعيفة، فكرة مورقة تنعش قلوبــا ناضبة، نهديً أم حنون يقطران حليبا في فاه رضيع جائع، شمس وســماء صافية، رفرافات ثياب صغار معلقة على حبل في هواء طلق، زخات مطر في يوم صيف حارق على أرض عطشى، رشرشات ماء بارد على جسد مصاب بحمى، ترانيم صوفية بين عشاق الرب، رسالة حميمة من حبيب متيم بين يدي حــ...

– آه..كفي كفي أرجوك..يكفيني ما قلتيه وما سمعته..أأنتِ كل هذا!!! إذن أنتِ آلهة هذا الكون وخالقته! هذا يعني أني ميتة! وكل ما أراه ما هو سوى خيالات ورؤى من أيامي الأخيرة. آآآآآه..هل انتهى دوري في هذه المسرحية الهزلية التي تسمى حياة؟ هل خُتمت قصة ليلى البائسة؟ هذا يعني أني توفيت قبل أن اخلص من سنين العشرينات بل ما زلت على عتباتها الأولى! غيبت عن الدنيا وأنا لم اتفتح بعد عليها. أنا كالزهرة الندية التي ابتلعتها العاصفة قبل أن يمس دفء الشمس وريقاتها. آه..ها أنا ذا انتقلت إلى الدنيا الأخرى، ورحلت عني الأيام دون أن تودعني بكلمة. كما فعلت مع حبيبي سامي حين اختفى! ترى هل سأراه قريبا هنا؟

ترقرقت دموع حارقة في عيني ليلى، وتحررت لأول مرة منذ صارت حبيسة المستشفى. سالت دموعها على وجنتيها الشاحبتين بسكون مؤلم، يفوح منه غدر الزمن وظلمه.علمت ليلى حينها بأنها مازالت تصارع سكرات الموت، أو ربما ما زالت تتشبث بنزوات الحياة!

غابت عنها تلك الأنثى الغريبة، فشعرت ليلى بصقيع يجتاحها ويعصف بها حتى العظم، ووحشة لم تحسها من قبل تخيم على القلب بقسوة. أخذ الرعب يستعمر مدنها، ويستولي على قلاعِها. خوفها صار أشد ألما من أوجاعها كلها، لا تعرف كيف أصبحتْ في هذه الحالة ومن أين حلت بها، ربما هذا الذعر داهمها لأنها خافت أن لا يعاود ذاك السراب العجيب زيارتها، فترجع مرة أخرى

لمصارعة ظلامها السرمدي ووحدتها الخانقة. كم أنها مثيرة للشفقة. تشعر أنها في أمس الحاجة إلى تلك الأنثى، بل إلى أي كان في وضعها المزري هذا.لا تحتمل العيش بدونها. تحاكي نفسها عن تلك الأنثى التي اختفت واضمحلت كأحلام صبية عربية ..فلم تترك أثرا أو عنوانا يوصلها بها.. تتساءل ليلى..بحرقة

– ترى هل ستعاود زيارتي تلك الأنثى التي بدون اسم؟ متى يا ربي سترسلها لي مرة ثانية؟ من أين سيتسنى لي أن اتصل بها وأنا بهذا السقم؟ حتى اللحظة لم أعرف من أين أتت ولم افهم لماذا غادرت بسرعة! هل لأني أثقلت عليها بالأسئلة؟ أم لأني كنت جافة نوعا ما في تعاملي معها؟آآآآه.. كم أتمنى أن تعود، وسأكون أكثر لطفا معها في المرة القادمة. بل سأترك ساحة الحديث لها، كي تجول وتصول فيها كيفما شاءت. أرجو أن تأتيني عاجلا يا أنثى أحلامي فأنا ضائعة.

روتين

النور المتسلل من شقوق الأبواب لا يكفي أبدا لإضاءة البيت بكامله

أثقال غير مشخَصة بعد رزحت في ذاكرة ليلى ..وأطياف غادرتها دون عودة، لكن جدول ليلى اليومي بدأ على أي حال. تزحف دقائقه وساعاته بتلكؤ في عالم اختار أن يحجب عن نفسه وعنها كل ألوان الحياة، فيما عدا اللون الأبيض، لون الأكفان ولون معاقل السقيمين والمحتضرين. ذاك اللون الذي يرتديه أفراد طاقمها الطبي، فيبدون كالصفحات البيضاء الفارغة التي لا تحمل سوى البلادة واللا أهمية. هاهي الساعة تُحرك أكوام البشر في زنزانة ليلى المزّهرة بورود تحتضر. تتساءل ليلى بحنق:

– لماذا أخي إبراهيم يُصر على إثارة شجوني وأحزاني؟ لماذا

يجلب لي هذه الزهور المعتلة بقصر العمر وتراكم الشيخوخة وسرعة الاحتضار والموت؟ هل يتصور أن مفترشو السقم في حاجة أن يتعايشوا مع ذاك الصنف من التراجيديات كل يوم؟ أليس ذلك سيزيدهم هما وغما؟ وهم يرون كل يوم بأم أعينهم الورود الجميلة تُدفع بسرعة تجاه فاه الفناء ليبتلعها.

لحظة بلحظة تشاهد ليلى الزهور وتقارنها بنفسها وهي تشحذ البقاء إلى أن تهترئ وتنهار وريقاتها وتندثر في اللا وجود.هاهي الورود أمام ناظري ليلى، منها من قضت نحبها، وأخريات تذبل، والبقية تنتظر. وهي غارقة فيما سيجري عليها وفي المراحل المشابهة لحياة الورد. تسرح ليلى قليلا وتغط في تأملاتها وهذيانها الفكري. فجأة تأتي ممرضة وتشعل جميع أنوار الغرفة. يتوجه شبح ممرضة إلى ليلى وكلما اقتربت منها بانت تقاسيمها بوضوح. إنها الممرضة الحسناء "كاتي". أتت وهي مخضبة بمساحيق صاخبة تكاد أن تخفي معالم أوروبية من وجهها. جميع الممرضات اللاتي يشرفن على ليلى لا يحسنّ التحدث بالعربية. غالبيتهن قادمات من وراء البحار. إما من شرق آسيا أو مشارف الهند أو عالم الغرب. كان من النادر جدا أن تأتي ممرضة من بلد عربي، ومن شبه المستحيل أن تأتي ممرضة من البلد. مهنة التمريض يعتبرها الناس مهنة قذرة ومحتقرة لذلك لم يزاولها في تلك السنين سوى القلة. فما زاد النظرة سوءا ناحية مهنة التمريض هو انه عملٍ يجري في بيئة مختلطة وهذا أمر لا تقره معظم الأسر. لذلك فهي تعد مهنة سيئة الصيت بالرغم من إن الممرضات يطلق عليهن ملائكة الرحمة لكنهن يعدن لدى كثير من رجال البلد كبنات الهوى. فغالبية الرجال الذين

يزورون مرضاهم في المستشفيات يعطون لأنفسهم الحق في التحرش بالممرضات ويرونهن مباحات كالمحظيات. يستلطفونهن بخبث وينظرون إليهن بشبق ولأنهن من صنف أنثوي يختلف عن نساء البلد،فهن نحيفات وجريئات ويتحدثن بثقة كبيرة دون أن يشعرن بخجل من الرجال من حولهن. تلك السمات جعلت منهن نساء مثيرات جدا ومرغوبات بشكل كبير لدى الذكور المبتذلين، لذلك كثير من الرجال يتحججون دائما بأي سبب، ليترددوا على المستشفيات بغرض النظر إلى الممرضات والتحدث معهن ومغازلتهن. أحيانا يتحرشون بهن بطريقة تدل على قلة الذوق وعدم الاحترام لتلك النسوة.

لكن الممرضة الشقراء "كاتي" يظل لها احترام خاص لدى ليلى. هبّت مسرعة وبدأت تتفحص الأجهزة الطبية، والأنابيب الموّصلة بجسد ليلى وتقيس نبضها. ثم شرعت بتدوين بعض الملاحظات التي لا تعني شيئا بالنسبة لليلى. أوصلت كيس مغذي جديد، وغيّرت كيس فضلات الجهاز البولي. بعدها أدخلت أدوية مسكنة للألم في جسد ليلى من خلال إحدى المواسير الموصلة بذراعيها، كل ذلك حدث وعيني ليلى تتبعان بصمت تحركات تلك المرأة الأوروبية. بعدها تحسست "كاتي" لفافات الرأس..توجعت ليلى وصرخت في أعماقها

– أوه أرجوك ..ابعدي يديك عني..لا تحركي رأسي.. انه يؤلمني.. لا تغيري العصابة مرة أخرى.. ابعدي هذه المقصات والشاشات عني. امممم.. كيف لا تعبأ بتوجعي هذه الممرضة الجافة؟ هل تتصور هذه البلهاء أن الخرس ومشلولي الأعضاء لا يشعرون

بالألم؟ فقط لأنهم يعجزون عن التعبير عن أوجاعهم.

كلما مرت بليلى هذه اللحظات الأليمة، أحسّت بمشاعر المخلوقات التي يؤذيها الناس ويزهقوا أرواحها ليقتاتوا عليها ويلتهموا لحومها، حيث تتألم بصمت دون أن يعبأ بها أحد..تقطّع أوصالها إربا إربا، وتكيّس بغطاء بلاستيكي شفاف، وأغلفة لامعة، وعلب معدنية جذابة، كي لا يشعر الإنسان بمدى وحشيته لهذه المخلوقات. ينظر البشر إلى أجزاء أجسام البهائم المعروضة في السوبر ماركت برضا، وكأنها قطع لحم أنزلت عليهم من السماء، وليست لها أية صلة بروح تنفست الهواء في هذه الدنيا، وجسد نما وتجول بين الأمكنة كل ذلك يحدث على مدار الساعة. وتمضي عجلة الأيام بهذه الجرائم المسكوت عنها..

توقف ألم ليلى وحنقها بعد أن انتهت "كاثي" الوديعة المظهر من تعذيبها دون أن تحس أو تسمع تأوها أو أنينا منها. غابت "كاثي" عنها للحظات لتحضر معها اثنتان، ذوات سحن هندية ليقوما بحمل ليلى من على السرير الذي سأم كل شبر منها وسئمته، لتغيير الأغطية والوسادة. عملت الممرضتان بهمة وهما تتحدثان بلغة لا تفهم ليلى منها شيئا. تتحركان بطريقة أوتوماتيكية، كالآلات وكل واحدة منهما تعي جيدا الخطوة التالية. كانتا تتحركان بتناغم معا كأنهن حيوانات السرك المدَرّبَة. أنهيتا عملهما وحملتا ليلى مرة أخرى من على السرير الذي بجانبها ووضعوها على سريرها النظيف المرتب.

بعدها أتى الطبيب "مستر سميث" المسئول عن حالتها، على أمل

أن يتلمس مسحة من العافية على جسد ليلى. فحصها باهتمام كمن يبحث عن ضالة عمره مع أنه يدرك انه لن يجدها عند ليلى..الوقت لم يحن بعد للشفاء وليس هناك بوادر توحي بقدومه قريبا. أدلى الطبيب "سميث" بدلوه هو الآخر بملاحظات في الملف المعلق من الأمام على حافة السرير الحديدية.

طوال النهار يتم تقليب ليلى ذات اليمين وذات الشمال، كأصحاب الكهف التي سردت حكايتهم الأسطورية في القرآن، حيث هربوا من ملك ظالم ولجئوا إلى كهف، وناموا هناك لبضع مئات من السنين..وبعدها عادوا للحياة..بعد أن تغير كل شيء وابتلعت السنون ذاك الملك الضاري وصروحه... ربما ليلى تعود أيضا لحياتها..فنوم الكهوف الذي ابتليت به ليلى، دائما يدفع الممرضات ليقمن بتحريك أطرافها وتدليكها، كي يظل سريان تلك الكرات الحمراء العاجزة مستمر في الشرايين، لتدفع بنبضها بنمط متتالي دون توقف أو تراجع كي يتأخر ولو قليلا مجيء الأجل المسمى الموعودة به مثل جميع مخلوقات هذه الأرض..

وضع ليلى لم يتحسن كثيرا بالرغم من أنها بدأت تتنفس برئتيها بدون مساعدة من آلة، لكن حالة جسدها المشلول في تدهور. والدة ليلى لا زالت تصر كل يوم على زيارتها مع أخيها إبراهيم الذي تسبب في وضعها المغيب هذا. تأتي إليها والدتها وهي مغطاة بأوشحة السواد. تفتح وجهها قليلا حين تتيقن أن المكان آمن وخال من الرجال الأغراب. ثم تبدأ تحاكي ليلى بنبرة حزينة مؤثرة، متمنية أن تجيبها وأن تتفاعل معها. تحاول بشتى السبل أن تحرك مخزون

اللغة في داخل ابنتها، وتشغل آلة الكلام المعطلة، لكنها تفشل، وتبتلع الأم مرارتها على مضض وتصبر. بعدها تقترب من ليلى وتـــحدق فـــي عينـــيها بنظرات تقطر حسرة وحرقة، فتنهمر دموعها بغزارة حتى تحمر جفونها من شدة البكاء. ثم يأتي دور إبراهيم بتهدئة والدته والبتر على كتفيها كي تكف عن البكاء. تصمت بعض الوقت وتخرج منديلا تمسح به دموعها وأنفها. هذه الدراما السوداء تعيشها ليلى كل يـــوم مع والدتها. تود أن تقول لأمها بأنها سئمت حزن الإماء وقلة الحـــيلة وخذلان الحريم هذا..تتمنى أن تقول لوالدتها أنها لا تريد أن تزورها وهي بهذا الحال فمرارتها تزيدها حنقاً وغبناً وأسى.

في كل يوم وقبل أن تلم والدة ليلى نفسها وترحل، تقرأ لها عن ظهر قلب، وبصوت مرتفع ترتل أدعية، وآيات ممتدة، وتعويذات قرآنية لدفع البلاء. وفي كل مرة تختم قراءتها بتلاوة آية الكرسي التي يحفظها معظم مسلمي هذه الأرض. ترتلها على مسامع ليلي بخشوع وهي تشدو(***اللَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ***) تنتهي من طقوسها، وتودع ابنتها وهي مكسورة القلب والخاطر، لكن كلها أمل بأن تعود في اليوم التالي، وتجد هذا الجسد الذي حملته يوما جنينا في أحشائها، قد تعافى من جموده، وكف عن سكونه، ودبت في أعضائه الحركة واستجاب لنداء الحياة.

اللقـــاء الثاني

الأحلام تنتظر قطاراتنا دائما لكننا أحيانا كثيرة نخفق في التوقف عند محطاتها

صبغة اليوم باهتة ونتوءاته تقضم معنى الحياة.. ليلى تبدو متعبة وكأنهـــا تـــرتدي هدوء الأنبياء وغبطتهم بعد رحلة تبشيرية موفقة. رحـــل عـــنها طاقم الأشباح الأبيض، فسحبت نفسها بخفة من عالم الحـــركة الروتينـــية واتجهت إلى سكون صرف يكاد ينافس سكون الأشـــياء من حولها..غاصت في أعماق من الهلوسة والتشتت، وهي تبحث عن قنديل مضيء لتستدل به على درب قد يوصلها إلى مكان ما. أي درب لا يهم في زمانها، طالما سيبـــعدها عما هي فيه. تتفاقم مشاعرها بالقلق والحيرة فتسأل:

– مـــا هذا الضجر؟ ما كل هذا الصمت العفن؟ بيات الزواحف

هــذا قصــم ظهــري وحبس أنفاسي..لا انس ولا جن يمر بي ولو بالخطأ..يا ترى اين هي تلك الأنثى؟ كيف ألتقي بها مرة أخرى؟ منذ أن غابــت عني لم اعرف طعم الراحة ولم ترتادني السكينة. .آه ما هــذا؟ أ هـــي هناك؟..هل أحست بوحدتي وقدمت لمواساتي؟؟ أكاد ألمحها يبدو إنها هي..نعم هي. بالتأكيد هي! أنا لست متوهمة هاهي متجهة ناحيتي! أنها قادمة! يا لا سعدي بمجيئها..هذه المرة سأكتفي بالاســتماع إليها، لن أحرجها ولن أضيق عليها بالأسئلة. فلتكن من تكــن لا يهم أبدا، حتى لو كانت شيطانة ملعونة أو ماردة متغطرسة من الجن فإني سأتواصل معها..

قربت تلك الأنثى شيئا فشيئا من ليلى فبادرتها بالتحية قائلة:

– أهلا ليلى..كيف حالك؟ لماذا رداء الصمت الذي تكتسيه هذا؟ ألا تودين محادثتي؟

قفــز مــن قلب ليلى كل ما تكنه لها من شوق وحرارة وخوف وريبة، وتجسدوا جميعهم أمامها، وكالطفلة الصغيرة التي لا تستطيع أن تتمالك أحاسيسها في لحظة الفرح..أجابتها :

– مرحبا يا...آ..آه.. أنا بخـير ... لقد افتقدتكِ كثيرا..لماذا..لم تزوريني منذ مدة يا..؟

أدركــت لــيلى أنهــا لا تعــرف اســم تلك الأنثى القادمة من المجهول.. فأسعفتها الذاكرة بسرعة وحذرتها بعدم الثرثرة، فحجبت اللسان عن طرح ذاك السؤال. فأردفت الأنثى برد مفاجئ:

– ســميني ما شئتِ يا ليلى.. وأنا افتقدتك أيضا، بالمناسبة أنت

من يقرر هذه المواعيد التي تحصل بيننا.

كانــت لــيلى تــريد أن تسألها أكثر لكنها خائفة..كيف لها هي طريحة الفراش، التي لا تشكل حتى صفرا هامشيا في كراسة صبي صـــغير، تمــتلك القدرة على أن تحدد موعد لقاء مع كائنة مجهولة الهويـــة مثلها؟ تذهب أينما شاءت وكيفما شاءت دون أن يصطحبها رقيـــب ذكوري أو أن تلاحقها عيون مجتمع فضولي!! لكن ليلى لن تسألها، فهي تعرف أن تلك المخلوقة تجرجر قدميها إلى ذاك المستنقع نفســـه مـــرة أخـــرى.. لذلـــك صمتت..مرّت لحظات سكون بينهما بعدها..بادرتها:

– ها يا ليلى، ما هو الاسم الذي اخترتيه لرفيقتك؟

– ها..ماذا قلت؟

– سألتك عن الاسم الذي تودين أن تطلقيه علي..

ودون إجراء أية عملية حسابية أو فكرية نبست ليلى بـــ :

– عشتار..اقصد ما رأيك باسم عشتار!؟

– عشـــتار..عاشقة تموز..إنه إسم جميل..حَمَلت ذاك الاسم آلهة الحـــب والخصـــب لـــدى السومريين! يبدو انك تودين أن تصبغيني بطلاء الآلهات..لكن لا تنسي يا ليلى، أن عشتار اختارت بكل رضا أن تهـــبط درجـــات الموت السبع وتقهره في العالم السفلي، لتضمن انبثاق الحياة واستمرارية تعاقب الفصول على الأرض. ألهذا السبب

ووددتِ لي أن ازدان باسمها؟

لـم يكن لدى ليلى الاستعداد للإجابة على سؤالها، لكنها تعرف أنهـا تحلم بأعاصير وزلازل ربيعية كي تحرك خريفها المقيت هذا، وتمـد عروقها بألوان قزحية نضرة وتحييها من جديد..فأردفت ليلى بالقول :

– لا ادري ..أنـا أحب عشتار ..لكن ليس مهما الآن أن أخبرك لمـاذا أحـبها..اسـمعيني الآن يا سيدتي عشـ ..عشتار..افهميني أرجوك..أنا مثل سائر البشر على هذه الأرض. أعشق الحياة وأهاب الموت.

صـمتت لـيلى قلـيلا وكأنها أضاعت أبجديتها..أحست عشتار بحيرتها فبادرتها بالقول..

– الحـياة تعشـقك أيضا يا ليلى، لذلك لن تتخلى عنك وستظل تحتضن روحك إذا ما اخترت لذاك العشق أن يتجسد في أجلّه.

فجأة اهتزت ليلى وأجابت :

– أرجوك يا عشتار لا تقاطعيني دعيني أكمل ما أود قوله..أنا يا عشتار لدي كم كبير من الأحلام والأمنيات التي أود أن أحققها، لكني كما ترين الآن شبه ميتة، ولدي إيمان قوي لا أدري من أين أتى لي، وكيف نمى في داخلي، بأني قادرة على اجتياز أقبية الظلام هذه من أجل الوصول إلى ساحات النور..وأحمل قناعة انك أنت الوحيدة التي سـتقدرين على مساعدتي، وستوصلينني بخيوط الدنيا ونشوتها مرة

أخـرى..لا أدري أنـتِ كيف تشعرين ناحيتي..لكن أنا أحس أني بحاجة لكِ وإن كنت لم أتعرف عليك بعد بصورة كاملة..

عبرت لحظات صمت مبعثرة فقامت ليلى بلمها بسؤالها:

– ما بك يا عشتار صامتة؟

– لا شيء كنت انتظرك لتنتهي ما أردت الإدلاء به

– لقد انتهيت..تفضلي..

– حسـنا يـا ليلى.. أولا أنتِ التي ستوصلّين نفسك بنفسك إلى المرافـئ الـتي تنشـدينها..وثانيا أحلامك ملكك ولن ينازعك عليها احـد..ولك أن تختاري أو أن لا تختاري تحقيقها..بدون أن يكون لي يد فيها

بان على ليلى القلق وهو يقضم سكونها والتوتر يلتهم أحاسيسها فردت :

– عشتار..اسمعيني جيدا أرجوك..أنا في عزلة عن العالم الذي كنـت اعـرفه..ونشأت فيه..الآن أنت الحلقة المتبقية لي منه..وربما أنت من يقدر على إيصالي به..أنا احتاجك كثيرا يا سيدتي، وأريدك أن تكونـي رفيقة حقيقية في محنتي هذه..أستند عليك كلما اشتد ظلم الحياة علي، وسُحب رداء الأمان الدافئ من على أكتافي..أود منك أن تفرحي لفرحي، وتحزني لحزني، تحلقي معي وتتساقطي من أجلي، تفرشـي لي أرضي بالطمأنينة المتجددة، تمديني بالنور المشرق كما تفعل الشمس مع قرينها القمر، وأن لا تتذمري من كثرة أسئلتي، ولا حـتى مـن سخفها..أنا الآن اشعر أني تائهة واحتاج لمن يدلني إلى الطـريق السـوي. فكمـا ترين أنا أصارع الموت كل يوم، بل في مواجهـة حقيقية معه، لكن في الوقت عينه أحس أني أحمل بداخلي

حلم جلجامش لقهره.. أريد أن أحيا يا عشتار ..فهل تسانديني لبلوغ تلك الأمنية؟ هل بإمكانك عمل ذلك؟

– أنا معك يا ليلى، وسأمدك بما تحتاجينه، وأسئلتك لا تزعجني أبـــدا. ومن قالَ أن هناك أسئلة سمجة؟ كثِير من الأسئلة التي حرّكت إيقـــاع الزمن وغيّرت مداراته الكونية، نُظر إليها في البدء على أنها تافهة ومضيعة للوقت. الإنسان يتحول إلى ظل إنسان حين تموت في داخله الدهشة المحرضة على التساؤل..وحلم جلجامش حققه كثير من البشر قبلك، حين استطعموا إكسير التساؤلات المدهشة..

– أهذا يعني أنك ستلازمينني طوال الوقت؟

– سأكون بجانبك حين تحتاجيني!

– هل تعدينني بذلك يا عشتار؟

– أعدك يا ليلى.

مرة ثانية، تنهمر دموع ليلى وتذرفها بكثافة من عينيها. تتدحرج بســـخونة فرحة، لتزرع برقة أنهاراً مبهجة على خديها المتصحران، واللذان فقدا لمسات الابتسامة وعذوبتها منذ أمد بعيد.

اللقـــــاء الثالث

الإنسانية سيمفونية جماعية رائعة لم تـــطرب قط مسامع المنشغلين بألحانهم الخاصة

بينما كانت ليلى تغط في غفوة عميقة بسبب عقاقير التخدير التي تُـدس فـــي جســـدها كل يوم، أحسّت بهواجس تتزاحم بفضول في داخلها. حينها راودتها تصورات حياة. ربما كانت قد عاشتها منذ مدة وربمـــا الزمن عاينها في دنيا غير هذه الدنيا! حيث كانت ليلى تحلق بيـــن سعادة وأخرى..قبل بضعة شهور ربما أكثر من سنة ربما منذ دهـــور سحيقة.. كانت ليلى تقطن في سكن راق في مدينتها الساحلية المحبـــبة مع أجمل من عرفت من الرجال، وأنبلهم وأعذبهم. زوجها الغالي سامي، الذي اختطفه الزمن منها بغتة.

حتى اليوم لم تدرك ليلى أي معنى لفقدان زوجها الشاب سامي. فالسماء مرات كثيرة تكون حساباتها مع البشر غير صائبة، تعبث بسجلاتهم بفجاجة وقسوة كما فعلت بليلى، لا أحد يدري هل هي بالفعل الأقدار تخطئ في مواقفها معهم، ولا تصحح الخطأ ولا حتى تعتذر عنه؟ أم أنها بيد الهية ؟ هل لأن الأقدار غير ملزمة بذلك تفعل ما تشاء دون اكتراث؟ أم أن الناس هم الذين لا يحسنون السير في سبل الحياة الصحيحة، ولا يعرفون كيف يستدلون عليها ؟ لا احد يدري من أين تبدأ وأين تنتهي تلك الدائرة!

حكاية ليلى مع حبيبها سامي كانت جدا قصيرة. تزوجته بعد أن تخطت كثير من الأزمات الصعبة. فقد كان ينتمي إلى أسرة عريقة وكبيرة لها جذور صلبة ومتشعبة. تنحدر أصولها من مدينة قبلة المسلمين مكة، حيث تمتد قبيلته عبر الأجيال وتلتقي بأحد أحفاد الرسول الكريم وتنتسب له. في عرف الشيعة يُطلق على أفراد الأسر المنتسبة للرسول بـ "السادة". وتلك السمة تعطيهم حق شرعي في خمس أموال المزكّين والمتصدقين، تُجمع وتُمنح لهم كل عام إذا كانوا في حاجة لذلك. معظم ضريبة الخمس تقدم للحوزات العلمية والتي هي عبارة عن مدارس دينية يتأهل فيها المشايخ والأئمة وآيات الله. أيضا الحوزة تقوم بدور التأمينات الاجتماعية حيث تمد الفقراء والمعدمين بالمال والمؤونة.

جرت العادة أن السادة يتزاوجون من بعضهم البعض إلا فيما ندر. ولا يكون الشخص "سيدا" إلا إذا كان والده كذلك. أما إذا حصل وكانت

الأم فقط هي "السيدة" فالأبناء يحصلون على لقب "الميرزا".

سامي كان "سيدا" من الدرجة الأولى كما يعتقد الشيعة، لأن والديه سيدان، أي أن جدهما رسول الله كما يقال. تمنى له والداه زوجة من بني جنسه، وحاولا بشتى الطرق أن يعطلا خطة زواجه من ليلى لأنها من عامة الناس، ولكن سامي رفض كل العروض وقاوم جميع التحديات ولم يرضِ بغير ليلى رفيقة لدربه المبتور. والدته كانت أكثر من والده إنكارا لليلى وتعصبا ضدها، لأنها تعتقد أنهم من رتبة أرقى، ومقاما أعلى، وانه ليس من الصواب أن يختلط دم "السادة الصافي" بدم "العامة" ذو الشوائب..

سامي كان فعلا "سيدا" نبيلا، فهو لم يكن أبدا يرى ما يراه أهله. صاحبَ نور أخو ليلى لسنوات طويلة، وتعرف على أسرته عن قرب، مما جعله يتيقن أن البشر يلتقون في سمات أكثر مما يختلفون، وان كل ما تربى عليه من فكر ومعتقدات في الصغر ما هي إلا عقائد جوفاء وفكر اخرق.

غابت ليلى قليلا فسمعت صوتا اندس في أذنيها ولمحت معه صاحبته وهي تقول :

– مرحبا ليلى..!!

– آه عشتار..أهلا بك ..منذ متى وأنت هنا؟ لم أشعر بوجودك حولي...أين كنت تختبئين؟

– كنت معك منذ أخذتك اللحظات الأولى إلى ذلك الفصل من الذاكرة. ولم أمس أفكارك لأنك كنت تحلقين في فضاء بعيد متقد.

– آه..إنهـا مجـرد محطـات لخواطر عابرة أكل عليها الدهر وتجشأ..

– بـل أرى أنها شموس قد تحيي كواكب معتمـة...هل لك أن تأخذينـي معـك إلى حيث ذهبت؟ احكي لي يا ليلى.. أخبريني عن حبيبك سامي.. وعن حكاية دماء البشر ذات الألوان المختلفة..

هبطـت لحظات دهشة على وجه ليلى بثقل غير معتاد وتلعثمت الخواطر في ذهنها، لا تدري ليلى كيف أحست عشتار بما كان يدور فـي خلجاتهـا..لكنها لم تشأ أن تسألها عن شيء..فواصلت مجرى الحديث وكأن الأمور عادية فقالت:

– آه..تصوري يا عشتار بالرغم من أن جميع دماء البشر ذات لون واحد، إلا أن الناس في هذا العالم ترى غير ذلك. فألوان دماء الـناس باتـت متعددة هذه الأيام كأصباغ الطيف، وبدرجات متفاوتة وأسـعار مخـتلفة..مـنها الغالـي جدا ومنها الرخيص جدا وهناك مسـتويات بيـنهما. تحمل تلك الدماء مسميات متعددة مثل..الأبيض والأسـود .. الأكثرية والأقلية..الغربي والشرقي.. الأثرياء والفقراء الحكام والمحكومين وبالطبع الأديان وطوائفها أضافت أصباغا أخرى إليها..

– نعـم يا ليلى.. أنت محقة في ذلك..وعلى أثر هذا التعدد الذي تفشـى كالوباء بينكم، صُنفت المجموعات البشرية إلى فئات مختلفة، ومـن ثـم خلقت فجوات وحواجز فيما بين الناس مما حجبت عنهم رؤيـة كـل مـنهم الآخـر، فصـارت الأفراد متفرقة كالأعشاب الصـحراوية اليابسـة، التي ترفض أن تقترب من بعضها البعض، أنانية منها وخوفا على نفسها من الغير. فالاقتراب بالنسبة لهم يعني

التواصل، والتواصل يعني المشاركة، والمشاركة تعني العطاء وهذا ما لا أحد منهم له طاقة عليه. لأنهم لم يعتادوه.

– العطاء يتطلب أرواح زكية وواعية!

– هذا صحيح يا ليلى ..لذلك اختارت الأعشاب البشرية البالية أن تتوحد بنفسها، و تمتص كل ما تقوى على امتصاصه من مخزون هذه الأرض وثـرواتها. فأمسـت كشـرنمة تنتشر في عرض الأرض وطولهـا بدون نفع أو فائدة. بل قد تكون مضرة وسامة. لكن الدنيا لا تخلف وعودها مع احد أبدا، فكل مرة تأتي تلك الأعشاب من حيث لا تعلـم دواب بشرية ضارية، بحيث تكون أشد قوة وأكثر أنانية وجشعا منها، فتقتلعها من جذورها وتلتهمها من غير أن تترك لها أثرا يُذكر..

– حقـا هـذا مـا يحدث بين هذه الشاكلة من البشر..أتدرين يا عشتار؟

– ماذا يا ليلى؟

– أنـا وسـامي اخترنا ألا نكون من فئة تلك الأعشاب البشرية الفاسـدة ولا مـن الـدواب الضارية، فقررنا سويا فتح آفاقا جديدة للتواصـل. واستطعنا أن نلتقي بقناعة وحميمية، محتضنين بصدرينا شـعارات حب وألفة من مذاق آخر. لم يعد يهم أحد منا ألوانهم ..لا "العامـة" ولا " السادة"، لا الأكثرية ولا الأقلية، لا المؤمنين ولا غير المؤمنين لم نعبأ بذاك الوهم أو غيره ، لأننا ارتقينا بأنفسنا معا حتى عانقتـنا نجوم السماء، ولامست روحينا بريقها. كان بالفعل شموخا متألقا، أكاد أحس بعظمته يجري في شراييني حتى هذه اللحظة.

– أكـاد أحسه معك يا ليلى ..قليلة جدا هي اللحظات التي تمر علـى بني البشر التي تجعلهم يشعرون فيها أنهم أضاعوا طريقا لمن

سيأتي بعدهم. وأنه عندما يغادرون هذا العالم سيخلفون من ورائهم ثراء إنسانيا، ونورا روحيا يهتدي به من احتاج إلى الهداية.قد لا يبدد بعض هذا الظلام اللا إنساني الرازح على نفوس البشر ومعشش في العقــول، سوى تلك الشموع النيرة المتجددة، التي تبثها أرواح الناس الصادقة النقية، مثلك يا ليلى..

– ربما كنت يوما ما كذلك.. لكني لا شيء الآن، ولا امتلك شيئا أبدا..

– لــيلى هــذه السيمفونية الندية التي للتو سمعتها منك هي كل شـــيء، وأنـــت من كان يعزف نغماتها ببراعة وخفة.. فصمت الليل وظلامه وان طال لا يجليه سوى أضواء الصباح الهادئة..

– لكــن لا أحــد فــي هذا الزمان يصغي إلى هذا الصنف من السمفونيات

– يومـــا مـــا سيكون لها جمهور يرددونها بحضورك بينهم..لن تنتهي تلك النغمات عند ذاك الحد فقط بل الأهم ما يحدث على أثرها فكمـــا يقال إن " الأمر ليس غياب الحرب لكنه حضور السلام، ليس مجـــرد غـــياب المأســـاة لكنه حضور الكوميديا، ليس مجرد غياب الكراهية لكنه حضور الحب، ليس مجرد غياب الجهل لكنه حضور الوعي، ليس مجرد غياب الموت لكنه حضور الحياة. إنه ليس مجرد غياب الخوف، لكنه حضور الثقة.."

توقف الحوار، وإذا بمسامع ليلى تتفتح على صرير عجلات قادم ناحيتها، يبدو كصهيل حصان مسن أعياه صاحبه من الجري.عوّدها ذاك الصوت كل مرة أن يأخذها في رحلة إلى قسم الأشعة من اجل التقاط صور لجمجمتها المشروخة..

اللقـــاء الرابع

الإنسان منولوج داخلي محرض على الخير والدهشة، حالما يخفت همسه يفقد الإنسان بريق آدميته وعبقه

ضجر..ألم..الأجواء خانقة ومملة..مشاعر تستعمر خلجات ليلى وتضــنيها. تلــح نفسها بالسؤال الذي زادها سقما وكبدا..هل ستظل علــى هذا الحال حتى تودعها الدنيا؟ الآن صارت ليلى بلا عصابة الــرأس.. وأزاحــوا عنها بعض الأسلاك وبعض الأجهزة..لكنها لم تشــعر بعــد بنــبض الحياة..ولا بلذتها.. صوت رهيف اتاها حيث مشاعر الخيبة تقضمها..

– لا تحملي هم ولا تنزعجي يا ليلى.أنت ستحسي بذاك النبض إذا آمنت به وبحيويته..مثل كل شيء في دنياك هذه..

أردفتها ليلى قائلة بحنق:

– عشتار ..هذا أنت دائما، لا تتحدثي سوى بالرموز والنصائح!

أصـــدقيني القـــول يا عشتار كيف يتسنى لي أنا الكسيحة الخرساء، المشــلولة الحـــركة، أن أحطم أغلالي هذه، وأحرر هذا الجسد وأفك محنته؟

أجابت عشتار قائلة:

-هــل أغلالـــك الآن أشد ثقلا وضيقا مما كانت عليه؟ هل قيد الجســد هـــو المعضـــلة؟ أم أن الأغـــلال الحقيقية مسكنها الأذهان والقلوب؟

لم تشعر ليلى أنها بحاجة إلى سماع ما يجعلها تتردد عما كانت تود سرده، لذلك واصلت حديثها وكأنها لم تسمع شيئا...

– أوه يــا عشـــتار لقد سئمت نفسي، وكرهت هذا المكان. أريد العـــودة حيـــثما كنـــت. أريد أن أكون ليلى مرة أخرى، تلك الشابة الجمـيلة التي تستعد للرحيل لإكمال دراستها فيما وراء المحيطات، حيث كانت لها ثمة حياة تنتظر، على أرض لا تحتضن سوى الجمال والحـــرية..كـــم هـــو جمـــيل ذاك البلد..شاهدت معالمه في الأفلام الهلوودـيـــة.. هــــي أرض العمــــارات الشـــاهقة وناطحـــات السحاب والســـيارات الضـــخمة والـــثراء الفاحش..أرض "داينستي" و"دالاس" ..أرض خرافـــية.. حيـــث لا يوجـــد جـــائع فـــيها ولا محروم من الحـــرية..النســـاء هـــناك جميعهن مخمليات وحاصلات على جميع حقوقهن، متحررات من كل قيود الدنيا. يتمتعن بضجر الحرية. هل جربت يا عشتار ضجر الحرية قط؟

أجابتها عشتار بتعجب :

– لا ..ما هو؟

– هو بكل بساطة حين تكوني حرة طليقة ليل نهار، مجردة من جميع أصناف الوصايا والرقابة، حرة مائة في المائة دون أن تدفعك تلـك الأحاسيس إلى الانتفاع بالحرية، لا داعي للاستعجال مثل أهل هـــذا الـــبلد، يعيشون حالة هستيرية ويسابقون عقارب الساعة كلما ســـافروا إلى الخارج، يخوضون كل تجربة محرمة عليهم في بلدهم بـــنهم وجنون عجيب، لأن حريتهم محسوبة عليهم تنتهي حالما تحط أقدامهـــم علــــى أرض بلدهم..فالحرية حين تكون موجودة بك ومعك ومـــن أجلـــك فكـــل شيء يصبح تحصيل حاصل من إنتاج وإبداع وتطـــور.. عندما تصبح الحرية جزءا منك، وكأنها إحدى أعضاءك التي لا ينازعك عليها أحد، تستخدمينها متى شئت لتلبية رغبة ما، أو في الحصول على غرض خاص.. هذا ماأسميه بضجر الحرية اللذيذ الـــذي لا تـــتحكم فيه إيقاعات الزمن..ولا أمزجة البشر حين تعيشي على أرض حرة "برأس طليق و يديين حرتين" ..

صـــمتت قلـــيلا ليلى محاولة أن تجمع أفكارها دون أن يخطف الوقت منها عشتار فأكملت كلامها بنغمة أخرى قائلة :

– أتدرين يا عشتار إن معظم الشباب والشابات في بلدي يحلمون بزيارة تلك الأرض ولو لمرة لتذوق طعم الحرية..؟ يقال أنها تسمى أرض الفـــرص..لا أدري مـــاذا يعـــنون بذلك لكن لا يهم.. كنت يا عشـــتار قـــد جهّزت نفسي لقلب صفحة قاتمة بعد فجيعتي بزواجي المبـــتور. وددت أن أبدأ مشروعا آخرا في حياتي، بعيدا عن عالمي البائس هذا..لكن لم تمكني الأيام منه.

هدأت ليلى قليلا وكأنها تنتظر من عشتار تجاوبا لكن لم يحصل فواصلت قائلة :

– عشــتار..قرفــت مــن هذه الأنابيب الموصلة بذراعي وبأنفي وبأعضــائي التناسـلية، وتلك الآلات التي يستخدمونها أحيانا لتحسب زفــير رئتــي وشــهيقهما، ونبضـــي سئمته الذي ينبض ببطء أحلام المعدميــن والأيتام. كرهت هذا الجسد الهزيل المتهالك.. حتى عظامي الســاكنة أصــابها ملل ونخر من شدة هذا الروتين القاتل القابع فيها. ساعديني يا عشتار على الخروج من هنا. أفتحي لي الأبواب أرجوك ..أرجوك..يا عشتار!

أحســت عشتار أنه قد حانت اللحظة بأن تدلو بدلوها فسارعت بالجواب قائلة :

– ليلى..أنا لا أمتلك المفاتيح للأبواب التي تنشدينها، وليس لدي دواء أو وصــفة سحرية لتخرجك مما أنت فيه، أنت من يمتلك ذلك كلــه. أســتطيع أن أسرد عليكِ حكاية عن إنسان عاصر انكسارات تتشابه في المضمون معك لكنها تختلف في الطلاء.

وبيأس أجابتها ليلى :

– ســتقومين بدور شهرزاد اليوم..عدا أني عكس شهريار.. لا أملــك أي نـــوع مـــن السلطة، حتى جسدي بات رهن إرادة الناس القائمين على رعايته ورعايتي..ياﻻ سخرية هذا الزمن..تفضلي هيا أخبريني يا رفيقة..عله يخفف علي شيئا مما أنا فيه..

أكملت عشتار الحديث بسرد الحكاية..

– فـــي زمن الحروب الضارية، وحين يشتد وطيسها، وتنتصر فـــرقة على أخرى، وبعد لَم الغنائم وتوزيعها بين المنتصرين، جرت العـــادة بيـــنكم أنتم البشر أن تُشنوا حملات شنعاء على المهزومين والمنكسرين وتنكلوا بهم أشد تنكيل..

– للأسف.. هذا بالفعل ما يحدث..

– في حقبة من زمن ما كان هناك إنسان راق، من صنف آخر مـــن البشـــر.يجيد حوار الذات ومحاكاة النفس. حاصل على مركز اجتماعـــي مرموق، وهيبة بين من يعرفه ومن لا يعرفه. كان مسلحا بالمعـــرفة والفطنة. كان يقطن مع أسرته وأبنائه على أرض سادها سلام مترنح حتى ابتليت بحرب مدمرة وهزيمة كبرى.

– معنى ذلك أنه صار من حزب المهزومين!

– نعـــم، لـــذا سُطي على بلده بما فيها. ولأنه ينتمي إلى فريق المنكســـرين فقـــد هبت عليه رياح التمييز العاتية، فاستعمر، وأُسر، ونُكِّل به هو وكل أقاربه وأهل بلده، وحُملوا بعربات كالحيوانات إلى معاقل مختلفة. كان ذلك في شتاء قارص وجليد عتيد. استَغلوا في بلد المســـتَعمِر، كالعبيد الرخيصة في الحرث والزرع والبناء والإعمار. مـــات مـــن مـــات وعاش من عاش منهم، بسبب الظروف المناخية القاسية. ولم يتبق أحد من أفراد أسرته.

ذاك الإنسان لم يكترث كثيرا بما كان يدور حوله. فقد فصل الـــروح عـــن الجسد، وتركها تحلق بعيدا بحرية ومتعة. قضى في الاعـــتقال سنوات طويلة، وعاشر في المعتقل أناس أصغر منه سنا، وأشد منه بنية، لكنهم كانوا ينهارون ويتساقطون بسرعة، كالأغصان

الميتة في أشجار خريفية يابسة. عاصرَ كل أصناف المرارة والألم. كــان مكبلا بالقيود ومسلوب الإرادة، لكن المعنى لم يبهت في نفسه لحظة، بل اشتد نضارة وتوهجا يوم بعد يوما مما دفعه للصمود حتى يوم تحرره..

أحســت لــيلى بفــرح حين وصلت عشتار لذاك المنعطف من الحكاية فبادرتها بسؤال محير :

– مــا هــو ذاك المعــنى الــذي جعله يحتمل كل تلك المعاناة والمرارة؟

أجابت عشتار بهدوئها المعتاد الناعم

– معــنى الحــياة يــا لــيلى..هو ذاك الذي ظل ينمي معنوياته ويزيدها عنفوانا وشدة، ويصغّر من حجم مصائبه ويمحيها. هو نفس المعنى الذي تحمله كل الفئات المستضعفة في عالمكم الموحش هذا، من أجل البقاء والاستمرارية.

– استمري يا عشتار.. أخبريني عن المعنى بتفاصيل أكثر.

– المعنى هو أن تركزي على ما تستطيعي القيام به، لا على ما تعجزي عنه، وأن تنمي في داخلك ما عندك، لا أن تندبي على مالم تحصــلي عليه أو ما فقدتيه، وأن تنظري تجاه "الأبواب المفتوحة لا ناحية الأبواب المغلقة"...ليلى .. حين يدرك الناس ذاك المفهوم كثير من الصعاب تضمحل وتتلاشى من حياتهم.

– لكن معظمنا يا عشتار لا يقوى على مواصلة البحث من أجل إدراك ما قلتيه قبل قليل..

– هــذه عاهة متوارثة لدى البشر..يودون أن يحصلوا على ما يــريدون دون جهــد أو عناء، ويتمنون أن يُقدم إليهم على طبق من

ذهــب. دائمــا يرّغــبون النفس ببحبوحة البقاء، ولا يجهدونها في التعرف على أن معناها الحقيقي في الفناء. يريدون دخول الجنة لكن غالبيتهم لا يحسنون عبور جسرها المحفوف بالموت للنيل منها..

لــيلى أرادت إن تعود لبداية الفكرة التي شعرت أنها بدأت تندس تحت عبارات في غنى عن سماعها لذلك أردفت قائلة:

– منذ آلاف السنين يا عشتار والإنسان ينبش في جميع الأمكنة عــن إجابة مرضية لهذا السؤال ما معنى الحياة؟ وحتى الآن لم يجد إجابة شافية له. هلكنا ونحن نريد أن نعرف الهدف من وجودنا، وهو عندك يا عشتار ..هيا اخبريني عنه..هيا..ألحقيني به..

– ليلى.. معنى الوجود ليس عندي بل هو في داخلك وفي داخل كــل الــناس. يحملونــه معهم في خلجاتهم طوال الوقت دون وعي لماهيته. هم في حاجة أن يصقلوه جيدا لكي يشع بريقه ويضيئهم من الداخل وينير من هم حولهم!

داهمــت لــيلى تساؤلات صعبة وشعرت أن الوقت ليس حليفها فبادرت عشتار بعدة أسئلة..

– كيف..وأين ..ومتى؟

– لــيلى إلحــاحك هذا هو جزء من عملية صقل المعنى... فأن تبحثــي عــن معنى للوصول هو المعنى الذي ينتظرك لتكتشفيه، قد يكون في أن تصرّي على أن تكوني ما شئتِ وتكوني بقناعة حقيقية نابعة منك لا بتأثير من الخارج! وأن تتذكري أنه لا يهم أبدا إن كنتِ تملكيــن الدنــيا بما فيها، أو أن كنت معدمة، الذي يهم أن يظل معك مــنولوجك الداخلي، يشع ويتوهج ويهمس لك باستمرار دون توقف، تقدمي لا تتراجعي حتى تجدي ضالتك وتستقر نفسك!

– عشتار أنا مازلت أبحث عن ذاك المعنى..

– هـذا يدل على أنك موجودة وتتمتعين بكل مقومات الحياة يا ليلى...

توقـف الحديـث فجأة بعدها اندست أصوات بعض الزوار في الغـرفة، ففتحت ليلى عينيها بكسل، وإذا بقطيع من البشر قادم تجاه سريرها..نساء بسوادهن ورجال بثيابهم وغترهم البيضاء. هذه أزياء الجنسيين الرسمية في البلد. كأن لسان حالها يقول السواد يعني أنثى والبياض يعني ذكر. ولن يعامل السواد على أنه بياضا قط على هذه الأرض مهمـا كانت الأسباب والذرائع. لونان يصرّان على العزلة والانفصال والطبقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

لـم تـدرك ليلى من تفاصيل زوارها أحدا، ربما قدِموا من قرية والدها أو من الحي العتيق الذي ترعرعت فيه. لكنها تعرف جيدا لماذا هـذا الحشد أتى لزيارتها. الواجب الاجتماعي فرض عليهم ذلك، وهذا مـا يحـرك الناس في هذه الديار. اعتادت الغالبية من الناس أن تقوم بالواجـب ليس حبا ولا رغبة فيه، بل من أجل أن يظلوا منتمون إلى المجموعة ويستمروا على أنهم منهم ومرضي عنهم.

رأت ليلى أنه من الأفضل أن تسارع بإغماض عينيها، وإغلاق مسـامعها كي تتملص من ملاقاتهم لتعطيهم سببا لكي يرحلوا. ومن أجـل أن تدفعهـم إلى الاعتقاد بأنها في غيبوبة مستديمة ولا يعودوا لزيارتها مرة ثانية.

اللقـــاء الخامس

بعشوائية أم بدقة ستظل الأجساد تتجه بطواعية جادة للثرى المتلهف، لابتلاعها منذ إطلالتها الأولى على هذه الدنيا وحتى أفولها

بعد انتهاء زيارة الطبيب "سميث" لليلى، شعرت أن طبيبها بالفعل رجل مسكين. حيث كثيرا ما تحزنها قسمات وجهه، وهو يبحث عن تحسن في حالتها دون جدوى! فمع إشراقة كل صباح تشعره بالفشل والخذلان. تغرز ليلى نظرات متلعثمة في وجه الطبيب وتسرح وهي تحدثه في داخلها..

– آه ..لم يطرأ جديد على حالتي الصحية يا سيدي.ليس بيدي يا طبيبـي الفاضـل الوسيم. مع أن كل ما فيك جميل، شعرك الأشقر، وبشـرتك البيضاء، وعيناك الزرقاوتين، وجسدك الذي يشع جاذبية، والـذي يثـير إنـاث كـثرة من حولك، ويحرك مشاعرهن ويؤجج أجسادهن، لكن ليس جسدي ولا روحي. كل ذلك لم يدفعني إلى جنة

العافية. أنا بقايا أنثى الآن، وأنت أيها الرجل الغربي قد قدمت إلي في زمـن ضائع، بعد أن انتهى آخر فصل من حياتي، وأسدلت الستارة علـى مشـاهده وعلى بطلته التي تنظر إليها الآن.. أتأسف بشدة يا طبيبـي الأنيق على الخذلان الذي أُسببه لك كل يوم. وأود أن أعلمك أنـه لا أمـل في تحسن حالتي، ولا رجاء من شفائي، لأن حظي يا عزيـزي مثلما وصفه شاعر جريح حين قال "إن حظي كدقيق على شوك نثروه ..ثم قالوا لحفاة يوم ريح اجمعوه.."

لملم الطبيب أدواته ونفسه ورحل، وكأنه سمِعَ ما كانت تحس به ليلى من مشاعر اليأس من شفائها. بدأت عتمتها اليومية تتسلل وتجر أذيالهـا بخبث لتخيم على حواسها. شعرت ليلى بوحشة كبيرة بدون زوجها سامي..كأنها متعبدة بلا إيمان بوجود إله، ترتبك كلما صلت له، لأنها متيقنة أنه لا يصغي لتهجدها. ليلى مشتاقة لأحضان سامي الدافـئة، فقد أصبحت من بعده جسد ناحل، كعصي القصب الجافة، وروحها جامدة كصخرات من جبال الجزيرة العربية الصماء..

دبّ صـقيع وبـرد شـديدان في أعماق ليلى وكادا أن يسلباها طاقـتها. تتوق ليلى دائما الى أن تسترجع من مخيلتها تفاصيل آخر لـيلة قضـتها مع زوجها سامي. تحس بها وهي تمر لحظة بلحظة وكأنهـا تعيشـها من جديد. بدأت أحداث تلك الليلة حين كان سامي جالسا على مكتبه، منهمكا كعادته في إنهاء عمله. أما ليلى فقد كانت جالسة على مقعدها، تطالع سامي عن بعد وتتظاهر بمشاهدة التلفاز. شـدها مـنظره شـبه القلق وانشغاله بأموره الخاصة، فداهمها شبق شـديد، دفعها إلى أن تتسلل تحت المكتب دون أن يشعر سامي بها.

شـرعت فـي تلمس قبيه ومنارته الساحرة. تاركة يديها تتلصصان وتتدسـان بهدوء من تحت سرواله. هزّ سامي هجوم ليلى المباغت على خصوصياته، فأمسك بيديها بلطف وجاء صوته هامسا..

– ليلى ماذا تفعلين؟

– آه.. لا شيء يا حبيبي واصل عملك!

ابتسـم..واتسـمت تقاسيمه بالهدوء الذي يسبق العاصفة، وفي محاولة بائسة منه. أراد أن يبعد يدي ليلى عنه حيث بدأ صوته مائلا للانهزام:

– حبيبتي ليلى..عليّ أن انهي هذا العمل الآن لأني غدا سأذهب إلى زيارة الواحة لتعزية صديقي عمر في وفاة والده!

أجابت ليلى ببرود متلبس بخبث لذيذ:

– أدري حبيبي!

وفـيما لـيلى مازالت تواصل اجتياح مقدساته واحتلالها، حتى أحكمت قبضتها على كل ممتلكاته. أحسّت برعشة الانهزام تتنقل من صـوت سـامي وتدب في جسده، حيث تراخت أطرافه، واشرأبت مـنارته، وتصلبت قببه فعانقتهم بيديها المرتجفتين، وكلها زهو بهذا الاستسـلام السريع المتوقع. شعرت بالاسترخاء الكامل كأنها راهبة مسـيحية هادئـة الـنفس، للتو التحمت بمن نذرت حياتها له لسنين طويلة.

تُدرك ليلى جيدا مدى تأثير السحر الأنثوي على الجنس الآخر، وتفهـم "إن الجنس مطاردة لا تنتهي، لهدف لا يكف عن الابتعاد" ، وتعلم انه في نشوة الانتصاب تفشل كل محاولات الرجال ، حتى في

عقد هدنة لتأجيل الهزيمة، فالنساء عادة في هذه المواقف لا يقبلن بالمساومات ولا بالصلح، لأن تلك هي اللحظات الفريدة التي تُشعرهن بذاتهن وقداستهن في الزمانات القديمة، وبسلطتهن على الرجال حتى الفحول منهم. فهن يعلمن جيدا أن المعركة ستختم وتُحسم في نهاية الأمر لصالحهن، وأن الرجال حتما في دقائق إن لم تكن لحظات، سيسلمون مجمل أملاكهم وجوارحهم للنساء برضا وطواعية، وحينها تحقق النساء الفوز والانتصار عليهم مثل كل مرة.

هاهي ليلى تواصل بجد ومثابرة لتنال النصر وتسجل معركة عشق جديدة في صالحها. شرعت بتحرير حبيبها سامي من لباسه الداخلي، وأطلقت العنان لمنارته الشامخة لتنعش وتنتعش. كان سامي مزدانا كشهريار زمانه، والشبق ينذلق بسخونة من تقاسيم جسده دون أن ينضب. عزف عن جميع مهامه حين "اقتربت الساعة وانشق القمر" ..حملها بين ذراعيه بعد أن دفع بكل الأشياء المكومة على مكتبه وأزاحها بعيدا عن الساحة التي اختارها الليلة مخدعا لممارسة عشقه. مدد ليلى على ظهرها وحطها بهدوء لتستلقي على سطح المكتب، وصار يتحسس كنوزها ولآلئها بتأن وسكينة.. ثم قام بتعريتها بشهوانية ونعومة، انزل سروال بجامتها السلكية الحمراء، ونزع لباسها الداخلي الذي كان ابيضاً بلون الياسمين. وأسدل عن كتفيها خيطين بلوزة البجامة المصنوعة من الشيفون الرهيف. سحب البلوزة الشفافة للأسفل، ليسمح لثدييها وحلمتيها النافرتين بالظهور وإلقاء التحية على حبيبها. ثم رفع رجليها وضمهما لصدره وتركهما مفتوحتين أمام ناظريه تنتظران بحرقة حلول ضيفهما المحبب

العذب. بدأت ليلى بإعلان ثورتها الشبقية من جديد كأنثى الوعول المحمومة بعد أن ظهرت جميع أسلحتها الناعمة لسامي، وبكل ما تملك من ثروات الأنوثة والإغراء افتتحت ليلتها الحالمة. تأمل سامي أنثاه المستلقية على مكتبة وهي تتلظى لوعة وشبقا وتزيد من تحريضه على المنازلة في حلبتها.اقترب منها بعري فيه سحر ليلامس عريها، وبدأ يقبل كل شبر في جسدها ويلعق هضابها وسهولها دون تردد، فهطلت أمطار ليلى بسخاء لتروي عشبها العطَش، حتى تلاشت الغيوم وراء المشاعر ورعودها بدأت تضج الدنيا وحانت لحظة الالتحام واكتمال البدر. وبكل ما تحمله تلك الأحاسيس من ذوق ونضج وإثارة، بادرته ليلى بالمثل فانهالت عليه بشموخ وانتشاء عظيمين، تستطعم بذوق منارته بلسانها تارة، وبشفتيها تارة أخرى، تكاد تمتص إكسير الحياة، وتحس بسخونته في سقف حلقها. وهو بدوره ينهال على ثلاثيّها المقدس، ويلعق ويرتشف من رحيقها، ويقترب أكثر فأكثر من الذروة، حتى أصبحت منارته تتمسح على عتباتها المقدسة.. ودون انتظار ولجها بتهجد وقداسة وحميمية، واخترقها وانزلق إلى أعماقها الداخلية الدافئة المتوهجة، وصار ينفخ فيها من روحه بأمان وثقة. يحلق ويهبط كملاك رحمة قادم بإمرة الآلهة، وهي تغمر منارته في محرابها الحنون، بدفء فيه رهبانية "مذر تريسا" ، ومتسربلة بخشوع ابنة عمران، ومتوّجة بصوفية رابعة العدوية العفوية. عندئذ التصقا تماما، وأصبحا جسدان بروح واحدة، فتجلت ملائكة السماء ورفرفت عصافير الجنة أمام ناظريهما، فعلت أصواتهما بشبق متأجج، طارا معا بنشوة عارمة، ولذة متجددة، ما كان بعدها لذة، كان جسديهما طريين كأنهما جسدي

آدم وحواء حين تضاجعا في المرة الأولى.. وكأنهما يعلمان حينها أن الجنة ستخطف منهما، وسيحرمان من نعيمها، وسيهبطان إلى العالم السفلي، ولن يعاودا معا لتأدية صلاة الحب هذه أبدا بعد هذه المرة.

وفي الصباح التالي، استيقظت ليلى وأخذت تتحسس جسدها العاري، وتتأمل لوحات سامي الجميلة التي رسمها برومانسية بين فخذيها وعلى بطنها وثدييها حيث رغبتها الجنسية لم تنضب ولم تجف. وهي غارقة في مخيلتها، مارست الحب مرة بعد مرة معه في ذاكرتها، حتى انتعشت واندلق شهدها على الأغطية. بعدها قامت من سريرها، فوجدت رسالة ملصقة على المرآة حيث كانت آخر عبارات كتبها سامي لليلى قبل رحيله إلى عالم الموتى..قال فيها:

" حبيبتي لولو ..قلت لك من قبل أن عمرا واحدا لا يكفيني لأقضيه معك، لذا سأطلب عمرا آخر لكي انعم بكِ وبحبكِ! حبيبتي سأعود الليلة من الواحة. أتمنى أن أراك كما تركتك ...عاشقك سامي"

ومنها لم تره ..خرج ولم يعد! أخبروها بأنه قُتل في حادث مؤلم على الطريق أثناء عودته من الواحة.. كثير من الناس لاقوا ملك الموت في ذاك الطريق المشئوم، فهو كقبور فاغرة أفواهها، تلتهم كل من مر بها على عجل، وكأنها مثلث برمودا الذي لا يبقي ولا يذر.

لم تتصور ليلى أبدا إن زوجها سيموت بهذه الصورة التراجيدية،مع أنها تدرك أن الشباب في بلدها البائس يموتون في

حوادث تلك الزنزانات المتحركة، أكثر من عدد الذين يسقطون شهداء على جبهات القتال.

ليلى أصابتها هلوسة من شدة الهواجس التي تحوم في ذهنها، فالسقم وطول فترة الغيبوبة جعلتها تتشاجر مع نفسها وتهذي بغضب..وتقول:

– تبا لهذا البؤس الذي أنا فيه. لماذا الموت لا يأتي ليحملني معه في قوافله؟ يُقال أنه لا أحد يموت قبل يومه. كل شيء محسوب بدقة..لماذا أخطأ في حساباته معي الآن؟ لماذا ترك روحي تنازع في هذا الجسد الميت..؟ لماذا فقط موت زوجي سامي هو الذي كان محسوبا بدقة؟ كل الظروف تكالبت عليه لتعلن ساعة رحيله. الوقت كان ليلا، وسامي كان مسرعا، والشاب الذي تسبب في قتله كان غير متمرس في القيادة. وماذا بعد؟ ربما كان طائشا. أهذا هو القدر الذي يتشدقون به؟؟ أهذا ما يطلقون عليه الأجل المحتوم الذي لا يتأخر ساعة ولا يتقدم ساعة؟

تتملل ليلى مما هي فيه وتواصل غضبها..قائلة لنفسها:

– كل ذلك هراء وسخف. سامي اغتيل بغتة! لم يحن أجله بعد! القدر طرق بابنا ودخل من غير إذن! لقد جاء مبكرا جدا. ما أخذ سامي ليس القدر المحسوب بدقة، بل العشوائية المطلقة التي تحكم مصائرنا. لم يجب أبدا أن يحدث ما حدث. ليس من المفترض أن يغادر الحياة بهذه السرعة، ولا بتلك الصورة البشعة التي حصلت.

ولأسباب عدة كان من الضروري أن يبقى في هذه الدنيا منها.. لأنه الابن الوحيد لأمه، وأنه ما زال في مقتبل العمر، ولأنه اختار أن يشاركني حياتي، والأهم من ذلك كله أني أحبه وحياتي لا تعني لي شيئاً بدونه. كل هذا غضّت العشوائية المطلقة الطرف عنه، واختارت أن تُسير الأمور بفوضوية متطرفة، وتقصف عمر سامي بقوة، وتنسفنا نحن الاثنين معا بكل عنف ووحشية.

وهي غارقة تهذي في صراعاتها وإذا بصوت عشتار يأتيها:

– ليلى تحملين أطنانا من الحرقة والغضب

– بل بلايين الأطنان..

– من السهل جدا أن يتلمس البشر الأدلة والأسباب التي تثبّت معتقداتهم وتوثقها بحجج مختلفة، ولكن من الصعب عليهم محاولة عبور النهر، والانتقال إلى الضفة الأخرى منه، ببساطة لأنهم يخشون على أنفسهم من المغامرة، والخوف من أن ما ينتظرهم في الجهة المعاكسة قد يشتتهم ويحرجهم مع أنفسهم. الناس تربوا على أن العوم ضد التيار يوشوشهم، ويُفقدهم تمييز الألوان والاتجاهات، ويبعدهم عن قطعانهم فيصبحون كالشاه التائهة، لا راع ولا مرشد للطريق الصحيح. ذاك يؤدي بهم إلى الضياع والغرق في متاهات الفكر لذلك يتجنبوه، ويزداد تمسكهم بمرافئهم الآمنة..

ردت ليلى بنبرة جافة قائلة:

– لم أفقه شيئاً مما قلتيه يا عشتار فالغيظ يغلي في داخلي. أشعر أن بداخلي بركان خامد قد يلفظ حممه في أية لحظة.

– لمَ كل هذا يا ليلى؟ أتدرين أن الغضب...

زاد حنق ليلى وشعرت أنه قد حان الوقت لأن تسكت عشتار ..أو تجعلها تتكلم بما تتوق لسماعه..لذلك رفعت صوتها بنغمة سخط وقالت:

– أرجوك كفي عن الثرثرة يا عشتار، وعن هذه النصائح ..فقد سئمتها...لم أعد أحتمل حكمك وأسلوبك التعليمي الرتيب. إنه بات مملا وسمجا. اتركي عنك دور المرشدة القميء هذا، واخبريني بحكاية تُثلج صدري وتنسيني همي!

سارعت عشتار بالإجابة:

– أنا عندي فكرة يا ليلى ماذا لو تبادلنا الأدوار هذه المرة؟

– اتعنين أن أكون آلهة، وتكوني أنت ذاك المخلوق نصف الميت الذي يُدعى ليلى؟

– سمي ذاك ما شئت إذا كنا متفقتان على المبدأ

– لكن الأنثى لم تحظَ قط بكساء النبوة فكيف يتسنى لها أن تحلم بقداسة الإلوهية!؟

– تقصدين في عُرفك..

– في كل الأعراف. لم أسمع قط بأنثى كانت نبية، آه..لا..أعذريني للتسرع.. اسحب كلامي.. هناك النصرانية الفاتنة سُجاح بنت الحارث من بني تغلب، الشاعرة والاديبة المحنكة التي كانت ذات شأن عظيم بين قومها، ادّعت النبوة بعد وفاة النبي محمد حيث كُتمت أنفاسها واغتيلت كلماتها قبل أن تتلفظ بها..

– ليلى.. دعكِ من ذلك كله..فمهم جدا طالما نحن قد وصلنا إلى

هـــذه المـــرحلة مـــن العلاقـــة، أن تحاولـــي الـــتخلص مـــن ترســـبانك..وتراجعـــي ما اعتدت على اجتراره من العالم الذي كنت تعرفيه قبل مجيئك إلى هنا. الإناث في زمن الحضارات القديمة كن آلهات قبل أن تتجه المجتمعات نحو عصر الأبوية المطلقة..

– آلهات خرافية مثلك..؟

– وماذا عن اللات والعزى ومناة؟ جميعهن آلهات مقدسات في تـــاريخ أمتك؟ وعشتار الحب التي أعطيتني اسمها..والهة "سن" في مديـــنة "أور" السومرية وآلهة "انانا" و"سيبيل" الأناضولية و"ايزيس" آلهة مصر و"افروديت" آلهة الإغريق وغيرهن الكثيرات..

– تلك أحجار وأساطير قديمة..

– أساس كل أسطورة يا ليلى معتقدا دينيا فهي الامتداد الطبيعي لـــه. الأسطورة بمثابة أداة إثراء وتوضيح للمعتقد، لكي ترسخه في الـــنفوس وتساعد على بقاءه عبر العصور. فالأسطورة ما هي سوى ســـيرة ذاتـــية للإلـــه..تبهر البشر بفصولها الخرافية وتذكرهم دائما بضعفهم وحقارة شأنهم..

لم تشعر ليلى بالارتياح مما قالته عشتار فعقبت قائلة :

– عشـــتار المعـــتقد الديني الحقيقي لا يرتبط بأسطورة. يرتبط ببراهين وحقائق راسخة.

– كانـــت الأســـاطير بالنســـبة للناس في تلك الزمانات حقائق راسخة. "المعتقدات التي ترقى إلى مرتبة اليقين ليست سوى معتقدات قامـــت علـــى أساس التعود" التعود مخدر مفعوله عجيب على أذهان الـــناس. ألـــيس كل الآلهات التي اعتادها الناس في الأزمنة السحيقة،

كانـــت تتســـم بســـمات أسطورية خارقة؟ من قدّسها؟ ومن صاغ تلك الأساطير حولها؟ أليسوا بنو البشر؟ المعتقدات الدينية مثل كل شيء في هـــذه الدنـــيا، لها امتداد طويل عبر طيات التاريخ يبرهن ذاك الامتداد علـــى أنهـــا لم تنبثق فجأة، ولم تأتِ من العدم..كل أسطورة لا بد من وجـــود جذور لها في القاع السحيق للثقافة الإنسانية.. " من المؤكد أنه إذا كـــان الدين هو ذلك الإحساس بغموض العالم والخليقة، وبضخامة وامتداد ذلك اللغز الغامض، إذا فإنه ليس هناك من شيء يمكن أن يدل علـــى الطـــريق أفضـــل من النساء والجبال." تأليه الرمز الأنثوي له مدلولاته التاريخية، فقد ظلت الأنثى لأكثر من عشرين ألف سنة تسود الأرض وتُعامل بقدسية. حيث يُقدم لها القرابين والأضاحي، ويتحمموا ببولها وبرازها، لكسب رضاها والتبرك بها. الأنثى بلغت تلك المنزلة بسبب ارتباطها بالإنجاب وقدرتها على احتضان الحياة واستمراريتها. تلـــك حقـــبة من تاريخ الأنثى الروحاني. فهي حلقة من سلسلة طويلة ممتدة لتاريخ البشرية. لكن معظمكم ليس بمقدوره استيعاب السلسلة..لا يرون سوى أجزاء بسيطة منها..والتي لا تتعدى السبع آلاف سنة..أي منذ حقبة السومريين في أرض الرافدين.

تقمص ليلى مزاج السخرية فضحكت وهي تردد :

– تاريخ الأنثى الروحاني؟ها..ها..ها..أهذه نكتة!

– لا ليســـت نكـــتة! الأنـــثى حتى الساعة تمثل الجانب الأكثر روحانـــية وإنســـانية فـــي هـــذا الوجود، وتتجسد قداستها بكل تألق وحميمية في نهر الأمومة الخالد. ذاك الذي لا يكل ولا يمل من التدفق بالحـــب والعطاء، ذاك النهر الجاري منذ الأزل يُثبت دون منازع، أن للأنثى امتدادات لحقب طويلة، بامتداد الأساطير والحياة نفسها.

رأت لـــيلى أن الحوار سيطول فوجدت أنه من الأفضل أن تغير

مجراه فقالت:

– طيب ..هذه قناعاتك..لكنك لم تجيبى بعد على سؤالي

– وهو:

– لماذا لم تُرسل نبية لهداية البشر حتى اليوم؟ جميع الأنبياء ذكور..

– وهل من يلدن الأنبياء، ويشرفن على تنشئتهم وتوجيههم، يكون من واجبهن أن يقمن بأدوارهم أيضاً؟ معظم الذكور لازالوا في حاجة إلى التعرف على ذواتهم بالعودة إلى الطبيعة "أهم ما يتعلق بالوجود الإنساني هذه القدرة التي يمتلكها العقل الإنساني على الابتعاد بنفسه عن الناس والأحداث، وعلى التوقف عن تشبيه نفسه بالعواطف الإنسانية أو العثور على ذاته فيها، ومحاولة التعرف على ذاته، بدلا من ذلك من خلال الانهائي وما لا زمان له، عالم الطبيعة" الذكور يفتقرون للتأمل خارج هذا العالم المحدود، لذلك مجتمع الإناث أكثر رقيا ونضجا من مجتمع الذكور، فهن من سلّمن مفاتيح الحضارة للذكور وعلموهم أصولها كي ينظروا خارج أسوار الذات.

– كيف؟

– الأنثى دلت الذكر على مبادئ الزراعة والصناعة وكيفية الاستقرار لإنشاء مجتمعات متحضرة، وعلمته متابعة التغيرات الفلكية للتعايش مع الزمن وتقلباته. ولقنته أصول اللغة والتخاطب الإنساني الراقي..

تلفظت ليلى بداخلها قائلة :

– هدرت وقتها معه. الرجل مازال مشوش حتى النخاع يرى أن

الحياة مال وسلطة.

– هذا فيه شيء من الصحة يا ليلى، لذلك احتاج الرجال لأنبياء من جنسهم كي يعلموهم أن الحياة تكتنز أبعاد إنسانية أخرى نضرة.. فالدين شيء لانهائي وحلم لا تنضب مشاهده، فهو يتيح الفرص للجميع للغوص في أعماقهم لكن "الناس نيام إذا ماتوا صحوا"

تعاود ليلى سؤالها بضجر فتقول :

– مرة أخرى أُردد لماذا أنبياء وليس نبيات؟

– ليصغوا الذكور إليهم لأنهم هم المعنيين بالهداية أكثر من الإناث، فهم من انحرفوا عن الخط الإنساني، ولابد لهم من العودة إليه لكي يواصلوا المسيرة، من أجل الاقتراب من روحانية الأنثى وطباعها الإنسانية، ثم يا ليلى لا تنسي أن الرسل ظهروا في حقب ذكورية بحتة..في المجتمعات الأبوية حيث لم يُسمع صوت للنساء فيها..ومع ذلك الأنثى هي من شكّلت كل قناديل العالم رجالا ونساء، فهي "مصباح الكون" وبدونها الكون يفقد توازنه واتزانه..

– لكن إذا عدنا إلى سيرة الأنبياء، هناك منهم من لم يعرفوا أمهاتهم! أي لم يتتلمذوا على أيدي نساء..

– لكنهم دون أدنى شك تربوا والتفوا وتنعموا بأحضان أنثوية دافئة... وهنا أشمل أحضان الذكور أيضا، الذين يمتلكون لمسات أمومة، وقادرين على التدفق بمحبة..

– أيضا هناك سفاحين تربوا على أيدي نساء..

– هل كانت بالفعل أحضان تلك النسوة دافئة؟ الأنثى عطاء متجدد وحنان لا ينضب..ليلى لا بد أن تدركي أن من يرتشف الحب ليل نهار، ويترعرع في عالم الأنثى الذي يمطر مع إطلالة كل نهار

خـــيرا وسلاما، لن يصبح أبدا انساناً مرتبكاً وغير سوي..ربما هذه القاعدة الوحيدة في هذا العالم التي لم تحتمل شواذا قط..

– عشتار أنت آلهة تجيدين مس الروح، وتحسنين تخفيف أوجاع الذاكرة..لكن لا أجني غير ذلك منك.. متى ستهبينني الحياة؟؟ أو متى ستدلينني عليها؟ أنت مازلت بالنسبة لي كالإله الخالق لدى التاو "ليس مـــن شـــيمته الفعـــل، ولكنه لا يترك أمرا بحاجة إلى إتمام..تصدر الكائـــنات عنه ولا يدَعي سلطانا، يعطيهم الحياة ولا يدّعي امتلاكا، يعيـــنهم ولا يقتضي عرفانا، يكمل عمله ولا يدّعي فضلا.." أريدك أبعد من ذلك..

فجـــأة أشـــعلت الممرضـــة الضـــوء لتمارس مع ليلى طقوسها اليومـــية.. وانقطعـــت حـــبال التواصل بين ليلى وزائرتها.. وتظل الهواجـــس والأفكـــار تحوم تتطرق بين الحين والآخر " لإمكانيات واحـــتمالات العـــالم الهائلـــة التـــي تحجبها ميول الناس إلى البقاء محصورين في سجون دوافعهم الصغيرة."

يقظة الظلام!

الأيدلوجيات الشمولية تخلق كتل بشرية بهيمية معدة بأجهزة عاجزة عن استيعاب الآخر وقبوله

ومرة أخرى يطرق أبواب ليلى يوم جديد مرتبك، ويقتحمه دون استضافة أو استئذان، حامل بين طياته نفس الرتابة المملة والتقليدية السمجة. اليوم سترحل ليلى من غرفتها لتُدلك لأول مرة منذ دخولها المستشفى في مكان خاص بالعلاج الطبيعي..سيكسر روتينها اليومي وسيربك وقع الساعات على نفسيتها المكتئبة..

كم فرحت ليلى بذاك الخبر وبقدوم تلك الممرضة الجميلة "تانسي". تشـــعر كـــأن "تانســـي" أرسلت إليها من السماء أو من عالم بعيد مفعم بالحياة، لكي تدخل عليها البهجة والسرور. بدت على تقاسيم ليلى مشاعر السعادة وشعّ بريق أهازيج الفرح في عينيها..صارت تحاكي ممرضتها "تانسي" وكأنها تستمع إليها وهي تقول:

– شـكرا يـا ملاك الرحمة "تانسي"..احمد الله الذي منّى علي بك..كم تعجبني ملامحك الأسيوية، وضيق عينيك الناعمتين ومسحة وجهك المسطح السمح. توحي معالمك دائما باللطف والرقة. دلكيني بالزيـت الساخن وبيديك الناعمتين دون توقف..اعذريني يا "تانسي" فـي سؤالي هذا.. هل جربتِ مهاراتك هذه على جسد أنثى من قبل؟ هـل كانـت تسـتجيب لك؟ يبدو لي أنك قد فعلتِ ذلك..ربما كنتِ تعشـقينها وتعشقك لحد الجنون..وربما هي تستحقّ منك ذاك العشق المـتوهج..هـل التحمـتِ بها والتحمت بك؟ ربما لعقتك ولعقتيها! همممممـم...هـل شعرتِ بالذنب والخطيئة وأنت تفعل ذلك معها؟؟ ها..ها..ها لا تخجلي مني أصدقيني القول..فأنا لن أخبر أحدا..حتى إن أردت فضـحك يا ملاك الرحمة .. فإني لا أملك أية وسيلة لفعل ذلـك..استمري ولامسيني دون خجل قد يجعلك جسدي أكثر طراوة ووسـامة.. ويذكـرك بحبيبـتك البعـيدة التي تتوق لها نفسك دون جدوى..اهبطي بين ودياني واسترخي على هضابي إن راق لك ذلك..

توقفـت الممرضة "تانسي" عن التدليك. تصورت ليلى أن سبب توقفهـا هـو لأنهـا شعرت بهمسها الساخر، عنها وقلة الحياء التي داعبـتها بهـا في داخلها. بالطبع لم تكن تلك هي الأسباب لعزوف "تانسـي" عن التدليك.كان السبب لأن الوقت قد انتهى. تدليك ليلى لم يـأخذ سوى ساعة .. ساعة مسّت الحياة روح ليلى بعد غياب قرون مديـدة ثـم ولت. هاهي مدلكتها الطبية قد رحلت عنها وهي فرحة بإنجازهـا العظيم ومتأملة أن ترى نتائج قريبة على جسد ليلى.. ثم أعادتها ممرضة أخرى تدعى "جانيت" إلى غرفتها وغادرت.

أحـيانا تكـاد تفقد ليلى صوابها من شدة الرغبات المكبوتة في داخلهـا. ردت ذات ليلى لذاتها، فاستيقظت بداخلها الذاكرة.. فرحلت بهـا إلـى محطـات بعـيدة عن رائحة هذا المكان وأصحابه ذوي المعـاطف البيضـاء والـروائح الكيمائية، وغرقت في مشاهد من لحظـات كانـت قـد عاشـتها قبل ذاك الحادث المشئوم مع أخيها إبراهـيم..كانت عائدة من الواحة بعد أن ودعت ماض أليم من أجل الاسـتعداد لاحتضـان مستقبل زاه..وغلق فصل موجع من حياتها لتشرع في فتح فصل آخر مشرق..

ذهبـت لـيلى إلى الواحة بطلب من خالتها لزيارتها، صاحبت مجنون الكرة إبراهيم في تلك الرحلة التي شلت حياتها عند العودة.. كانـت تتأمل الطريق وكأنها تراه لأول مرة! هذا هو التنين السافر الذي مزّق جسد زوجها سامي بدم بارد وابتلعه..

بعـد رحلـة دامت ساعتين أوصلها إبراهيم إلى بيت خالتها "أم علـي"، وذهـب إلى لزيارة أصحابه القدامى ..عانقتها خالتها ذات القامـة القصـيرة بـدفء وحـزن شـديد، لحزنها الظاهر على ملامحهـا..أخذتهـا معهـا إلى غرفة الجلوس وحملت عنها حقيبة ملابسها..دون أن تسأل أو تستأذن من ابنة أختها..

كـان المساء قد قرب على الرحيل والبيت هادئ ببلادة غريبة. تبعت ليلى خطوات خالتها التي كانت متجهة لغرفة النساء. خالة ليلى عكـس والدتها نحيفة البنية، لكنها بائسة الملامح حيث تبدو أكبر من

سنها. دخلت ليلى الغرفة وذهبت خالتها إلى المطبخ لإحضار الشاهي الذي أعدته قبل مجيء ليلى بقليل.

كانت ليلى غارقة في جلستها على مفارش موضوعة على الأرض، وخالتها بجانبها تسكب الشاي في أكواب صغيرة. الشاهي له طقوس خاصة. فالناس تعده من لوازم الضيافة والتكريم يُقدم مع بعض السكاكر والكعك. يشربه الكبار بإيمان عجيب أحيانا عدة مرات في اليوم خاصة النساء. حين تتأخر خالة ليلى عن موعد شرب الشاهي ولو لساعة تشعر بصداع يقضم هامتها. معظم النساء يفضلونه قاتما ومرا وكأن حياتهن تفتقد للمرارات والقتامة.

ظلت ليلى ملتزمة بغطاء الصمت لوهلة وإذا بيد خالتها تمتد إليها حاملة كوب الشاهي أو كما يسموه "البيالة" بحذر وكأنها تخشى عليها منه..تتلقفه منها ليلى لتطمئنها فتبادرها خالتها بالقول :

– ليلى تفضلي هذه الحلوَة البحرينية..إنها لذيذة مع الشاهي.

– شكرا خالتي.

– مرّ سكون مرتبك فقالت الخالة :

– ما بك يا حبيبتي ليلى ؟؟ لماذا ما زلت يا ابنتي تسرحين..؟ يا ابنتي انسي سامي وفكري بنفسك ومستقبلك، فالحي أبقى من الميت..والميت لا تتوجب عليه سوى الرحمة.

تفاجأت ليلى من كلام خالتها وكادت تسألها ما تعريفها للحي وما

تعريفها للميت؟ هل تعد خالتها نفسها من الأحياء؟ لمجرد أنها تلتهم الطعام، وتشهق الأكسجين، وتزفر ثاني اوكسيد الكربون، كسائر الحيوانات والدواب، وتفرخ كالبهائم على هذه الأرض..إنها ميتة أكثر من الأموات أنفسهم. امرأة مثل سائر نساء البلد بلا أحلام ولا طموحات وليس لديها شيء للغد سوى ما يمليه الذكور عليها. هي جسد لم يدفن بعد ولن يدفن إلا بأمر من ذكر...لكن توقفت ليلى عن تلك النوايا الخبيثة في طرح تلك التساؤلات لأنها شعرت من نظرات خالتها لها أنها تنتظر إجابة مرضية.. حتى لو كانت مطلية بالزيف..فأردفت ليلى قائلة:

– أنا لا أفكر بسامي يا خالتي.. أنا اعرف أن سامي راح ولن يعود والله يرحمه إنشاء الله..أنا فقط قلقة من رحلة الدراسة والعيش في بلد الغربة..تعرفين يا خالتي تلك البلد تختلف تماما عن هنا. وأنا لم أسافر قط في حياتي..ولا أدري ما الذي سأفعله هناك..وكيف ستكون حياتي ..هذا كل ما في الأمر.

– لا تحملي هما يا بنتي ليلى. أخوك نور هناك سيعينك على كل تلك الأمور..لأنه صارت له سنين في البلد حتى أصبح كأنه واحد من أهلها.

ولتغيير النغمة..سألت الخالة ليلى:

– كيف كان الطريق؟ هل كان مزدحما؟ وإبراهيم هل كان مسرعا كعادته؟

– لا أبدا يا خالتي! لم نصادف الزحمة المعتادة ربما لأننا غادرنا مبكرا..لكن إبراهيم كان مجنونا في قيادة السيارة مثل

العـــادة..لا أدري كيف يتصرف في عمله في الشركه! هل هو أيضا بهذا النشاط المفرط والتحفز غير المبرر..أم لا..؟

استمعت الخالة لليلى إلى أن صمتت..ثم بدأت تعبث مرة أخرى فـــي الأكواب والملاعق وأطباقها الصغيرة لتعاود الكرة محاولة أن تكسر حاجز الجمود الذي يحوم على رأس ليلى ويقلق خالتها..فتفتح موضوعا لا يعني لليلى بشيء..قالت الخالة :

– ما رأيك يا ليلى لو أثثت غرفة النسوان "بكنب" مقاعد بدلا عن "الدواشـــق" المفـــارش والمساند؟ تعرفين يا بنتي النساء في هذا البلد يقضين معظم أوقاتهن في البيوت أو في الزيارات لبعضهن البعض، والمقاعد لنا أريح في الجلوس!

ولغـــريلة الموقـــف قامـــت ليلى بتصرف لئيم لجس نبض صدق خالـــتها حول اهتمامها ببنات جنسها، قذفت إليها بسؤال لم تكن الخالة على أهبة الاستعداد لسماعه.. وبصوت لا مبالي وساذج سألتها :

– لماذا يا خالتي لا تنقلين أثاث مجلس الرجال إلى غرفة النساء وبالعكس؟

كانـــت طامـــة كبرى قد حلت. كأن ما تلفظت به ليلى كفرا. قفزت الخالة من شرنقتها واشرأبت رقبتها وارتفع صوتها وبنبرة قوية وقالت :

– لا يـــا ليلى عيب هذا..كيف تقولي هذا الكلام!!! يعني نجلس الرجال على الفرش والحريم على المقاعد الوفيرة؟

خرجـــت كلمة "حريم" مطلية بصبغة فيها تحقير لهن! ثم بدأت تبين لليلى مكانة الرجال وأهمية مجلسهم، وإنه واجهة البيت حتى إذا كان لا يُستخدم إلا في الأعياد والمناسبات..

وفيما كانت ليلى تحاول صرف مسامعها عما كانت تتحدث عنه

خالـــتها، وإذا بصـــوت أبناء خالتها أحمد وحسن في الصالة يقترب أكثر..فأكثر.. حيث يصرخ حسن في أخيه :

– أحمـــد اســـكت من فضلك لا تكثر الكلام. أنت تركت مذهبك وناسك والتحقت بعبد الرحمن.. سني ناصبي وعلماني متطرف..

فرد أحمد

– هـــذا انـــتم المتدينون دائما تجيدون تصنيف الآخرين ونبذهم بالألقـــاب لكي تبرروا تهجمكم واعتداءاتكم عليهم من خلال إلصاق التهم بهم..

تضايق حسن من كلام أحمد فقال :

– كثير من أبناء السنة يتجنون علينا ويسمونا بالرافضة وبعض فتاوى مشايخهم أباحت إهدار دمائنا وهتك أعراضنا..

– حســـن هـــذا لا يـــبرر أبـــدا مـــا قلـــته عـــن صاحبي عبد الرحمـــن..تعرف انه يمقت الطائفية..ويكره كل ما هو له صلة بذاك النهج..

لم يعبأ حسن بأحمد وما قاله..أكمل كلامه بنفس نبرة اللوم وقال :

– مـــنذ أن قـــتل إمامنا علي عليه السلام وحتى اليوم لم يُنصف الشـــيعة تحـــت أيـــة رايـــة لأية دولة إسلامية..حتى في بلد مهبط الإسلام..

– هـــل تعـــتقد أن حكومـــة إيران أنصفتهم؟ هاهي اليوم استجابت لخـــوض حـــرب تعلم أن منبعها امبريالي وزجت بشعبها شبابا وكهولا فيها..

تظاهـــر حســـن بأنه لم يسمع ما تحدث به أخيه أحمد فواصل

كلامه قائلا :

- أنت تعرف إننا نحن الشيعة في هذا البلد مهضومي الحقوق، ليس لنا مساجد ولا حسينيات. نمارس طقوسنا في الظلام كي لا تشعر بنا السلطة. نخفي انتمائنا ونعيش في خوف طوال حياتنا. يُزج بنا في السجون لأبسط ذنب ولسنوات طويلة دون محاكمة وليس لنا حق في المرافعة.. نحن مواطنون من الدرجة العاشرة، غالبيتنا فقراء بالرغم من أن أكبر مخزون للزيت في العالم يرزح تحت أقدامنا وروائحه تلوث مدننا وتزكم أنوفنا. مازال معظم آبائنا عمالة مسحوقة تتعب وتكدح في شركة النفط لكي توفر كسرة الخبز، بينما الأموال الطائلة تُسكب في جيوب أصحاب السلطة وحاشيتهم. يحرم علينا تقلد المراكز في أية مؤسسة في الدولة، ونستهلك كالعبيد كي تتحرك عجلة اقتصاد هذه الحكومة التي تمقت كل من هو لا ينتمي إلى مذهبها.

- إسمعني يا حسن ..لا تنظر إلى الأمور بهذه السطحية. لا تجعل غضبك يبعدك عن حقيقة مترسبة في نفوس الشيعة، وهي أنهم أناس اعتادوا على حياة الذل والانكسار واستأنسوا التبعية. صاروا يؤمنون أن ذلك قدرهم وان خلاصهم سيتم يوما ما على يد إمامهم الأسطوري المنتظر..

- لن أرد عليك فأنت أصلا متعجرف وتحتقر الدين..الشيعة لن يقبلوا بهذا الذل بعد الآن سيقلبون عاليها سافلها إذا لم يُرفع الظلم عنهم وهناك من سيساندهم..

- إسمع يا حسن شيعة هذا البلد وحتى سنته ليسوا في حاجة لثورة مثل الايرانين ولا لمساندة من أنظمة امبريالية متجبرة .. العالم

اليوم يتجه إلى الاشتراكية. لأنه لابد أن يتقاسم الناس بالتساوي فيما بينهم الثروات المتواجدة في أوطانهم. أمم العالم الثالث في حاجة للاتحاد السوفيتي ليدلوا شعوبها على طريق البناء. الاتحاد السوفيتي دولة راسخة وتحترم الإنسان ولديها باع طويل في التجربة الشيوعية. الروس هم الذين يقفون في صف الشعوب المقهورة. أما الثورة الإيرانية فقد أخفقت في تحقيق طموحات الإيرانيين أنفسهم وسببت ضرر لنا..ما الذي جنيناه نحن منها؟؟ لا شيء غير الخراب والتقهقر وصداع الرأس..لا تصدق أن الطريق إلى تحرير فلسطين سيبدأ من طهران كما يدّعون!

- هذا ما لقنه إياك رفيقك عبد الرحمن ..هل أخبرك أيضا من أين سيبدأ الطريق يا ماركسي زمانك؟ هل سينطلق من موسكو؟ من مدينة الملحدين؟

- بالتأكيد تحرير الشعب الفلسطيني سيتأجج من الأراضي المحتلة بمساندة وبتوجيه الرفاق في موسكو ودول المنظومة الاشتراكية، والأيام ستثبت لنا نحن الإثنان ذلك، لكن هذا ليس موضوعنا الآن.

- ما شاء الله عليك يا عزيزي! موسكو التي تحتل بأسلحتها الفتاكة أرض أفغانستان وتسيطر على شعبها المسلم.

- لم تحتل أفغانستان بل الشعب استنجد بها فساندته. والحرب القائمة الآن شنّت ضد الزحف الاشتراكي في ذلك الجزء من العالم. وقادتها هم من المتأسلمين الوافدين من كل بلد، ومعظمهم عرب ومدعومون من دول الرأسمالية العالمية التي تناهض مصالح الشعوب وتحررها..ومنهم الحكومة الأمريكية الامبريالية وبضخ من

أموال هذا البلد..

- يا سلام عليك يا مفكر يا عظيم.. بقي أن تقول أن الروس ليس لهم أي هدف أو مصلحة من احتلال افغناستان. هم فقط ملائكة الرحمة ورسالتهم في الدنيا أن يهبّوا لنجدة ضعفاء العالم ومستضعفيه.. وربما حتى في الآخرة هم الذين سيفتحون لنا أبواب الجنة وسيزجون بمجرمي هذا العالم في النار.

- حسن لا داعي للسخرية، لنتحدث بجدية ولنعد لولائك الأعمى لتلك الثورة.

- تفضل يا لينين!

- إن الملالي يحاولون في هذه الفترة أن يصدّروا الثورة، ويبثوا شعاراتهم الثورية في أرجاء العالم الإسلامي. ويصرفوا أنظار الرأي العام الإيراني عما يحدث في الداخل، بدلا من أن يركزوا على القضايا الخاصة بهم..والناس هنا صدّقت ادعاءتهم. والنتيجة هو ما رأيناه في أحداث محرم من العام الماضي في منطقتنا، من سقوط عشرات القتلى والجرحى، ومحاصرة الحرس الوطني لمناطق الشيعة الساحلية لعدة شهور، وسجن مئات الناس بتهمة وبدون، وما زالت حملات الاعتقالات مستمرة حتى الآن.

- تقصد سقوط شهداء وضحايا من أجل إحياء ثورة الإمام الحسين عليه السلام على يد آية الله الخميني..لماذا الآن إيران صارت ملامة في عرفك؟ هل لأنها تحاول أن ترفع راية الحق، وتنشر رسالة النبي محمد وآل بيته سلام الله عليهم؟ أتنكر أن ثورتك الشيوعية قامت بالفعل نفسه في تصدير ثورة الإلحاد، و أنه في عهد "ستالين" المبجل فُقد قرابة الستة ملايين شخص، وحتى اليوم لا أحد

يعلم عن مصيرهم شيء، وأنت وأشكالك باركوا تلك الجرائم..؟

- حسن ..حسن ..أرجوك لا تخلط الأمور..هناك الوضع يختلف تماما.. الثورة الشيوعية لم تقم بتصفية من ساهم في نجاحها كما فعلت الثورة الإيرانية. كل الأطراف التي شاركت في إحياء الثورة تقاسمت السلطة فيما بعد..لكن "ستالين" لم...

- توقف..وكف عن ترديد هذا الهراء..هذه أكذوبة كبرى لم يصدقها إلا المغررين بالشيوعية أمثالك. الحركة الشيوعية حركة فاشية، قمعت كل الأصوات التي عارضت توجهها ومنهجيتها..

- حسن..أتنكر أن الملالي والذين تطلقون عليهم آيات الله فعلوا الشيء نفسه؟ أولم يصفّوا كل المقاومات الوطنية التي كان لها دور فعّال في إنهاء حكم الشاه؟ كحزب "تودا" مثلا الذي كان من أقوى الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط، حيث كان ذو قاعدة جماهيرية كبيرة..اغتالوا قادته، وسجنوا من سجنوا وفرّ الباقي إلى أوروبا الشرقية وروسيا!

- هذه إشاعات الإعلام الغربي..كل من قتلوا هم خونة وعملاء للموساد والسي آي أيه..كان لابد من تطهير البلد منهم. إن ما قامت به الثورة الإسلامية هو في صالح شعبها وصالح الشعوب المجاورة..لقد أنهت عهد شرطي الخليج الذي نشر الظلم والظلام في إيران، وساهم في نشره إلى خارجها. نظام الشاه الديكتاتوري أجهض كثير من الحركات الوطنية في المنطقة. وساعد الأنظمة العربية الجائرة على اختطاف كثير من العقول الداعية للتغيير والإصلاح في العالم العربي والزج بهم في السجون. تكاتفت المخابرات الإيرانية "السافاك" مع العربية لوقف أي زحف في هذه المنطقة يحمل فكرا مستنيرا حرا. جهاز "السافاك" والمخابرات

العربية كانا "طيزين في سروال" استغفر الله العلي العظيم!

تدخلـــت خالــــة ليلى بصوت غاضب ساخط بعد أن أحسّت أن نقـــاش ابنيها احمد وحسن سيحتدم، وسوف يبدآن بتلفظ كلمات غير لائقة، لا تريد لليلى سماعها..صرخت قائلة :

– أحمد ..حسن كُفا عن هذا النقاش! ..تعالا هنا ..معي ليلى ابنة خالتكم أتت مع أخيها إبراهيم لزيارتنا!

دخـــلا الغـــرفة وتقـــدم أحمد ومد يده وسلم على ليلى بحرارة ودفء، أمـــا حســـن فترسباته وقيوده الدينية منعته من الاقتراب مما جعله يحييها عن بعد. فعلى حسب معتقده الديني لا يجوز له أن يسلم ويصافح باليد أنثى قد تحل عليه كزوجة في يوم ما إن أراد ذلك. لم يطـــيلا مكوثهمـــا بعـــد إلقاء التحية على ليلى فقد رحلا معا بسرعة لتكملة معاركهما.

بعدهـــا بقليل أتوا بقية أبناء خالة ليلى علي الابن الأكبر ثم كمال وجمـــال، وألقوا التحية على والدتهم وسلموا بلطف على ليلى وتبوؤا مقـــاعدهم على المفارش الممددة في الغرفة. اخذوا يلوكون الصمت ويلوكهم وهم ينتظرون من والدتهم أن تسكب لهم الشاهي..خالة ليلى بـــدا علـــى وجهها الضجر والقلق في آن وأحد، ولكنها لم تحاول أن تشـــتكي. تجنبت حتى ليلى فلم تحكي لها عن جروحها المفتوحة. لا أحـــد يطرق باب ليلى بسبب مصابها الذي ألَمَ بحياتها مؤخرا والذي قلب كل موازينها ..

بقـــى الجمـــيع جالسون وسكون متلعثم يحوم حولهم، كان أولاد خالـــة ليلى يحتسون الشاهي وكأن أمر والدتهم لا يعنيهم. صاروا لا

يهتمون كثيرا بها، لأنهم اعتادوا على رؤية الحزن اليومي وهو يشق جداوله في وجهها. خالة ليلى اعتادت أن تبتلع تعاستها وتجترها كل يوم طوال السنين منذ أن ارتبطت برجل بعمر والدها...شعرت ليلى بقلق خالتها يزداد و بان عليها الكدر فسألتها:

– خالتـــي ..هل أحمد وحسن يتناقشان دائما بهذه الطريقة وبهذه الحدة بحيث لا يسمع أي منهما الآخر؟

ظهـــر بريق أمل على وجه الخالة البائس وألقت بالثقل الذي هدّ كاهلها بعيدا وبدأت بالحديث..

– يـــا بنتي لولو ..كل أسبوع أحمد وحسن يأتيان من جامعتهما ويتشـــاجران مـــع بعض.أحمد كلها سنة ويصبح دكتور وحسن هذه الســـنة الثانـــية له فـــي الجامعـــة يدرس الهندسة. والاثنان ما زالا يتصرفان كالصغار!

– لكن يا خالتي ..أحمد وحسن تغيرا كثيرا؟

أجاب علي :

– أحمـــد وحسن فقدا صوابهما..أصبحا من مجانين الموجة التي تهـــب بسمومها علينا هذه الأيام، فكلاهما ضحايا أيلولجيات شمولية لا تؤمن بالتعددية ولا تقبل ألوان البشر المختلفة. أتدرين يا ليلى إن حسن يفكـــر بترك الجامعة من أجل الذهاب إلى إيران؟ يود الانضمام إلى الحوزة العلمية هناك.. سيدمر مستقبله..هذا المعتوه!

فسارعت خالتها بتوضيح صورة من ألمها فأردفت قائلة:

– وصـــلت بـــه المواصيل أن يمنعني من زيارة صديقة عمري وجارتـــي أم ســـعود لأنها سنية..الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه

وصّى على سابع جار!

فسألتها ليلى :

– هل أم سعود تعلم بذلك؟

فقال كمال الذي كان زميل سعود وصاحبه من أيام الدراسة..

– حــتى أم ســعود تقاسي الأمرين من ولدَها سعود. هو الوجه الآخــر لحســن والمضاد له. فقد أطلق لحيته ، وقصّر ثوبه. وكفّر الحكومة وكل البشر. صار يردد انه من أهل السنة والجماعة ويريد أن يهــب لنصــرة المجاهدين في أفغانستان ويلتحق بأبناء عمومته هناك.

وعاجله علي بقوله :

– وأزيــدك من الشعر بيتا، سعود ترك عمله في شركة الزيت، بحجــة أنه لا يريد أن يدخل في جيبه مال حرام، لأن الشركة بؤرة فســاد وكفــر. ويقول أن حكام هذا البلد فجار ويجب اجتثاثهم لأنهم يقبلون بوجود الفاسقين الكفرة على أرض الإسلام.

قالت ليلى وعلامات التعجب تتزاحم على تقاسيم وجهها

– مــاذا فجــار وفاســقين؟ والشركة بؤرة فساد وكفر؟ ما هذه المفــردات العجيبة؟ من أي عصر أنت؟ ثم لماذا يترك عمله؟ أليس العمل عبادة؟ أولم يحثنا الدين على كسب الرزق؟

قالت الخالة أم علي :

– انــه يعمــل الآن يا بنتي، معلم في مدرسة حكومية.. وكأن الفلــوس التي يحصل عليها من التدريس لا تأتي من بيع الزيت! الله يعين طلابه عليه سيسمم عقولهم.

ثم تساءلت ليلى :

– خالتي، هل يسمح سعود لوالدته بزيارتك؟

– إنه يحاول منعها أيضا، هؤلاء الأولاد نربيهم ليكبروا ويفتروا عليــنا، يأمــرونا وينهونا. سعود أخبر أمه أن التواصل معي خروج عــن الملة وكفر وإثم عظيم. فوقفت له والدته وقفة امرأة شجاعة. كانــت بشدة بأس السيدة زينب أخت الحسين سلام الله عليهما، حين رُحلــت إلــى الشام مع جثة أخيها وجثث من اختاروا الشهادة معه. حيــث خطبت في قوم يزيد بن معاوية الذين آثروا متاع الدنيا على نعيم الآخرة، فهزتهم واحد واحد بكلماتها المعبرة...كانــ..

قاطعتها ليلى كي لا تخرج عن الموضوع الأساسي وسألتها:

– خالتي ماذا قالت أم سعود لأبنها..؟

كانــت ليلى تحاول بذاك السؤال المحدد إن تجرّ خالتها بسرعة مــن تلــك المرثيات الحسينية والحزن المكدس في النفس لكي تكمل حديثها..

فردت الخالة..

– آه..يــا بنتــي..قالت له أن الدين أساسه المعاملة، وان ما يفعله يغضــبها، وان غضبت عليه سيخسر رضاها و رضا الله، فرضا الله مــن رضــا الوالدين! والرسول سلام الله عليه قال "الجنة تحت أقدام الأمهــات" فالجنة التي يريد أن يستشهد من أجل دخولها مفاتيحها عند والدته..

بالــرغم من أن جمال ابن خالة ليلى ظل جالسا يستمع بصمت

ولـم يـدلِ بهمومـــه ويظهر قلقه على إخوته احمد وحسن، إلا أن توجســاته من المشاركة دلّت على انه منزعج مما يجري بين هذين الأخويــن المتشــددين لمنهجيتهما...فهو يرى أن كلاهما فقدا البصر والبصيرة وانحرفا بعيدا جدا عن ساحة الاعتدال وقبول الآخر..

فجأة تذكر علي شيئا مهما فقال :

– ليلى ..طالما أنت هنا لما لا تجلسي مع أختي سلمى وتؤثري علــيها؟ فقد أصابها نفس الداء الذي اعتلت به روح حسن..وتطرفت إلى حد الجنون في تطبيق شرائع الدين.

لــيلى لم تعد تصدق ما تسمعه. كل خبر تسمعه يكون أسوأ من الخــبر الذي يسبقه. انهالت عليها الإخبار المفجعة بقوة، كالصخور الضـــخمة المـــتدحرجة من جبل شاهق، فسألت علي بقلق شديد عن أخته سلمى التي هي رفيقة طفولتها :

– صحيح! سلمى صارت مثل حسن! متى وكيف حصل ذلك؟

فرد عليها علي :

– مــنذ شهرين تقريبا تأثرت سلمى من مجموعة تعرفت عليها فــي المدرســة وانضمت إليهن وصارت خمينية تقوم الليل وتصوم النهار..وتقرأ ....

و لــم تستمع ليلى لبقية الشرح، كأنها أصيبت بالصمم.فالصاعقة حين تضرب في الدماغ لا تترك للمرء فرصة للتساؤل عما يجري..

واصــل علي كلامه وسمات مهنته كمعلم تاريخ والتي يمارسها

منذ سنوات بانت في نبرات صوته..أما ليلى فقد بدا مظهرها منصتة كالتلميذة النبيلة ..وأكمل علي قائلا :

– لا أحــد يدري ما الذي يحصل لشابات وشباب هذا البلد كأنهم مدعـــوون علـــى مائدة البؤس والفناء. انتشر بينهم فكر مثل مرض الطــاعون الــذي ضرب كل بيت في أوروبا في العصور الوسطى، فجعــل كــل واحــد منهم مشروع لنشر ثقافة الموت والدمار. صار الناس في حالة هستيرية عجيبة.

ظــلام مسيّس تفاقم بين الأفراد وصار يشتد ساعده يوم بعد يوم فيرمــي ســهامه بكل من مر ناحيته..ليس هناك أحد قادر على أن يوقفـــه، فهـــو يصـــوّب بدقة ورعونة. وجهات من الخارج والداخل تسانده. انه كالطوفان العارم الذي أغرق قوم نوح وأهلكهم عن بكرة أبـــيهم، إنه طوفان غاشم لكن هذه المرة الناس غير مسلحين بمركب نوح لكي ينجو بأنفسهم وبأبنائهم منه....

أحسّــت ليلى بأمواج الطوفان الجبارة القاتلة وهي تستمع لكلام ابــن خالــتها علي، فهي تعرف جيدا أنها لا تريد أن تقترب من هذا الزحف المخيف كي لا يمسها برجسه وتصبح جزءا منه..لم يبق لها ســوى أن تـــرحل إلـــى بلاد الفرص المتاحة للجميع وبأسرع وقت ممكـــن. نعم لا بد لها من الرحيل إلى تلك الأرض. فهي تكاد تسمع ضـــجيجهم يدفعهـــا بقـــوة إلى المغادرة.. هي متيقنة أن معاركهم لا تعنـــيها بشيء.. وانتصاراتهم لا تمت لها بصلة..فهمها أكبر مما هم فـــيه.. لذا ستبتعد لتبحث عن ضالتها.. لتفتش عن نفسها! علها تعثر عليها.. وتريحها من مشقة البحث..

سلمى

قلب بأمنيات مدفونة صاحبه ينتمي لمقابر الموؤدين دون أدنى شك

حملت ليلى نفسها متجهة إلى الطابق العلوي في بيت خالتها، بعد أن أخـــبرتها خالتها أنها أعدت لها سريرا في غرفة سلمى، ووضعت أمتعـــتها هـــناك. صار الليل يلج بين البيوت والطرقات بهدوء ليخفي بستاره ملامح المدينة الكئيبة ويلفها بظلامه الداكن..خيمت العتمة على الأزقـــة ولـــيلى لم ترَ سلمى بعد. وعندما سألت خالتها عنها أخبرتها بأنها ستأتي بعد صلاة المغرب!

دخلـــت لـــيلى غرفة سلمى وصارت تحدق باستغراب بصورة معلقة على الحائط يبدو أن سلمى قد رسمتها للإمام الخميني، وعلقتها فـــي مكـــان كانت تتربع فيه صورة للمغني الراحل العندليب الأسمر عـــبد الحليم حافظ، الذي كانت تعشقه سلمى وتطرب لسماع صوته الجميل. فكان من شدة إعجابها بذاك المطرب المصري النحيل، قامت

سـلمى برسـم طـيفه في معظم لوحاتها.. بدا في الجهة الأخرى من الغـرفة عـبارة معلقة ومكتوبة بالخط العريض وكأنها محفورة على الجـدار "إمامنا الحسين وزعيمنا الخميني." كان مكتب ليلى يعج بكتب المرثـيات الحسـينية والأدعـية الدينية. شعرت ليلى بالغربة قبل أن تـتغرب، وبالطعنة تمزق أحشاءها من هول الانتكاس الذي حل بمن تعرفهم..

بعـد حلـول صـلاة المغرب، قدِمت سلمى الى البيت واتجهت مسرعة إلى غرفتها وهي محملة بكتب بدت دينية، دخلت الغرفة حيث كانت ليلى في انتظارها. كانت سلمى مرتدية حجابا أسودا تحت العباءة و"البوشية" غطاء الوجه، وجوارب وقفازات سوداء! كانت ليلى مستلقية علـى السرير، وفجأة قفزت مرتعبه من على الفراش حين رأت سلمى بذاك السواد القاتم. من النظرة الأولى بانَ لليلى أن سلمى صارت ممن اختطفـتهم موجة العتمة. كان كلام أخيها علي عنها صحيحا. أخذتها الـزوبعة التـي هبت على فتية هذا البلد وفتياته بتلك السموم المدمرة، والتي ربما ستبقى آثارها على هذه الأرض لسنيين طويلة قادمة!

حيّت سلمى ابنة خالتها ليلى ودعتها للجلوس، أثنائها نزعت سلمى أوشحتها السوداء ووضعتها في الدولاب...كادت ليلى أن تقول لسلمى بنبرة أسى..حتى أنتِ يا سلمى الفنانة الرائعة..إذن فلترحل ليلى! وقبل أن تنبس ببنت شفة..إذا بأحمد يداهم الغرفة بقوة وغضب ويصرخ :

– ليلى عقّلي هذه المجنونة التي صارت مثل أخيها حسن المختل عقليا!

دفعـت سـلمى أخيها أحمد بقوة إلى خارج الغرفة وردّت عليه

وبنفس الحدة وزعقت بأعلى ما عندها من صوت قائلة :

– أخـرج مـن الغرفة.. أتعتقد انك العاقل الوحيد في هذا البيتَ أيها الشيوعي؟؟ هل أنت من يمتلك الحقيقة المطلقة التي لا لبس فيها؟

ومـن غير أن تنتظر منه ردا صفعت الباب في وجهه وأقفلته. جلسـت سلمى على كرسي مكتبها المتواضع لتلتقط أنفاسها كفريسة للـتو نجـت من مصيدة قناصها. مرّت ثوان متثاقلة حتى استردت سلمى ما فقدته من سكينة.. التفتت إلى ليلى بابتسامة زائفة لتحسسها بأنهـا مازالـت ابنة خالتها سلمى اللطيفة المبدعة التي عهدتها..لكن عيناها أخبرت ليلى غير ذلك.

العـيون هـي المـرآة التي تعكس للآخرين عما يفكر به الناس، وتفضح دواخلهم التي يحاولون إخفائها. لكن العيون توقعهم في مآزق يعجـزون عـن تفاديها. هذه عادة من يجيد التلفت باستمرار، وتفادي التواصـل البصري مع الآخرين فهو بالتأكيد كذاب محترف أو يخفي أجندة مريبة..

تقبـت سلمى غطاء الصمت المخيم عليها وعلى ليلى وطرحت سؤالا غريبا قائلة :

– ليلى.. ما بك؟

انبهرت ليلى من قلب الأدوار المفاجئ فعاجلتها بالإجابة :

– تسـألين ما بي؟ عجيب أمرك يا سلمى. من المفترض أنا من يوجّـه إليك هذا السؤال أنت تغيرتِ كثيرا..ما الذي أصابك يا سلمى؟ ومـا كـل هـذا السواد الذي تـرتديه؟ ولمـاذا هـذه الصـور

والعبارات العجيبة؟

– أنا..يا ليلى اهتديت ..أخيرا اهتديت..

– ومن قال أنك كنت ضالة؟

– أنا اعرف إني كنت ضالة.وقد عثرت الآن على الدرب السوي.

– ماذا؟ أي درب هذا؟

– الدرب الذي سيحرر نسائنا من الظلم الذي يقاسونه..انتهى عهد التهميش والاستغفال..يجب أن تكسر المرأة قيودها وتشارك في تطوير المجتمع. انظري إلى المرأة الإيرانية وما تحققه من انتصارات في ساحات كانت حكرا للرجال!

– سلمى ..هذا الكلام في إيران ..لا يمكن أن يحدث هنا ولا تحت هذه الظروف التي تمر بها البلد.

– لا تكوني ساذجة كأخي علي، سيحدث بالتوعية والحلقات الدينية وحضور المآتم الحسينية وبالمقاومة. قدوتنا فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين وزينب أخت الإمام الحسين عليهم جميعا الصلاة والسلام..

كانت ستسألها ليلى عن لوحاتها الفنية، وعن طموحاتها في أن تقطن وترتشف الفن التشكيلي في إيطاليا في مدينة فلورنسا الساحرة،التي احتضنت دافنشي ورافييل ومايكل انجلو، وكانت ستذكرها بتعلقها بمونيه وبيكاسو وفان كوخ ورسامها المفضل سلفادور دالي. وبتذوقها للأنماط الفنية التشكيلية التي تثلج الروح وتنعش الذهن..لكن طنين الأبواق في مسامع ليلى ازداد، وقرع الطبول اشتد في دماغها.فقد نسفت من ردود سلمى.. فتناثرت أشلاء ثم عادت فلملمت نفسها بعيدا عنها، كي لا تؤرقها بقناديلها المعتمة وتبدد ما تبقى منها في ظلامها الموحش..

كل منهم يبحث عن همه ليواريه. المسكينة سلمى عاشت بين

أخوتها الخمسة حيث كانت تُسحق كل يوم تحت وطأ أقدامهم بفضل جهود والدها ووالدتها. فهي التي تقوم على خدمة الذكور في البيت والسهر على راحتهم ولم تكن تجد الوقت الكافي لممارسة الرسم والنحت. كل فرد فيهم كان يمارس عليها قهر بلون مختلف وينفس فيها لأنها هي "العظم الهش" والحائط المنخفض للعائلة. الكل يتخطاه من غير أن يكترث.

نشأت سلمى مثل كثير من النساء في هذا البلد، بأحلام مدفونة وآمال معلقة إلى أجل غير مسمى. أفقدوها هويتها واستبدلوها لها بنظرة دونية لذاتها، وإحساس ملازم بالضيم والانكسار، يشدها كل ساعة إلى الحضيض! حتى سعود ابن الجار السني المتحضر والذي كانت تكن له بعض مشاعر الود والاحترام، وأهدته بعض قطعها الفنية، تحول هو الآخر إلى غول كاسر، يتمنى زوالها هي مع الفئة التي تنتمي إليها!

وعاد صوتها المغبون..

– دعينا من ذلك يا ليلى..أخبريني عنك ..سمعت من والدتي بأنك ستذهبين إلى أخيك نور في أمريكا!

– نعم..في الشهر القادم كي أبدأ دراستي الجامعية هناك. أنا أتيت هنا لأودع الأهل وأودع أبي وزوجته، و سألقي بنظراتي الأخيرة على بيت العائلة الكبير قبل أن تتم إجراءات بيعه وتغيير معالمه!

– آه..أنا لا يعني لي ذلك البيت شيئا.. بل أمقته لأنه يحمل لي في طياته ذكريات بشعة..عموما متى ستزورينه..؟؟

لم تفهم ما عنته سلمى بكلامها لكنها اختارت أن لا تسألها .. فأكملت :

– سأقوم بزيارته عدة مرات لأشبع نفسي منه..فأنا سأبقى معكم طـــوال هـــذا الأسبوع حتى ينهي أخي إبراهيم الدورة التدريبية التي يحضرها، لأعود معه ومن ثم أعد تجهيزاتي للرحيل.

قضت ليلى مع سلمى بعض الوقت قبل أن تدعيان للعشاء الذي مـــر بصمت مطبق. وبعد أن انتهى الجميع من تناول العشاء بهدوء متلعثم والذي كان متأخرا ، افترق كل منهم لهمومه. أبناء خالة ليلى خـــرجوا لزيارة رفاقهم.صعدت ليلى مع سلمى إلى الغرفة تظاهرت لـــيلى بالتعـــب فتمددت على السرير لتفتعل استسلامها للنوم. سلمى أطفـــأت النور، وأبقت المصباح القريب منها مشتعلا..وفتحت القرآن وبدأت تتهجد بصوت خافت يتسم بالخشوع. ظلت ليلى تتقلب بتململ ذات اليميـــن وذات الشـــمال إلـــى أن أنهت سلمى تهجدها وأطفأت مصباحها. صارت أصوات الشارع تختفي وتبتعد..كان الجو يقارب فصل الخريف حارا في النهار ويرسل نسيما باردا نوعا ما في الليل. يهـــب بيـــن لحظة وأخرى هواء مملوء برائحة النخيل الطيبة، كأنه يحمل بين موجاته الندية رسائل عشق إلى حبيبة تنتظر على أحر من الجمـــر..حينها خيّم الظلام على جدران الغرفة فاتشح كل شيء فيها بالظلمـــة. بعـــد مرور بضع دقائق بدا نَفَس سلمى المنهك مسموعا، وهو يعلن بنغماته المبعثرة رحيلها عن عالم اليقظة إلى عالم الغيبة..

عزف أنثوي منفرد

الجنس طُهر للجسد مثلما الحب طُهر للروح، لكن علاقة الإنسان المُصادر نفسياً بجسده علاقة مشبوهة تدور حولها كثير من علامات الاستفهام

– هيا عجلي يا ليلى ..جدتي ستبدأ الحكاية..

أنهـــى يوسف عبارته وهو على عجل وتوجه إلى "ليوان" غرفة الجدة تاركا ليلى في حيرة مع تنظيف أواني العشاء. كان الوقت شتاء والـــبرد يختبئ في كل زاوية في المنزل الذي يفتقد لسقف أو عريش يحجـــب الهواء البارد عنه. كل البيوت كانت على هذه الشاكلة، ليس معـــدة لا للشـــتاء ولا حـــتى للصيف. فهي عبارة عن غرف تحيط "بحـــوش" ســـاحة غـــير مسقفة. تهطل الأمطار فيه في وقت الشتاء وتـــأكل الشمس حيطانه وأبوابه في قيظ الصيف. عادة غرفه ضيقة خالية من أي أثاث، ودون نوافذ، ويكون المطبخ غرفة صغيرة بالكاد

تكفي لشخص واحد يقف فيه ليطهي..

ليلى كانت تغسل الأواني في حوض في "الحوش." كانت ترتجف من شدة البرد وتحاول أن تسرع في إنهاء عملها من اجل أن تذهب لتستمع لحكايات جدتها المسلية.

رجع يوسف مرة أخرى لأخته ليلى وهي شبه جالسة على الأرض تنظف ما تبقى من الأواني وقال :

- جدتي قالت أنها لن تحكي قصتها إلا بعدما تأتي..هيا استعجلي..بسرعة

أجابت ليلى بغبطة :

- طيب..سأنتهي من الغسيل حالا.

وقف يوسف ينتظر ليلى دون أن يحاول مساعدتها، لأنه لم يشعر قط أن من واجبه المساهمة في أعمال البيت، وليلى لم تحس أبدا بذلك، لذا لم تطلب منه مساعدتها. كان أمراً طبيعيا بالنسبة لليلى أن تغسل وتكنس وتنظف وتساعد والدتها في إعداد الطعام وتجهيز المائدة. فكل يوم ليلى من تقوم بتنظيف السفرة التي يأكلون عليها.السفرة تستخدم عوضا عن طاولة الطعام، فهي عبارة عن بساط دائري مصنوع من سعف النخيل، يُفرش على الأرض ويُستعمل دائما لتناول الوجبات. يُنظف بالماء والصابون لإزالة فضلات الأكل منه من أجل أن يعاد استخدامه من جديد.

بعد أن تزوجتا أختاه مريم وزهرة، صارت ليلى هي المسئولة الوحيدة عن نظافة البيت والاهتمام بكل زاوية فيه، ومرات تنوب عن والدتها. إخوان ليلى لم يتساءلوا قط عن أن كان يتوجب عليهم القيام بأي دور داخل البيت، فالمتعارف عليه أن الذكور دورهم يبدأ بعد أن

تخطي أقدامهم عتباته.

إنتهت ليلى من التنظيف فحملت الأواني على كفيها وذهبت بهم إلى المطبخ. وضعتهم في دولاب قديم أبوابه تكاد تفر منه من شدة ترهله. بعدها توجهت إلى "الليوان" ودخلت، فأحتضنها الجو الدافئ بحميمة منعشة.كانت جدتها تتوسط المكان جالسة على مفرش على الأرض وتحتها سجادة صوفية قديمة، فقدت زخارفها ورونقها بسبب كثر الاستعمال والسنين المتراكمة.حطت أنظار ليلى على جدتها وهي متربعة على مفرش قطني عتيق، وترتدي مشلحها الصوفي الثقيل المصنوع من جلد الإبل، وإخوتها الصغار إبراهيم ويوسف مختبئان تحته. كانت والدة ليلى تجلس بقرب مدفأة حديدية الصنع فيها جمر يتلظى، موضوع على جانبي الجمر المتوهج إبريق شاي صيني، ودلة قهوة مصنوعة من النحاس، وماء ساخن في إبريق معدني.

ألقت ليلى نظرة سريعة على المكان ومن ثم اتجهت حيث كانت تجلس جدتها، والجمر يبث سخونته في أرجاء الغرفة، ليجعلها دافئة ومريحة، بالرغم من عدم وجود أثاث فيها.اندست ليلى تحت المشلح فسارعتها الجدة بحضنة ناعمة وقالت لها بحنان.

- الله يعطيك العافية يا بنتي..وتسلم يديك يا حبيبتي..

ابتسمت ليلى وردت على جدتها وفرحها يكاد يغمر المكان..

- الله يسلمك يا جدتي..

قبل أن تبدأ الجدة الكفيفة حكايتها سألت عن نور الأخ الأكبر لليلى، فأخبرتها والدة ليلى بأن نور ذهب إلى بيت الجيران ليشاهد

الـتلفاز مـع أبنائهم. والد ليلى كان بسيط الحال لذلك لا يقدر على شراء تلفاز، حيث كان سعره باهظ جدا في تلك الأيام، ووالد ليلى لم يكن مقتدر فهو بالكاد تمكن من توصيل ماء وكهرباء في البيت.

بعد أن تيقنت الجدة من أن عدد جمهورها قد اكتمل، بدأت بسرد حكايتها الليلية، حيث افتتحت الحكاية كالعادة بذكر الله وبالصلاة على نبـيه وعلـى ابنته فاطمة والأئمة الاثنى عشر. ثم بدأت تقص على لـيلى وأخويهـا إبراهيم ويوسف قصة آدم وحواء وكيف انزلا من الجـنة بسـبب تحريض حواء لآدم على تذوق التفاحة من الشجرة المحرّمة ودور إبليس في إغوائهما.

بدون مقدمات ليلى قامت بجر نفسها بعنوة، من ذكريات الطفولة والـبهجة، فـإذا بها في غرفتها في المستشفى، مستلقية على فراش المرض، تحت سقف ليل بهيمي الطابع والمنحى. شعرت ليلى بوحدة حـواء وغربتها في جنة الخلد، والعيش في نعيم خرافي، حيث ليس ثمة شيء فيه يحفز لتحريك أي شيء في داخل ساكنه. كان لابد من حـواء أن تفتش عن منفذا لكي تخرج من حياة الترف الممل والعفة البلـيدة. ربمـا شعرت أن الحياة المحدودة في الدنيا ذات معنى مثير وانــه قد يكون خير من الخلود في جنات النعيم بدون معنى. فالجنة تفتقر لكل نقيض يعرفه الإنسان في الدنيا، فقد تعلم الإنسان انه ليس للحياة معنى بدون الإحساس بالموت، ولا للصحة متعة بدون تجربة المـرض، ولا للسـعادة لذة بدون المرور بمعاناة، ولا للراحة طعم بـدون الشـعور بالتعب. ربما حواء كانت مدركة لكل ذلك، وربما

أحسـت أن آدم لم يع بعد لهذه الأمور وأنه في حاجة إلى أن تنبهه، فهو الأداة التي ستساهم في قلب مفاهيم الوجود، في عالم يلوكهما هما الاثنين بوتيرة سرمدية، بلا حدود وبلا نقطة بداية أو خط نهاية.

مرت بليلى هواجس حواء الداكنة، فأصابتها بأرق مقرف، تأزمت فجأة وكأنها للتو تحس بانتكاساتها النفسية والصحية، وباستبداد الضعف الرازح على جسدها..ظل الشعور بالنحس طوال الليل حليف مفروض علـيها لم تسع قط للتعرف عليه أو الاقتراب منه. هربت بنفسها بعيدا عـنه إلـى الداخل.. فبدأت تراودها خيالات عجيبة..مرّت بها عبارة "العلـم نـور والجهـل ظلام". تلك العبارة التي كانت كالسيف القاطع المسـلط علـى التلمـيذات الصغيرات البليدات في صفها، تشهر في وجوههـن بقسوة كلما عجزن عن أداء واجباتهن، حيث يُتهمن بالفشل وبأنهن سيبقين جاهلات، ويعشن في ظلام طوال حياتهن البائسة. ليلى لا تـدري لماذا تلك العبارة أصبحت تزعجها كثيرا بعدما تعرفت على الظـلام عـن قـرب وباتت تعشقه وتستأنس به. الربط بين الجهل والظـلام لم يعد متناسقا بالنسبة لها. فالجهل ليس دائما عتمة، كما أن العلـم لـيس بالضرورة يحمل معه للناس إضاءة مشرقة. هناك عتمة تُشعل ثراء بداخل الخيال وتقيِده، وتجعل الإنسان أكثر فعالية.أليس كل ذوي الأدمغـة النـيرة تبلورت أفكارهم ونظرياتهم العظيمة من تحت سـتار الظـلام الداكـن وبين دهاليزه..؟؟ فكثير من تصورات المرء للأشـياء لا يمكـن أن يحفزها النور، لأن السطوع يحدها بوضوحه وأبعـاده الصـارخة، فلا يدع هناك مساحة للمخيلة أن تنسج خيوطها العنكبوتية المبدعة. ثمة كثير من الأمور التي كانت بالأمس يُنظر إليها

على أنها علم منير، أصبحت اليوم ما هي سوى جهل موروث متلبس بغشاء النور..ذاك النوع من الموروث ينتشر كوباء الكوليرا بين الأفراد فيفتك العقول و يردمها .كما هي الحداثة وما بعدها تلك الشمس الساطعة التي أضاءت الأرض شرقا وغربا حين بزغت بأشعتها على العالم،حيث جلبت للإنسان شتى سبل تكنولوجيا راحة الجسد، لكنها سلبت منه راحة البال وطيب الخاطر. الحداثة جعلت الإنسان خارق القدرات، متعدد المواهب، سابق للأزمنة والأمكنة، لكنه في الوقت عينه جعلته باهت الإنسانية وشاحب القيم وسقيم الذات..

على الضفة الأخرى باتت الظلمة بالنسبة لكثير من الناس خاصة المحبين منهم تمثل شعور جميل بالسكون والاشتياق والسكينة. ليلى بعد فجيعتها في زوجها سامي التحقت بذاك السرب المحروم من أحبائه وصارت واحدة منهم: فبين سكنات الليل وسدوله، كثيراً ما ينتاب ليلى إحساس بالدفء والحميمية..فجسدها الملتهب لا يكف عن الاشتعال والتمرد. تحن دائما لطيف سامي وتزداد لوعة ورغبة واحتياج إلى أحضانه بقدر احتياج الطفل الرضيع لثديي أمه. تحلم ليلى بمعانقة سامي وتتوق إلى مضاجعته. لكنها تتعب كلما احتدمت الأحاسيس الجياشة، والشجون المتأججة، فتحاول الرحيل بنفسها بعيدا إلى أقصى الدنيا. تصد بعزيمة عن إلحاح الجسد الميّتم من نصفه الآخر، لكي لا تخوض في اضطراباته الليلية.

يشتد الشوق على ليلى فتبدأ تقرأ بعض التعاويذ، وتسمي باسم الله وتدعو، وتتعوذ من الشيطان الرجيم، وتطلب من الله أن يساندها في

محنتها وينصرها على النفس الأمارة بالسوء. فقد ربّتها والدتها على أن الله هو المعين الوحيد الذي يجب عليها أن تلجأ إليه في السراء والضراء. اعتادت ليلى أن تصلي وتدعو ربها كلما ضاقت بها الدنيا. لكنها مشلولة الآن ليس لديها سوى أن تستند على ما تبقى معها في الذاكرة، من آيات قرآنية وأدعية دينية لكي تحمي نفسها من إبليس الذي يتربص بالمؤمنين ليوقعهم في مستنقعه. لا أحد يدري لماذا إبليس يصّر على إيذاء أحفاد آدم، ولم يكتف بانتقامه من أبوهم الذي أسقط من الجنة إلى الأرض! أو لماذا اَختار إبليس أن يعصي أمر ربه ويرفض تأدية ما طلب منه؟ ألا يعني ذلك أنه مخلوق ثائر حر، لا يهاب أحدا؟ أليس الإحساس بالحرية والأنفة والعزة شيء يدل على القوامة والاستقامة؟ إذن لماذا كانت تلك الميزات غير مقبولة حين تحلى بها إبليس؟؟ فقد طُرد وعُوقب والتصقت به اللعنة حتى قيام الساعة. ترى لو لم يكن ثمة ناس مؤمنين على هذه الأرض هل سيتعرف أحد على إبليس بالشكل الذي يدركونه اليوم؟؟ أم أنه سيكون إبليس نكرة ليست له أية أهمية حاله حال زملائه الملائكة الآخرين؟؟ لم تكن قط تلك التساؤلات تدور في مخلية ليلى ولم تعني لها شيئا أبدا. لكن ليلى الآن لم تعد قادرة على أن تصد من يغويها في الداخل، ويثير أمور محيرة ومزعجة. فهي تهزم كل ليلة في الوحدة الموحشة فتسلم ذاتها لأهوائها.

الآن صار هاجس من نوع آخر يحرض ليلى على ارتكاب الخطيئة ويراودها عن نفسها. إنه متقمص بجنون شبقي صاخب. وقفت أمامه مستسلمة لإملاءاته، وشرعت لتلبية رغباته المكتظة وبدأت بهدوء ناعم في ممارسة عزف منفرد ذو لحن ممتع.

تتكبل ليلى بهزيمة شنعاء فتستلم شهواتها جسدها المحموم، لتلبي له طلباته المستعجلة المؤجلة. تكاد ترى نفسها تبادر بحركة فيها تردد محشو بشعور الذنب المقلق، لكنها تواصل احترافها، فتسحب غطائها وتسدله على جسدها الذي يتأجج نارا، فتحرره من قيوده وتبدأ في دس يدها تحت ملابسها الداخلي وتشرع في مداعبة مكامن اللذة في بدنها علها تهدأ أو تستكين. تلامس برقة حلماتها الطرية تحاول إسكاتهما. بدا حلمتاها متحفزتان، كعصفورتين صغيرتين تغردان بلهفة وشغف لأمهما من أجل إطعامهما. تهدهدهما على مضض، ثم تأخذ بالتوجه إلى الأسفل لتتحسس ثلاثيّها المقدس مرة أخرى، تنزع لباسها الداخلي ويتفاقم إحساس الخطيئة في الداخل، وإذا بها تحس بشبق معشش في أحشائها، وكأنه ينتظر زيارتها منذ دهور. يثيرها ذاك الإحساس فيحرك كل كينونتها المتعطشة للمسات الحبيب الغائب. تندفع بأصابعها الصغيرة بشدة ودون تردد لتندسّ وتغوص في أعماقها. وتعاود أناملها المغامرة وتكرر بإلحاح من أجل الوصول إلى الذروة. ترتعش كل أعضائها وتهتز شعرات جسدها بهجة وانتعاشا كأنها أعشاب عطشى للتو ارتوت بزخات مطر في ليل صحراوي حارق.

بقيت ليلى تعزف بكل الترانيم، وأوتارها تتجاوب بنغمات جنونية وعبث، وهي تبحث عن مواطن الانسجام. مع مرور الوقت تناسقت سيمفونيتها الهادئة مع أحاسيسها الشهوانية . استعمرتها نشوة عارمة، انتفضت مرة ثانية برعشة متلعثمة مع لمسات أناملها التي أدمنت ذاك العزف اليتيم. تأججت نفسها فأحسّت وكأنها استلقت معها في خلجاتها على مروج خضر بديعة، وتراخت أطرافها حتى ذابت روحها في عالم نضر. تصلبتا حلمتا نهديها بلذة وهي تتوق بشدة لقبلة أو للعقة تحط عليهما لتزيدهما وسامة وتألق..حلت لحظات قمة الانتعاش وإذا

بليلى تحس إنها تفيض برطوبة حالمة، تبللها وتريح غرائزها المحتدمة. ثم تأخذها هواجسها مرة أخرى فتحلم وتحتلم من جديد، دون أن تشعر أنها في حاجة للعودة إلى عالم اليقظة. ذاك العالم المكتظ بأنفاس المحتضرين وبمن تنتظرهم حبيبات الثرى..

فتحت ليلى عينيها بعد أن أحست بشفاه رطبة وقبلة حطت على هامتها. أنها كانت قبلة أسى وشفقة من والدها. والد ليلى يأتي لزيارتها مصطحبا معه زوجته الشابة الجميلة أنيسة. عادة يزورانها في الأوقات التي يتأكدان فيها أن والدة ليلى، أم نور، غير موجودة.

كم تمنت ليلى مرارا وهي صغيرة أن تحظى بقبلة واحدة من والدها. كانت في أشد الحاجة إليها والى حنان الأب الذي قرأت عنه لكنها لم تحسه طوال حياتها. ليلى ابنة مطيعة وكانت تلميذة متفوقة في دراستها ومتميزة في نجاحاتها. الكل كان يتحدث عن ذكاء ليلى وانجازها في المدرسة، القاصي والداني، سوى أن والدها لم يظهر أي إعجاب أو اهتمام بقدراتها. حتى حين تزوجت من سامي لم يحضر حفل زفافها، بل لم يحضر أي احتفال لزواجات بناته.لأنه يعتبره عارا أن يبارك الأب زواج الأبنة، هذا على حسب عُرف القرية التي نشأ فيها. كانت اهتمامات والد ليلى دائما منصبة على أولاده، يساندهم ويشجعهم ويوفر لهم كل ما يحتاجوه، من أجل أن يحثهم على مواصلة المسيرة..أما بناته فلم يعبأ بهن أبدا..ولم يشعرهن قط أنهن من لحمه ودمه.

قرب والد ليلى مع زوجته أنيسة من سرير ليلى وصارا ينظران والحزن مرسوم على وجنتيهما، والأسى يكاد يندلق من عيني والدها الـــذي أردف قائلا وهو ملتفتا لزوجته التي كانت تحاول أن تسانده في محنة ابنته :

– مسكينة هذه الابنة حظها رديء. ترملت في السنة الأولى من زواجهـــا، والآن أصـــيبت بهذه الغيبوبة، والله أعلم إن كانت ستشفى منها أم لا..لا أدري لماذا قدرها صار هكذا! وكأن الدنيا معلنة حربا علـــيها. كأنها وُجدت في هذه الدنيا لتتعذب وتموت. لماذا لا يأخذ الله أمانته ويريحها؟؟

ردت أنيســـة زوجة والد ليلى بلهجة ذات نكهة دينية وعلامات الاستفهام والتعجب تتزاحم في معالم وجهها وقالت :

– تعوذ من إبليس الله يهديك، تعوذ من إبليس.. واذكر الله يا أبو نـــور، لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا.. والله سبحانه وتعالى قادر على كـــل شـــيء. هـــو الذي يحي العظام وهي رميم.. وإنشاء الله ليلى ســـتتعافى و ترد لها صحتها..وتفرح فيها وفي عيالها..يمكن هي في فترة امتحان وسوف تخرج منه بفوز عظيم..

شـــعر والد ليلى بالخطيئة وبأنه ارتكب إثما حين تساءل وتذمر عما قسمه الله لأبنته وما قدر عليها حدوثه ...لذلك سارع بالرد قائلا:

– ونعـــم بالله..ونعم بالله..صدقتِ يا أنيسة..الله يخرجها من هذه الغيـــبوبة ويرد لها صحتها إنه قادر على كل شيء..والحمد لله على كـــل شـــيء.. اللهم لا نسألك رد القضاء يا رب ولكن نسألك اللطف فيه..أستغفر الله..أستغفر الله..

استمر يتمتم ويغمغم بعبارات الشكر والاستغفار حتى كاد يسأمه لســـانه. جلـــس والد ليلى وأنيسة على كرسيين بجانب سرير ليلى، وصـــار كل واحد منهما يجتر ما تعود أن يلفظه في مواقف عصيبة مـــثل هـــذه. قرفت ليلى من هذه المواويل وكرهت نفسها بسبب ما تســـمعه من كلام من زوارها. تتمنى أحيانا أن تفقد السمع، لأن تلك الحاســـة لا جدوى منها إذا كان الإنسان لا يستمع سوى لأمور تافهة ومبلدة للحس ويعجز عن صدها أو العزوف عن سماعها.

نظـــرات أنيســـة زوجـــة والد ليلى تزعج ليلى أحيانا، لأن فيها صـــبغة زيف مفضوحة، لكن والد ليلى لا يشعر بها. أنيسة امرأة في مقتـــبل العمـــر، تُعـــد في عمر زهرة أخت ليلى الكبرى. تقف على عتبات أبواب الثلاثينات. أي أنيسة متزوجة من رجل في سن والدها. ليس من السهل أن يفهم أحد معادلة في علاقة من هذا النوع. ارتباط فـــتاة غضـــة بـــرجل يكبرها بعقود. الكل يعرف جيدا لماذا أبو نور المتقاعد تزوج بأنيسة الشابة، لكن الذي يحير الجميع لماذا هي قبلت به بعلا. فهي لم تفتها أي قطارات بعد، ولم ينقصها شيء في حياتها، فوالدهـــا الذي هو صديق حميم لوالد ليلى، ذو حالة ميسورة، وكان يعاملهـــا بلطف ويفضلها على إخوتها، فهي الإبنة الوحيدة بين تسعة أولاد. لذلـــك مكانتها كبيرة وخاصة لدى والديها. ولهذا الكل تعجب من قبول أنيسة بالزواج من والد ليلى. ربما أنيسة تزوجته لأنها فتاة مدللـــة ولعـــوب وتريد أبا لا زوجا. فقد أدمنت تلك العلاقة الأبوية المتمـــيزة. تـــود أن تظل البنت الصغيرة، التي تحس دائما أنها في حاجـــة إلـــى رجل كبير، كي يحسسها بصغرها وبجهلها وضعفها، فيرشدها ويدلها على أمور الحياة. والد ليلى، الملقب بأبي نور، مثل معظـــم الرجال، يشعر أنه محتاج لامرأة على شاكلة أنيسة، صغيرة

الســن وفــيها ذل أنثوي وقبول بالسادية بجانب غنج مثير. ربما في داخلــه رغــبة شديدة لإشباع هاجس "لوليتا" المعشش فيه ومحاولة إســكاته. "لوليتا" هي الطفلة الصغيرة التي لم تكتمل بعد أنوثتها حيث يحلــم بمضاجعتها كل رجل بالغ في هذا العالم. وكلما بلغ الرجل من العمر عتيا، كبرت رغبته الشبقية في النيل من "لوليتا". ذاك الهاجس المحموم قد يظل مقلقا طوال حياة الرجل إذا لم يلبِ طلبه.

أمــا بالنسبة "لوليتا" الخاصة بوالد ليلى هي أنيسة. أنيسة ترى زوجها كأنه آية منزلة، تنصت باهتمام له وتطيعه ويحركها كالدمية. كـل تلك الأمور والدة ليلى لم توفرها لزوجها قط. لأنها امرأة تتسم بالجدية بحكم أنها شيخة الحي، أيضا هي أكثر منه ثقافة وعلما لأنها تجيد القراءة والكتابة وتعي بأمور لم يسمع بها، لذلك زوجها لم يكن يمثل مصدرا للمعرفة لها. فأبو ليلى أمي في اللغة العربية، لكنه تعلم اللغة الانجليزية المهشمة، حين عمل في شركة الزيت.

مرّ الوقت ببطء حتى حانت الساعة لرحيلهما.ودّع والد ليلى ابنته بطــبع قبلة أخرى على جبينها، وخرج بسرعة وهو متأبط يد زوجته أنيســة، لأنه تذكر أنه قد قرب موعد زيارة والدة ليلى لأبنتها. أم ليلى وأبوهــا صارا لا يطيق أي منهما رؤية الآخر، فهما أصبحا كالخطين المتوازيين اللذين يرفضان للأبد أن يلتقيا في أي نقطة..

اللقـــاء السادس

تحريم إيذاء الآخرين هي الإشارة الحمراء الفريدة التي لا بد أن تنبض بحيوية طوال الوقت في أعماق البشر كي تتحقق العدالة الإنسانية الحقيقية على هذه الأرض

– مرحبا ليلى!

– أهــلا عشـــتار..مـــنذ أمد طويل لم أرك..اشعر وكأنك غبتِ لقرون ...أين اختفيتِ؟

– يا عزيزتي قلت لكِ مسبقا أنت التي تختاري الالتقاء بي

– كيف يتسنى لي ذلك؟

– أنا آتيك حين تذوب شوائب الذهن العالقة، وحين يستدل الصفاء على روحك وحين يتعرف النور عليك ويطرد بقايا الظلمة.

– كم تحبين الألغاز يا عشتار.

– غصتِ كثيرا في خيالات وأمور داكنة فأنستك أن الشمس تفقد بريقها وأناقتها بين الغمامات المعتمة.

– حسنا يا عشتار تحدثي بوضوح، هذا ما عودتمونا انتم الآلهات عليه. الضبابية هذه عادة بشرية أرجو أن لا تمارسيها معي!

– ليلى تذكري ما كنت تراودي نفسك به!

– أتعنين بقولك ذاك أطيافي الجنسية وممارساتي الذهنية لعادات يمقتها المجتمع ويدينها العرف؟ إذا كان هذا ..حسنا..بالله عليك ماذا تتوقعين أن تفعل فتاة مثلي مشلولة وهي في عمر الزهور؟ عاجزة عن تحريك أي عضو فيها، لا تمتلك حتى شبرا واحدا من جسدها. تحارب على عدة جبهات، بينما ضجيج الثواني يدق في الأعماق، وصخب الدقائق يقرع في نفسها ليل نهار، يكادان أن يصيبانها بالجنون، وحبيبها لا يفارق مخيلتها أبدا!

– ليلى.. لا تعلقي إخفاقاتك على شماعات واهية..بالنسبة للجنس حين تشعري أنه نزيها ومتسما بالصدق، فهو نقاء للجسد مثلما الحب نقاء للقلب، وعلاقتك بجسدك حق لا ينازعك عليه أحد وأمر خاص بك وحدك وليس من الصواب أن تسيئي النظر إلى احتياجاتك الطبيعية، فحان ما تشعرين بأن أمرا ما يعيق من تألق نضجك، وإثراءك معنويا وفكريا، ستستجيبين للنداء الآخر، وستنسحبين تلقائيا تلبية لاملاءات تلك المرحلة دون أن تحتاجي إلى مشورة أحد.

– أعرف أن ما فعلته في خيالاتي كان حراما، وليس من المفروض أن أقم به، وهذا ما توقعت منك أن تنبيهيني عنه، لكنك لا تحرمين ولا تحللين يا عشتار...دائما تتركين الأمر عائما أو معلقا..للزمن.. للظروف.. لهذه الأجهزة التي صارت جزءا مني..

الخراء.. للزفت..لأي شيء آخر..لكس أم هذه الدنيا التافهة.. عشتار أصغي إلي جيدا..ربما هذا الأسلوب ينفع مع الآلهات أمثالك، لكن بنو البشر يحتاجون أن يتعرفوا على الخطوط الحمراء كي تدلهم على الطريق. ويميزوا الأبيض من الأسود، والصواب من الخطأ. لا بد أن تكون هناك مساحات صريحة وواضحة تتحرك فيها كي تسير شؤون الحياة بالأسلوب الصحيح..

ردت عشتار بهدوء :

– هذه هي العاهات التي تصيب الأدمغة وتضيق أبعادها من أثر اجترار الغش الذهني المتوارث.. هل هناك بالفعل ياليلى في هذا العالم ما هو صواب وما هو خطأ؟ أو أبيض أو أسود..؟ أليست كل الأمور نسبية وتقطن في منطقة رمادية؟

غضبت ليلى من هذا فقالت :

أتريدين أن تعلميني أن ما أمرت به كل الأديان ليس صوابا، وما نهت عنه ليس خطأ؟

أجابت عشتار :

– هنا فخ التعميم وهو الخطأ الأكبر، هذا إذا آمنا أنا وأنت بنظرية الصواب والخطأ..ذاك الفخ الذي يتساقط فيه كثير من أصحاب الأذهان السطحية الضحلة. ليلى ..دائما حددي الهدف قبل أن تطلقي سهامك. ما هو صواب بالنسبة لك قد يكون خطأ جسيما في عرف الآخرين والعكس صحيحا. خذي على سبيل المثال مفهوم قدسية المعتقدات، كل ثقافة لها خصوصيتها وممارستها، والكل يتصور بل ويؤمن إيمانا لا يزحزحه شيء انه يسير على الطريق السوي، وأن الآخرين جميعهم وبعمق عقائدهم، ينظر إليهم على أنهم يغرقون حتى العنق في مستنقع الخطأ والرذيلة، فقط لأنهم يختلفون في المنهج والأداء..

أحست ليلى أن عشتار ستسحب البساط من تحت قدميها فأردفت قائلة:

- دعك من ذاك التخريف كله؟ ماذا عن الكذب.. والسرقة... والخيانة وكلَ الإعمال التي يقوم بها الأشرار ضد الضعفاء من قهر وظلم وقتل وتجويع وتهجير وإبادة.

- هناك من يفلسف لك كل حالة على حدة، ويبررها بطريقة وأسلوب مقنع، يحول تلك المسميات النابية إلى مسميات مقبولة. الزمان والمكان وايدلوجية البشر القاطنين في ذاك المكان، ثلاثة أبعاد تحدد ما يُعد أسودا وما يُحسب أبيضا. الاعتقاد بالنسبية هو الأداة التي تحسم للخلق أمورهم.

- ماذا تعني بذلك؟

- أعني مثلا ما أظهرتيه لي الآن من مخزون لغوي باهت! ليلى..تأكدي أن الإنسان مكبل ومحاصر بقصور ذاتي شديد الإحكام. انظري إلى نور الشمس من لا يدري عن ألوان الطيف يؤمن أن الشمس تكتنز لونا واحدا، ومن الصعب أن يتصور غير لك..ماذا عن المادة الجامدة؟ سمَيت جامدة لأن البشر تعجز عن رؤية الكتروناتها وبروتوناتها وحركتها الداخلية، مثل الكرة الأرضية، اعتقد الناس لآلاف السنين أنها مسطحة ولا تدور حول شيء نفسها والشمس، وصفّوا العالم"غاليليو" الذي أثبت عكس ذلك..و..

مرة أخرى تقاطع ليلى حديث عشتار وتقتحم بعزم قائلة:

- توقفي عن ذاك السرد المعتاد واللغة المستهلكة.. ماذا عن الأخلاقيات؟

- الأخلاقيات تحمل نفس التحليل، شرب الخمر مثلا تحرمه جماعات وتحلله أخرى، فعل الزنا جريمة لا تغتفر لدى البعض، والبعض الآخر يعتبره حق غريزي مثل الأكل والشرب ويتعامل معه ببساطة كاحتساء الشاهي وارتشاف القهوة..العري أمره مشابه للزنا

بالذات في بعض التكتلات البدائية، حيث أفرادها لا يرتدون شيئا، بينما في أماكن أخرى لا يظهر شيئا من أجساد الناس..و..

زاد فوران دم ليلى حين أحست أن كل السبل لم توصلها إلى ما تصبو إليه..عادت تجمع نفسها وترتب أفكارها وقالت:

-هل تسمعيني يا عشتار..قلت الأخلاقيات مثل الكذب، لا أتصور أنه لا يوجد إجماع بشري علاوة على عقائدي ..على أن الكذب سمة لا أخلاقية..

- حتى في ذلك الأمر يعتمد على من تكذبين، ولماذا ومن أجل ماذا وعمن تكذبين؟ إذا كان الطرف الذي تمارسين عليه الكذب طاغية، أو عدوا فالكل سيقف في صفك...

- وإذا كان إنسانا طيبا وأنا الطاغية؟

- إذن سيكون السؤال أو التبرير ما الداعي للكذب!

- لأني طاغية ألا يكفي ذلك؟

- لأنك طاغية ستطوعين كل الأسباب لتخدم غرضك وكل من حولك سيبارك لك كذبك ويثنون عليه.

- لكن ذاك لا يبرر أنه صوابا!!

- هو صوابا بالنسبة للطاغية وحاشيته وأعوانه ومن يقف في صفه، وخطأ بالنسبة لي ولك و من يحذو حذونا..

-هل يعني ذلك أنك توجهين دعوة مفتوحة لتخطي الحواجز الرادعة؟

- لا بل دعوة مفتوحة لقراءة الواقع واستيعابه، ومن ثم تفهم الظواهر البشرية للإستدلال على الكونية وخفاياها..وإدراك أنه ليس

هناك حقيقة مطلقة ....

– هذا ليس صحيحا الدين حقيقة مطلقة..

–هل سألت نفسك يا ليلى أي دين فيهم؟ دينك أم الأديان الأخرى التي تنتشر في بقاع الأرض طولا وعرضا؟

بكل ثقة أجابت ليلى:

– ديني بالطبع، لأنه شامل وختمت به مسيرة الأديان.

– ليلى..ألا يحمل الكل نفس الإيمان والقناعة عن دينه؟ حتى الأديان التي يرجع عمرها لآلاف السنين، يؤمنون أن دينهم آخر الأديان وأجلّها، وأنهم يملكون وحدهم دين الحق، لذلك لا أحد يعترف بمن يأتي بعده. ليلى الدين علاقة خاصة بين الإنسان ونفسه، لا يحتمل أي مزايدات، وليس مهما إن كان الأول أو الأخير طالما هو يناسب المرء ولا يدفعه إلى نبذ وقهر من يختلف معه، لأن الدين في نهاية الأمر هدفه محبة وألفة. فهو قناعة تنبع من الداخل لا أحد يستطيع أن يجبرك على الاعتقاد به، ولا أن يمنعك من اعتناقه وعدم التمسك بأركانه، مهما كانت الدوافع، وكل من حاول ذلك فقد فشل. لذلك لازال كثير من الناس متمسكين بمعتقداتهم التي ورثوها أبا عن جد ورفض المنهجيات الأخرى المستجدة على الساحة، والتجارب تملأ صفحات التاريخ، وجميعها شواهد على ذلك.

بإصرار شرس عقبت ليلى :

– عشتار..لا تشوشيني أرجوك. أنا مؤمنة بأهمية الدين في حياة البشر، لأنه لو آمنا بنهجك هذا..سيعيش الناس في عالم من الفوضى تسوده الجريمة ويحكمه الأشرار... ما الذي سيوقف زحف الروح الشريرة في الإنسان؟ الدين والأخلاقيات والقيم أساسيات المجتمع

الحديث، بدونهم سنعود إلى عالم الغاب..

– ليلى أنتم في عالم الغاب..هذا ما هو حاصل الآن ..وإن بدا عكس ذلك..تحتاجين أن تتمعني فيه جيدا وستري انه بالرغم من انتشار المواثيق والأديان وتعمقها في النفوس إلا أن أكثر من نصف العالم تسيره الأيدي الشريرة، لا الخيّرة لأن الطيبين منكم تنحوا عن الساحة بطواعية.

– لماذا الأخيار تركونا بين الأيدي الملطخة بدماء الشرفاء لأن نزعتهم الدينية ضعيفة ؟

– لا..الشرفاء عزفوا عن السلطة، لأنهم فضلوا العكوف في الداخل، وجدوا أن ذلك هو الهدف الاسمى. تناموا ونضجوا من الثراء النابع منهم لا الذي تفرزه مقتنيات الدنيا.

– لكن ما الفائدة من ذلك عموم الناس لم يتحسن حالهم. لهذا نحن نحتاج إلى الدين والأخلاقيات لنرجع للعالم ركائزه ولنعيد إدارته في أيدي الناس السويين..

– حلم الإنسانية يا ليلى أن تصبح السلطة في أيدي البشر لا بين مخالب ضواريها..لكن بما أن الإنسان بالفطرة ليس مهذبا وليس مجرما في الوقت عينه..فالدين والأخلاقيات والقيم أمور ربما يحتاجها بعض الناس وقد تؤثر في حياتهم، لكنها لم تنجح في تهذيبهم جميعا كما القانون..

أجابت ليلى بنفي متقن..

– القانون وحده، مستحيل؟

– ليس مستحيلا. القانون الشامل والقائم على أسس العدالة

والحرية والمساواة، هو الصولجان الذهبي الذي يستطيع أن يُنظم حياة الإنسان، ويحفظ حقوق الجميع طوال الأربعة والعشرين ساعة وحدث في بلدان عدة.. الناس دائما في حاجة للسنن الرسمية ، لذلك ساعة ما تغفل عين القانون أو تغيب ولو لوهلة، عاد مجمل الناس إلى سلوكياتهم غير اللائقة فسطوا ونهبوا وقنصوا بعضهم بعضا..جرى ذلك حتى في المجتمعات الأكثر تحضرا وتمدنا.. لكن الأمر الأهم والذي يأتي قبل القوانين جميعها، هو ترويض الذات لأهداف إنسانية بحتة، ليس من أجل نيل مكافآت مغرية! سواء في هذا الزمن أو بناء أمل على تحصيلها في الزمن الآخر...

– وكيف السبيل لإنشاء ذوات تعتنق أهداف إنسانية؟

– أساس الترويض الذات إشعار الإنسان بقيمته وتقدير آدميته وبهذا ينمو على شعور أنساني وهو أن لا يؤذي الآخرين من حوله سواء روحيا أو نفسيا أو جسديا..

– لكنك تقولين أن الأمور نسبية...حتى الإيذاء في هذه الحالة سيكون نسبيا أيضا...

– هنا مربط الفرس إن جاز القول..فجوهر القضية الإنسانية هو إذا كان هناك أمر لا تقبلينه لنفسك ولا يقبله الآخر على نفسه فأنه أمر مؤذي دون أدنى شك..

– أليس هذا ما تدعو إليه جميع الأديان؟ "حب لأخيك ما تحب لنفسك!"

– لا ..يختلف قليلا! دعي أخيك يختار ما يحبه لنفسه، وأنت اختاري ما تحبيه لنفسك، دون تجريح أو إدانة لأحد، ودون أن يخدش أي منكما مشاعر الآخر. ومهم جدا في كل الأحوال أن لا يرتدي أي

أحد كان كساء الأوصياء المقدس ليحدد للبشر مساراتهم ونهجهم ومصائرهم. كل مصيره في يده. إذا تحقق ذلك يا ليلى ستأخذ الحرية الشخصية مكانتها ويتجلى دورها، وستسود الأرض الإنسانية العادلة. "ومن يمارس حقه في العيش بمسؤولية ووعي لا يسيء لأحد.."

– يبدو أنك دبلوماسية من الدرجة الأولى...

– هذه سمة لا تمت لي أبدا بصلة لا من قريب ولا من بعيد..

– ربما ..لكنك دائما تجدين توضيحا لأي سؤال دون أن تضطري إلى الإجابة عليه..عموما أنا متعبة الآن..هل سأراك غدا؟

– إذا وددتِ ذلك..

– آه..تذكرت أنا التي أمتلك القرار...

وغابت عشتار وظلت ليلى تنتظر على أحر من اللظى أن يأتي أحد ليقلب إلى الجهة الأخرى جسمها الخامل المتقرح...

اللقـــاء السابع

الأحلام كالنجوم الشامخة لا يحسن فك طلاسمها من ابتُلي بذهن مرتبك

خوف سافر تلبس روح ليلى فنادت :

– عشتار...عشتار....أين أنت مني؟

– أنا بجوارك يا ليلى..

التقطت أنفاسها وقالت

– عشـــتار..اشـــعر الـــيوم بحســـرة العاجزين وضيق الفقراء والمساكين..

– لماذا؟

– سمعت هذا الصباح من الطبيب "سميث" المشرف على حالتي وهو يتحدث إلى أخي إبراهيم عني، ويقول أنهم لا يدرون إلى متى

سأظل أصارع سكرات هذه الغيبوبة..يبدو أنها ستطول لأن استجاباتي للأدوية لم تتقدم بالوتيرة المتوخاة..

– هل ذكر طبيبك السبب؟

– لم يذكر سببا واحدا..بل عدة أسباب أهمها على حد قوله الحالة النفسية..

– هل أنت مؤمنة بقوله ذاك؟

– نعم، لكن لا أدري كيف أستدل على الطريق؟ أخبريني يا عشتار ما هو معنى حياة امرأة مثلي لا تمتلك حتى جسدها؟

– ليلى المعنى كبير..هذا إذا استطعت أن تروضي ما بداخلك على أن تعيشي بأبعاد مختلفة..أفقية وعمودية ..وباتجاهات لا متناهية..وأن تجوبي آلاف السنين..وتسافري بلايين الأميال.. وتستشفي الذات من خلال ملايين البشر. دون أن تغادري حيطان هذه الغرفة. حينها الحياة تصبح بالنسبة لك لغز سهل..تتهاوى قطعه بين أناملك..لتتجسد أمام ناظريك بلغة تجيدي فهم عباراتها، وتحسني قراءتها. فتصغي لها لتقص عليك حكاية خارطتك الوراثية، وتحل لك معادلة "الدي إن آي" المعقدة، وتفك رموز تاريخك الممتد..

– عشتار ما كل هذا ..؟؟؟ أرجوك حدثيني بلغة أفهمها ..كيف أروض هذه النفس السقيمة؟

– ابدأي بالكف عن تصنيفها بالسقيمة ..قولا وفعلا..

– ليس هناك أسهل من الكلام ..

– أيضا توقفي عن البحث عن مبررات سمجة للحالة التي أنت فيها.."فمن يجد نفسه في حفرة عميقة، من الأجدر به أن يتوقف عن

الحفر"..احلمي بالغد..فالأحلام كالنجوم يزعجها الذهن المرتبك..فحين تقرأيها لا تتهجيها بتلعثم..التهميها بنهم..واجعلي بريقها أبجدية هدفك الأكبر..احزني بفرح..وإن شاء لك الزمن أن تتهاوي ..حلقي أثناء السقوط واستمتعي به.. ولا تترددي أن تموتي مرات ومرات بشغف..طالما ذاك سيدلك إلى ملامسة تجليات السمو العليا..

– عشتار عدت لكلامك المبهم..أنا أجد لغتك صعبة ومشتتة، لكن لا تدرين كم هي تريحني حتى عباراتك التي أحيانا كثيرة أعجز عن استيعابها فهي محببة بالنسبة لي ..لأني أشعر إنها تزيح عن كاهلي عبء سنين آتية..

– ما ذكرتيه جزء بسيط من الأسباب التي أرافقك من أجلها..

– عموما يا رفيقة، أنا ما زلت إلى الآن لا أعرف لماذا وجدت على هذه الأرض، هل لأعيش على هذه الشاكلة أقرب للموت من الحياة؟ بل لماذا وجد كل الفقراء والناس المنسيون؟ هل ليصبحوا حطبا يحترق ..وولائم تؤكل على موائد الأثرياء اللئام؟

– وجدوا أم لم يوجدوا لن يغير من الحال شيئا...لا تضيعي طاقاتك بين التفاصيل الصغيرة انظري إلى الصورة كاملة...ماذا تعني أنت و ملايين أمثالك لهذا الكوكب الذي يدور في فلك سرمدي غير متناهي الأطراف؟؟

– لا شيء، لكني أعني شيئا لمن حولي ..وإن كان شيئا ضئيلا بسبب حالتي المتردية..

– لم أقصد أن أحبطك بتلك العبارات،بل لأعلمك أن كثيرا من البشر من يهدر جهوده ويضيع حياته القصيرة، ويستهلك طاقاتها

المهمــة في أمور ميكروسكوبية تافهة، ويغفل عن الصورة الكبرى والتي هي الأهم لهم.

– مثل ماذا؟

– مــثل النحيب النفسي الذي تلوكينه الآن ونمط التفكير اليائس الذي يحجب عنك كل فرص الحياة. إنك مثل الأمم التي تُشن حملات وحروبا ضارية وتنهك نفسها وتستنزف حتى العنق من أجل تفاهات كســلطة أو عــرف، أو حــدود، أو عقيدة أو غيرها..وينسون أنهم وأعدائهــم معرضـــون في أية لحظة إلى الانقراض والفناء، لأنهم يــبحرون جمــيعا في قارب واحد رهيف البنية. يمخر بارتباك في فضاء سحيق، وقد يغرق بهم في أي وقت إذا ما أصابه أي مكروه أو إذا اختلت موازينه، فيتلاشى هو وكل أحياؤه في لمح البصر...

– لــم أستوعبك هذه المرة يا عزيزتي..ما تحكين عنه هو نهاية الحياة، هو يوم القيامة وهذا لا يعلم بحدوثه سوى الخالق..فلن أدعك تهيميــن بــي فــي تلك المساحات التي تربيت أن لا أقربها..أنا لن أجــاريكِ فــيما ســتذهبين إليه. عالمي مستقر والناس على أرضي مدركــون ومتيقــنون مما هم فيه. جميع الأسئلة تمت الإجابة عليها لذلك كلنا نعيش حياة ذهنية هادئة..

– إذا يا ليلى سأشرح مثالا قد يعرّي لك الفكرة وهو من واقعك اليومي. مثلا هل يجب أن يلتزم الناس بواجباتهم العقائدية أم لا!! في بعــض الثقافات ذاك الأمر ليس همَّ احد سوى من أراد ذلك. أم عند من تعتقدين أنهم يعيشون حياة ذهنية هادئة هي أم القضايا بل مصيبة عظمى، تحتاج إلى حملات من المتخصصين لمتابعتها، والبت فيها، والبحث عن حلول لها، وأحيانا تضرم حملات شرسة، كي يُعاد دس

أهميــتها في النفوس وبشتى سبل الترغيب والترهيب ..مع أنها أمور شخصية بحتة...

– عشــتار..لــم أعهــد فيك من قبل السخرية والتهكم... كنت أتصور أن الآلهات يترفعن عن ذلك..أم أنك لست بآلهة؟

– هذا الأمر يعود إليك أنت..تصرفتِ مثل بعض الكتل البشرية التي عاشت في موطنك قبل قرون، حيث كان أفرادها يصنعون من الــتمر آلهة لأنفسهم ليتعبدوها وإذا شعروا يوما بملل منها أو بجوع الــتهموها. ليلى أنت من اختار لي أن أكون على هيئة أنثى.. وأنت مــن ألبســتني كســاء الإلوهــية..وكرمتينــي باسم عشتار عاشقة تمــوز...وبالمناســبة لم يكن هدفي أبدا من ذاك الطرح السخرية ، لكننــي عرضته أمامك كي تفقهيه، وهو واقع حدث وما زال يحدث كل ساعة...

– عمومــا كنــت تتحدثين عن النسبية وهنا تنطبق تماما...تلك الأمــور بالنسبة لبعض البشر على درجة عالية من الأهمية وتستحق الوقت والجهد الذي يُـصـرف فيها...

– هذا صحيح، لكنه فيه إيذاء للبعض الذي لا يراها كذلك، لأن ذاك النهج يتضارب بعنف ووحشية مع الحرية الشخصية التي تحدثنا عــنها سابقا، كما يتسبب أحيانا في تصفية البعض أو سحق ذواتهم.. أيضا يظل السؤال الملح يحوم حول الرؤوس..هل الزمن اليوم مازال يسير بنفس وتيرة ذاك العهد الذي تلقى فيه الناس تلك التفاصيل؟

– بالطبع لا ..

– بالضــبط هــذا مــا أُسميه بالصورة الأكبر التي تحتاجي أن تــنظري إليها من جميع الجهات وتشعري بكل أبعادها. اليوم صار

إحساس الإنسان بعقارب الساعة باهتا، وكأن مجموع ساعات الليل والنهار أقل بكثير من أربع وعشرين ساعة. أنت مثلا في حاجة إلى أن تطرقي باب عمر آخر كي تمدك بطاقة متجددة تساعدك على الاستمرارية، قبل أن يدفعك القلق إلى دهاليز ما يليق وما لا يليق، وما يجيزه العرف أو ينهي عنه، فتفاصيل الآخرين لا تعنيك بشيء في هذه الحقبة الزمنية من حياتك.. كذلك بقية البشر كل له أسبابه ودوافعه بما يلتزم ولماذا يلتزم.. نمط الحياة صار يفرضه تعددية وأهواء واختيارات الأشخاص أنفسهم ، وقصر الحياة بات يقصر كل يوم ومن الأفضل أن يُصرف في أمور ترقى بالبشر وتقلل من اغترابهم ومعاناتهم في هذه الدنيا...

– نعم أنا احتاج لمن يزيل معاناتي و يخفف من وطأها علي. لماذا لا تعينيني يا عشتار؟

– هذه مهمتك أنت أن تبحثي عن حلول حقيقية وفاعلة لصعوباتك. بيدك الأداة لنحت عالمك الخاص وصياغة تحفة تاريخية براقة منه. بالمناسبة من هم الذين أطلقت عليهم المنسيين؟ ومن نسيهم؟ ولماذا هم حطب؟ بل لماذا اختاروا أن يكونوا منسيين..ويكونوا ولائم على موائد الأثرياء كما زعمتِ؟

– ماذا تعني بأداة نحت؟ وأين عالمي من تحفة براقة؟ لم أفهم..لم أدرك شيئا مما قلتيه أريد منك توضيحا أكثر لاحقا ..عموما ما عنيته بالمنسيين هم المحرومون من الأحلام و لذتها...

– ليلى المعدمون والمحرومون إن كانوا في كامل قواهم الجسدية والعقلية فهذا يعني أنهم اختاروا أن يكونوا في تلك الحالة المزرية .. فهم يكتنزون ذوات تفرز في داخلهم يوميا أنزيما

خاصا خانق لنفوسهم الحالمة.. ويأتي بنكهات مختلفة..مرة بالقدر.. وأخرى بالحظ أو الرزق المحتوم.. وثالثة بالنصيب..ورابعة بالنحس..وغيرها..

تطاير الغضب من نبرات ليلى فقالت:

– توقفي عشتار! هذا غير صحيح أبدا..أنا لم أختر الوضع الميت الذي أصارعه الآن..

– ليلى اخترتيه بكفك عن الإلحاح على أخيك إبراهيم ليعدل عن رأيه، ويقلل من سرعته الجنونية، وبإهمالك لوضع حزام الأمان، لماذا إبراهيم كانت إصابته أقل ضررا منك؟ ولم يحتج أن يكون طريح الفراش مثلك. أنت يا ليلى فضلتِ آنذاك أن تهيمي مع نفسك بسلبية، بعيدا عما يجري بدلا من مواصلَة إصرارك واهتمامك بما يحدث حولك..

زادت حنقا فعقبت..

– عشتار كان الحادث مقدرا وليس لي يداً فيه..أرجوك كفى عن هذه الثرثرة العقيمة ..يبدو أنك ابتليت بما أسميتيه بالغش الذهني المتوارث.. أنت تعرفين أنه "ما بأيدينا خلقنا تعساء" صدقيني يا عشتار الجائع لم يختر جوعه، والمقهور لم يختر قهره، والمريض لم يختر سقمه، واليتيم لم يختر يتمه، والمغترب لم يختر غربته، والسجين لم يختر معتقله، والعليل لم يختر احتضاره. أتريدين أن أسرد عليكِ كل مآسينا نحن البشر؟ اسمعيني جيدا، يا عشتار هناك ظروف تحكمنا نحن بني البشر أنتم الآلهات والآلهة تجهلونها..لأنكم لا تحسون بالنفس الإنسانية وانكساراتها وتصدعاتها وضعفها، فأنتم لم تشعروا يوما بألم الظلم، ولا بمرارة الخيبة، ولا بحسرة الفقر، ولا

بحـــزن الفشـــل، ولا بوجع المرض، ولا بصقيع الغربة، ولا بغبن الضـــيم، ولا بفاقة الحرمان، ولا بحرقة الشلل والعجز، ولا بوحشة الاحتضـــار..هذا عدا عن مشاعر الكآبة والبؤس والتعاسة، وكل تلك القائمـــة القاتمة من الأحاسيس التي تداهمنا بين الحين والحين.. كيف تقوليـــن أنـــنا نختار ما يجري لنا وكأن القدر وَهم وليس واقعا حقيقيا! وان كـــان وهمـــا فأنتم من عششتوه في أدمغتنا.. وأنتم من يسيّر كل صـــغيرة وكبيرة في هذا الكون وفي حياة البشر..انتم من أوجد ذاك القـــدر ذو القبضـــة الفولاذيـــة وسـلّطه على أعناقنا كي يتحكم في توجهاتـــنا، ويصيغ أحلامنا ويسيّر خُطانا.. ثم في النهاية تأتون إلينا مـــن علـــى عروشـــكم وتحاسبونا ببرود على كل صغيرة وكبيرة، وتدينونا أن تمردنا عليكم ولم نجنِ ودكم، وتكرموننا إذا صُرنا عبيدا معتكفيـــن وراضـــخين لكم، وتعفون عن خطايانا إذا أصبحنا رهن إشـــارتكم. نحن في الحقيقة كاللعب المسلية بين أيديكم. تُصهرونا في النار ولهيبها إذا غضبتم منا، أو تمتعوننا بالجنة وملذاتها إذا رضيتم عـــنا..أليست هذه طريقة تعاملكم معنا؟ أجيبيني ..عشتار.. عشتار.. مـــا بـــك صمتَي .. أتسمعينني؟...ما بك..؟؟ لماذا أنت راحلة بهذه السرعة؟ ألن تكملي الحديث؟..عشتار..عشتار..

القـــدر

الليلة الأولى

إحدى أهم اختراعات الإنسان في العصر الحديث هي الآلة، بينما في العصور القديمة هو القدر، الإثنان يعدان حتى اللحظة من أفضل مقومات الحياة المريحة

أحسنت ظنك بالأيام اذ حَسِنت   ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها   وعند صفو الليالي يحدث الكدر

صمتت والدة ليلى قليلا..ثم قالت :

– سأكمل قراءة قصة شهرزاد فيما بعد ..هيا يا ليلى اذهبي إلى إخوانك وأعلميهم أن الغداء جاهز ..

– إنشاء الله يمه

نهضت ليلى من جانب والدتها التي كانت تجلس على حصير منسوج من سعف النخيل وبيدها إحدى سلسلة ألف ليلة وليلة وبقيتها في حضنها..

خرجت ليلى من الغرفة لتنادي على إخوتها وهي تشعر بضيق لأن والدتها لم تكمل الحكاية..لكنها كالعادة لم تبد أي تذمر.. فهي لم تتخل قط عن سمتها كابنة مطيعة صامتة تلك الصفة التي جعلتها محببة لدى جميع أفراد عائلتها...

والدة ليلى عودت ابنتها أن تقرأ لها بين الحين والآخر من كتبها، وتركز على سكب المواعظ والحكم في ذهن ابنتها، مثل العفة والصدق والزهد في الحياة وملذاتها.. وتذكرها دائما بمناسبة أو بدون بأن الدنيا دار فناء وأن الآخرة هي المأوى الحقيقي الذي يجب أن تسعى إليه...

فجأة عادت ليلى من عالمها إلى غرفة المرض فتمتمت بغضب قائلة..

– آه سُحقا..لقد أطفأت هذه الممرضة الغبية الأنوار ورحلت..من أخبرها بأني أريد أن أغط في النوم الآن. لا يوجد أحد في سجن المرضى هذا من يُحسن قراءة العيون. فعلا هذا ما أسمته عشتار بالقصور الذاتي القميء الذي يعيق الإنسان عن فهم الأشياء من حوله..إعتاد هؤلاء البشر على سماع الكلمات وقراءتها ورسمها بالإشارات والرموز، حتى صاروا عاجزين تماما عن التواصل عبر القنوات الأخرى التي كان الإنسان البدائي يستخدمها..مع أنه كثير ما

تمتلك العيون لغة صامتة أبلغ من جميع الحناجر المكتظة بالأصوات.. لكن للأسف لغة مجهولة تماما بين هؤلاء الأميين البلهاء..أتذكر في صغري إني كنت أتفهم لغة الأغنام والدجاج اللاتي كانت والدتي تربيهم في زريبة منزلنا. كنت أعرف متى تجوع، ومتى تريد التودد، ومتى ترغب في اللعب. والدتي أولت لي مهمة إطعام البهائم والاهتمام بالدواجن منذ الصغر. ربما لأنها كانت تعرف أني استطيع التواصل معها. كانت سعادتي بحجم الدنيا حين خصصت لي أمي ماعزا صغيرة شهلة ملك لي. لقبتها آنذاك باسم "حلوم". كانت تدر حليبا كلما حلبتها والدتي. حيث كانت تصنع منه اللبن السائل واللبن الزبادي واللبنة. كانت "حلوم" رفيقة محببة، لاعبتها وداعبتها وأطعمتها حتى اشتد عودها وحملت وأنجبت صغارا، ذكورا وإناثاً. آآآآآآه..بودي أن ارجّع عجلة الزمن للوراء، كي أعود بنتاً صغيرة وابدأ بجرد حساباتي من جديد وتصحيحها. لماذا الحياة هي فرصة واحدة فقط وقصيرة جداً ؟

أوه..هل حانَ الصباح؟ غير معقول!! من هذا الرجل؟ ..لماذا لم يشعل الأضواء؟ لماذا يتجه ناحيتي؟ لم أره من قبل؟ ماذا يفعل؟ لماذا يمددني على ظهري؟ ممرض؟ لا ..لا أعتقد..فهو لا يرتدي بياض الأكفان..ثم أن الممرضين لا يأتون بمفردهم لقسم الإناث.. يجب أن يدخلوا بصحبة ممرضة.. اقترب كثيرا..لم أر من قبل هذه السحنة..ما هذا؟ أوه لا..لا..لا ابعد يديك عن ثديي أيها القذر.. أنه كلب مغتصب. لا.. لا تقترب.. لا تقبلني..أني أمقتك..أنفاسك تفوح منها رائحة المكر والمكيدة.. عشتار أين أنت أيتها الآلهة؟.. تعالي

احرقي هذا المارق.. اسحقيه بصاعقة.. إنه ينهش في أثدائي..يقضم حلماتـــي.. يغتصـــب جسدي ويستحلّه دون إرادتي.. لا..ابتعد عني ابتعد يا سافل..أين ذاك الطاقم الطبي الأحمق؟ يا إلهي ..لماذا كلهم اخـــتفوا حين احتجتهم؟..ما هذه الفوضى؟ ..من أين أتى هذا المجرم الحقـــير؟..لا ..لا تـــدس يـــدك تحـــت لباســـي الداخلي يا كلب.. آآآآه..وتقـــول عشتار إننا نختار أقدارنا.. هل لي يد فيما يحصل لي الآن أو ذنـــب؟ تعالـــي أيـــتها الآلهة الموقرة وانظري إلى الحقيقة المُـــرّة..انظـــري إلـــى القـــدر الـــبائس والنصيب التعيس والحظ المـــائل..الذي واقعة أنا فيه..جميع الأقدار السيئة تزاحمت الليلة في دربي كالقطعان الهائجة التي تدهس كل من تصادفه في طريقها.

آه..كل يوم يعبر يتبين لي أن البشر يستندون على حيطان هشّة ويقفـــون علـــى أرض مهشمة بسبب الهاتهم السلبية الصامتة.. وأن الضـــعفاء من الناس لا حظ لهم في هذه الدنيا... تبا لك يا وضيع.. علـــيك اللعـــنة يـــا خنزير..أغرب عني بلا رجعة يا أبن القحبة..يا رذيل..أتمنى لك الموت المرير في كل لحظة..

الليلة الثانية

القهر اليومي في حياة الفرد كماء فاتر على نار هادئة، لابد في لحظة ما أن يصل إلى حالة الغليان

بكت ليلى كثيرا من قهر ذاك الرجل الخبيث الذي يتسلل كل ليلة ويعبـــث بجسدها ويستبيح كل شبر فيه ليرضي غريزته الجنسية..لا تـــدري ماذا تفعل..تمنت أن يكون بيدها أن تنتحر وتخلص من هذا الـــبؤس الـــتي هي فيه..غفت قليلا والحزن ينخر بشدة في عواطفها الغضة ..وإذا بها تسمع صوت والدتها تقرأ لها هذه الأبيات

لو كنت اشرح ما ألقاه من حرق ومن سقام ومن وجد ومن قلق

لم يبق في الأرض قرطاس ولا قلم ولا مداد ولا شيء من الورق

توقفـــت عـــن الكـــلام المباح قبل أن يدركهما الصباح ..بعدها عاودت والدة ليلى قائلة :

– ما رأيك يا ليلى لو توقفنا عند هاذين البيتين من الشعر وأكملنا القصة فيما بعد..

أجابت ليلى بلطفها المعتاد :

– حاضر يا يمه

أقفلت والدة ليلى الكتاب ونهضت وهي توجه سؤالا إلى ابنتها

لـــيلى ..هـــل ســـتذهبين معـــي إلى المستشفى لزيارة إبنة خالك فاطمة..؟؟

أجابت ليلى بألم مفضوح..

– لا يا أمي..لا أريد أن أراها في تلك الحالة مرة أخرى...يبدو لـــي أنها تنازع سكرات الموت بأوجاع شديدة ..هل تعتقدين يا أمي أنها ستعيش؟

ردت والدة ليلى بنبرتها الدينية :

– يــا بنتي الأعمار بيد الله..لا أحد يدري متى سيموت ولا أين سيدفن..عموما لا أتصور ستكون حياة فاطمة مجدية إذا شفيت فسيكون جســدها بالفعل مشوه من شدة الحروق، لكن ربما يرحمها الله ويأخذ روحهـــا، فان ما فعلته فاطمة بنفسها حرام وإثم عظيم... الروح أمانة ..ولا يجـــوز أن يزهق الإنسان روحه بنفسه...فاطمة أحرقت نفسها لتتخلص من عذاب الدنيا، لكن عذاب الآخرة سيكون أشد وأمر بسبب فعلتها تلك..الله يرحم الجميع برحمته..الله يرحم الجميع برحمته..

ثم خيّم وجوم على المكان..فذهبت والدة ليلى لتعد نفسها للخروج تاركـــة لـــيلى في حيرة. وهي تفكر في ابنة خالها فاطمة..تلك الفتاة الصـــغيرة إبـــنة الثانية عشر التي سكبت على جسدها الكيروسين ثم أضرمت النار فيه..لأنها سئمت العيش مع زوج قاس وأب أقسى..

كـــان حمل ليلى ثقيلا جدا وهمها كبيرا، شعرت كأنها في عالم "جوناثـــان ســـويفت" الخرافي ،حيث كان أفراد شعبه المقيدين ذووا الأجســـام الضـــئيلة، ملتزميـــن دينيا بتعليق جرتي ماء ثقيلتين على جانبيهم من الصغر حتى الموت لإرضاء الآلهة، مما جعلهم عاجزين عـــن المشي لمسافات طويلة، وغير قادرين على السير إلى ما وراء

أســـوار بلادهم. ظلوا على ذاك الحال لردح من الزمن، إلى أن غيّر عرفهم أفراد متمردين جسورين، فحطموا أثقالهم وأطلقوا أنفسهم بين السفوح والأودية. لكن هزيمتهم كانت مؤلمة جدا بعد أن اكتشفوا أن ما ينتظرهم خارج بلادهم لا يستحق التمرد والتضحية...فتلك إحدى المآسي التراجيدية الإنسانية التي تقتل التطلع حين تكون التوقعات في دائـــرة الممكـــن بدلا من المستحيل..فالطموحات الصغيرة لا تساهم سوى في قراءة ما يجري اليوم، وماذا يُعد الغد وما هي حسابات ما بعدهما...

الليلة الثالثة

ما حيلة شهرزاد خرساء؟

خــرج الرجل الذي اعتاد على ارتكاب جريمته في حق ليلى دون أن يحــس بأدنى خوف أو مساءلة. ليلى لا تدري كيف يحسب الوقت لصــالحه، فهو دائما يأتي في وقت لا وجود لأي ممرضة من حولها. كأنــه مــن الجن يخرج من الأرض ويلامس ليلى في أماكن حساسة ليطفئ شبقه المحموم ثم يختفي دون أن يراه أو يشعر به أحد.

تتذكر ليلى ما كانت تقرأه لها والدتها وتبكي أكثر وأكثر..

وقـــــد بلغــت بحيـــلتي ما ليس يبــلغ السيـــوف

ثــم انثــنيــت بمغــــــــنم حلـــو المجابي والقطـــوف

".. قالــت (ابــنة الملك المخلوع) أنا أخاف من العفاريت فاخلع الخــاتم وارمــه بعــيدا عني.. فخلع الوزير (الذي سرق المُلك من والدهــا) خاتمه ووضعه على المخدة، ودنا منها فرفسته برجلها في قلــبه، فانقلــب علـــى قفاه مغشيا عليه، وزعقت على أتباعها فاتوها بســرعة فقالت: امسكوه! فقبضت عليه أربعون جارية وعجلت بأخذ الخاتم من فوق المخدة ودعكته وإذا بأبي السعادات أقبل يقول : لبيك يــا ســيدتي! فقالت احمل هذا الكافر وضعه في السجن وثقل قيوده. فأخذه وسجنه...)

كان يدور في مخيلة ليلى سؤال محير فوجدت أن تطرحه على والدتها في الحال قبل أن تسرد بقية القصة فقالت لها

- يـــا يمـــه ..لماذا دائما الناس البسطاء في حاجة إلى معجزة لتخرجهم من دهاليز القهر والظلم؟

تعجبت والدة ليلى من سؤال ابنتها..فأجابتها :

- يـــا بنتـــي ..هذه مجرد قصص مؤلفة..أي ليست حقيقة..كلها خـــرافات وبدع ..فالظلم لا يزيله عن الناس أحد سوى الله..لأنه في الواقـــع حيـــن يقع قهر على أناس مؤمنين وصالحين، فإن الله يدلهم ويعيـــنهم علـــى الطـــريق لكي يرفعوا الظلم عن أنفسهم. ..قال الله سبحانه وتعالى "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"

تتساءل ليلى ..ما الذي يجب أن تغير في نفسها لكي توقف ذاك الــرجل الحقير عن اضطهادها... كيف تخرج من دوامة الفشل هذه من أجل أن تصد عن نفسها لكمات الدنيا وطعناتها..ليس لديها سبيل أو وســيلة للخلاص مما هي فيه..لا أعضاء تتحرك كي ترفس ذاك الــرجل الوقـــح في قلبه، ولا تمتلك لسان ينطق كي تلهيه بمعسول الكـــلام وحلوه..ترى ماذا كانت ستفعل شهرزاد لو كانت خرساء؟ ما هـــي الحيلة التي ستلجأ إليها لتنقذ نفسها من ذاك الموت المحقق؟؟؟ لكن لابد لكل فرعون موسى يكسّر جبورته وتعذبه يوما ما .

الليلة الرابعة

في اليوم الذي يتوقف كل ضعفاء العالم عن اجترار ذلهم، ستنهار فيه جميع صروح جبابرة الأرض و تتحول إلى أتربة متطايرة تبتلعها طيات الزمن بسهولة

ظلّت ليلى تعاني كثيرا مما يحدث كل ليلة لها وعالم المستشفى في غفلة عن صراعاتها. لا تدري إلى متى ستبقى تتجرع هذا التهتك والإجرام من ذاك المخلوق العديم الإنسانية..فجأة فتحت عينيها وإذا به في غرفتها لليلة الرابعة يأتي ليعبث بمقدساتها ويستمني ويتلذذ باللهو بجسدها الممدد الفتي.. هاهو أتى مرة أخرى يمشي تجاهها..تذمرت ليلى بحنق وهي تغمغم مع نفسها الغاضبة..

– أوف يا الهي.. ها هو إبن الكلب يعود للمرة الرابعة، ولم يعرف أحد بعد عن جرائمه الليلية التي يرتكبها في حقي.. يبدو أن عشتار تخلّت عني سأبقى وحدي في هذه المعركة..ماذا أفعل ..؟؟لا أقوى على عمل شيء، جسد مشلول تماما عن الحركة، ولسان عاجز عن النطق.. يا للقرف .. يبدو هذه المرة أنه سيخرج قضيبه العفن..أتمنى أن أقطعه وأدسه به في فيهه النتن...لا ..لا .. كم أود أن أصرخ بصوت الرعود..واهتز بقوة الزلازل ..وأغضب بشدة البراكين الخامدة حين تثور..وأتناثر بحدة تناثر صخور الكواكب المصطدمة ببعضها البعض..كي أخبر الكون بما فيه عما يجري لي الآن. لا أقوى على تحريك أي وتر في حنجرتي..ولا أي عضو

مني..كف يا حيوان عني اتفو على الرجال من أمثالك يا حثالة مجتمع السقم والخيبة.. آآآه ما الحيلة.. ما الحيلة يا ترى؟ آوه..قضيبه يتمسح هضابي ..لا ..لا تدس أصابعك في فرجي يا سافل.. آه..الله يلعن أبوك وأبو من خلفوك يا خنيث..يا منيوك..انهض عني ..ابتعد ..ابتعد..يا وغد ..كم أكرهك بقدر كرهي لوهن هذا الجسد.. يبدو لي أنه سيحاول أن يدس عضوه في أحشائي.. يجب أن أفعل شيئا.. أي شيء يبعد هذا الشهواني الصعلوك عني..يجب ألا أقبل أن أكون فريسة سهلة لهذا الخراء الآدمي ليلتهمني كل ليلة متى شاء وكيفما شاء. لن أبقى مكتوفة الأيدي. لن أقبل بالقهر بعد الليلة. أنا لست أداة تفريغ لهذا الوغد. يجب أن أوقفه عند حده. يجب أن يعرف هذا السافل أنه اعتدى علي وسينال جزاءه. ترى ما الذي استطيع القيام به في هذه اللحظة؟ كيف افضح هذه الحيوان المحموم؟ ماذا أملك من سلاح كي أشهره في وجهه؟ ليس لي سوى نفَسي الشاحب المتعب .. آها..نعم .. نفَسي..وجدتها..وجدتها أنا أيضا يا أرخميدس! نعم أستطيع أن افعل شيئا واحدا.. شيء واحد فقط.. استطيع أن أخلص جسدي منه..سأدمر هذا النذل المتجبر وأنهيه.. سأكتم أنفاسي المنهكة.. ربما سيقلل ذاك من نبضي فيصيح "بيب" الجهاز عند الممرضات الغبيات اللاتي يجلسن في محطتهن...بالتأكيد سيدق برنة أسرع وأقوى..ولربما يلاحظن ..سأجرب ذلك لعلّ إحدى ذاك الطاقم الأبله الذي يراقب من محطته سير الأجهزة تسمعني..كل ما أريده هو واحدة منهن تهب لإنقاذي من وحش الليل هذا.. خذ هذه الطعنة يا نذل هه... اممممم..

كتمت ليلى نفسها واحتقن الدم في وجهها وبرزا بؤبؤا عينيها حيث تصلبا كالحجر. استمرت ليلى متحكمة بإصرار في شهيقها وزفيرها والرجل مازال يتحسس جسدها النضر، ويحوم بيديه حول ثدييها، ويغمض عينيه ويفتحهما دون أن ينظر في معالم ليلى.فالمتجني يخشى التحديق في عيني ضحيته .

مرَّ قليل من الوقت وإذا بصوت جهاز موصل بليلى بدأ يصيح.. صار يعلو رنينه أكثر.. ليلى بدأت تحس بالاختناق ولم يأتِ احد بعد لانتشالها مما هي فيه..ارتبك الحقير فجأة حين شعر بحمرة وجه ليلى وأحس بعينيها المحدقتين بغضب وجمود.أخرج إصبعه من فرجها حيث كان يصول ويجول به في داخلها.. لملم عضوه الممتد من فتحة البنطلون بسرعة..ورائحة سوائل ليلى تفوح من يده.. احتار ماذا يفعل حين سمع بخطوات شخص ما يدخل الغرفة لم يتردد كثيرا لأن الوقت كان ليس في صالحه صار يمص أصابعه كي لا تفضحه رائحة قذارة الفعل الذي قام به.. ابتعد بحركة سريعة عن ليلى واتجه يتلمس الأشياء الموضوعة على المنضدة بالقرب من السرير. تظاهر بانشغاله في عمل ما. وإذا بشبح ممرضة أبيض.. يقترب منه أكثر فأكثر..نادته :

- لو سمحت..لو سمحت يا هذا

التفت تجاهها بهدوء مفتعل وصوت رصين :

- نعم يا سيدة

بعدها وبلهجة شديدة النبرة انهالت عليه بالأسئلة :

- من أنت؟ وما الذي تفعله هنا..؟ ماذا فعلت للمريضة؟ لماذا دقات قلبها انخفضت؟ كيف دخلت الغرفة دون مرافقة ممرضة؟؟ هيا أجبني..وإلا سأبلغ عنك .

وبأدب أجابها :

- يا سيدتي اسمحي لي..أنا هنا بدل مراقب النظافة الذي هو الآن في إجازة مرضية..أتيت لأحل مكانه إلى أن يعود لعمله..حين جئت ولم أجد ولا ممرضة في محطة الاستقبال كي استأذنها انتظرت قليلا ولم يأتِ أحد بعدها دخلت الغرفة..أنا تصورت أن المريضة نائمة..لا أدري عن دقات قلبها التي هبطت.. ربما فزعت حين اقتربت منها لأتأكد من أن أدواتها كاملة ونظيفة..

تلعثمت قليلا الممرضة حين عرفت أن التقصير كان بسببهن وعدم التزامهن بالجلوس في محطة الاستقبال..لذلك حوّرت الحديث قائلة :

- كيف تعرف الأدوات أن كانت نظيفة دون أن تُشعل النور؟

- لا حاجة لي بإشعال النور يا سيدتي..فالأدوات معلبة بِبلاستيك..لذلك أتحسسها، فإذا بقيت كما هي فهذا يعني أنها لم تستخدم، أما إذا نُزع عنها البلاستيك فمعنى ذلك أنها اسُتعملت ولا بد من استبدالها.. وعادة يا سيدتي في مناوبتي الليلية لا أشعل النور كي لا أزعج المرضى..

- يبدو أنك أخفتها بالفعل..عموما يا سيد.. كي لا تسبب للمرضى أي فزع.. لو سمحت في المرة القادمة يجب أن تُعلم الممرضة المناوبة قبل أن تدخل إلى غرف المريضات...وإذا لم تجد أحدا انتظر حتى يأتي من يسمح لك بالدخول، لأن هذا قانون المستشفى. ممنوع على

الذكــور اقتحام غرف الإناث بمفردهم يجب أن تصاحبهم ممرضة.. أنت في بلد إسلامي وتعرف هذه الأمور جيدا..

– حاضر يا سيدتي..وأنا آسف لما حدث لمريضتك..عموما غدا سيأتي زميلي من إجازته المرضية ليستلم مهامه .

خرج بعضوه المشرئب من تحت سرواله وحرارة الشهوة القذرة تكـاد تسـخن الغـرفة مـن شـدة تفاقمهـا فـي نفســه السقيمة المحمومــة..وأسدلت الستارة ..وطوي الزمن كعادته لفائفه..وغض الطــرف عــن ذاك المجــرم.. كمــا غــض الطــرف عن غيره كثيريــن..وكأن هذه الأرض الصامتة دون رب يرعاها، أو كأنها لم تشــهد أبــدا جــرائم يــندي لها الجبين وتنحني لها الإنسانية إذلالا وخجلا..

اللقـــاء الثامن

تكون أو لا تكن ما هو سوى جزءا هامشيا من المسألة

– ليلى كيف حالك اليوم؟

أجابت ليلى بصوت غاضب ونبرات جافة قائلة :

– عشــتار اغربــي عــن وجهي لو سمحتِ..ارجعي من حيث أتيــتِ، لــم أعــد أطيقك ولا أطيق محادثتك.. بل صرت أمقتك يا مخادعة. وحشتي أحب إليَّ من مرافقتك..حسبتك طوال تلك الشهور انــك رفــيقة وفية، كنت أتصور أني أعني شيئا لك..لكن أتضح لي عكــس ذلــك تماما. اكتشفت إني كنت متوهمة وساذجة.. لقد خنتِ العهــد الــذي بينــنا يا آلهة الحب الذي لا تفقهي منه حرفا واحدا.. وعدتيني أنك ستكونين بجانبي حين أحتاجك..لكنك اختفيت عني في أول لحظة شعرت فيها بشدة ضعفي وعجزي..تبا لكِ من سند..وتبا لكِ من رفيقة..

تلاحقت عشتار الموقف بهدوء قائلة :

– ما زلت يا ليلى على العـــهد..وما زلت أود مرافقتك..

قالت ليلى بصبغة تهكم :

– هــه..علــى العهـــد..إذا أين كنتِ طيلة تلك الليالي الأربعة الماضـــية؟..طلبت حضورك ولكنك لم تستجيبي لندائي..لقد اغتالني القدر ومزق أحشائي وأنت في غفلة عني..لكن لا أعتب عليك أعتب علـــى نفســـي لأنـــي اعتمدت على آلهة مثلك.. اثبتِ أنك مثل باقي الآلهـــات لا تنصرين أحدا ولا تعينيه، وتدَعين الظالم يعيث بالأرض فسادا، يبطش بالضعفاء ويزهق أرواحهم ويفتك بهم ويهلكهم دون أن يحـــرك ذلـــك في داخلك شيئا.. أتمنى أنت وأشكالك من الآلهات أن تغادروا حياتنا، وأن ترفعوا إرادتكم ومشيئتكم عن أعناقنا، وتحرروا من تقديسكم الذي جعل منا عبيدا اذلاء دون قيمة لا يكفون عن نلهم المعلق على رقابهم ليل نهار.. نرجوكم أن تتركونا في حالنا وخذوا جنتكم معكم فنحن لم نحلم بها ولم نطلبها، بل أنتم من تتمنون لنا أن نفـــوز بهـــا لإرضـــاء كبريائكم وعظمتكم.. كي تثبتوا لأنفسكم إننا مخلوقـــاتكم الحقيرة التافهة. أنا أعلن البراء منكم ولن أقبل أبدا بكم كمحاســـبين لـــي علـــى هفواتي في أي زمان وفي أي مكان..لأني اخترت أن لا أنتمي إلى قطيعكم البهيمي الأحمق..

– عدتِ مرة أخرى تحمّلين قلبك الغض هذه الأطنان من السخط والامـــتعاض.. اسمعيني يا ليلى..ما جرى لك وما فعلتيه في الليالي السابقة هو لب المحنة الإنسانية..

أظهرت ليلى اشمئزازها في ردها وقالت :

– بـــدأت تفلســـفين الأمور على هواكِ. ماذا تعني بلب المحنة

الإنسانية يا عرافة.. يا جهينة هذا الزمان؟

واصـــلت عشتار تجاوبها مع ليلى لتوضح لها موقفها مما جرى فقالت :

– أنتِ كنتِ معدمة وضعيفة أكثر من الضعف عينه..استسلمت فـي الليالـــي الـــثلاث الأولى لخرافات عديدة منها أن القوي يهزم الضـــعيف ويلـــتهمه، لا أن القوي يستمد قوته وجبروته من تخاذل الضعيف وجبنه..نسيت " أنه لا يوجد أكثر من الماء ليونة ورقة لكنه الأقـــدر على تفتيت الصلْب" ليلى ..أنت آمنت أن قُوت الضعيف هو الحســـرة والألـــم وأحـــيانا شتم القوي الظالم أو الدعاء عليه بالويل والثـــبور وعظـــائم الأمور، وتمني كل شرور الدنيا والآخرة له.. ثم تمنيـــتِ أن تحدث معجزة لتخفف من وطأة الحدث على نفسك ..من وقـــت إلـــى وقـــت كنت تدقين على تلك الأوتار المتفرقة مثل القدر والنصـــيب والحـــظ وغـــيرهما، التـــي نسجت في ذهنك حالة من الاستسلام والتخاذل..

هدأت ليلى قليلا وأخذت نفسا عميقا يقطر حسرة وقالت :

– نعـــم هذا بالفعل ما حدث..لأن لا حول لي ولا قوة. فقد كنت بـــلا حيلة..لم أجد منفذا للخروج.. ربما لأني لم أستدل عليه آنذاك! لكني استطعت أن أنقذ نفسي منه بدون منتك!

أكملت عشتار الحديث قائلة :

– صحيح، حين عادت ذاتك لذاتها، وأدركتِ أنه بإمكانكِ إحداث تغيير فيما يجري لكِ من ظلم وقهر واستبداد، تحول ضعفكِ إلى قوة، وتـــراجعكِ إلـــى هجـــوم كاسح، وهزائمكِ إلى انتصارات ساحقة،

فتمكنتِ من صد ذاك الجبار المارق ودحضه، والتنعم بعذوبة الفوز المتوج بالثقة..

أردفت ليلى قائلة والحزن يقضمها من جميع الجهات :

– إذا كنتِ تدرين عن كل ما حدث لي ولم تحركي ساكنا..يا لك من قاسية..لماذا لم تفعل شيئا!!؟ لماذا فعلت ذلك بي يا عشتار؟ هل لكي أتعلم درسا منك، أحتاج أن أدفع ذاك الثمن الباهظ في كل مرة؟ وماذا لو أخفقت في فهم كل ذلك، هل كنت سأظل رازحة تحت رحمة ذاك الرجل المتوحش؟

– ربما يا ليلى هذا كله يعود إليك..ولا تنسي أن الزمن كفيل بأشياء كثيرة..

وبنبرة تساؤل قالت ليلى :

– أنت لم تساعديني أبدا في المحنة التي ألمت بي في تلك الليالي العصيبة..والآن هل ستحاكمينه على جريمته الشنعاء ومصادرته لحقي وهتكه لعرضي؟

– هذا ما أود أن تدركيه أيضا يا ليلى أنه ليس لي يد فيما حدث لك.. ولا بما سيحصل لذاك الرجل! الاحتمالات الديناميكية المتغيرة هي التي تسببت وتتسبب في حدوث ما يجري لك ولغيرك..

توترت ليلى بعض الشيء فقالت :

– توقفي..ماذا قلت؟ لست أنت!!! من إذا؟ وماذا تعني بالاحتمالات الديناميكية المتغيرة؟ أرجوك لا أريد أن أسمع نقاشات خرقاء أكثر مما سمعت..

ولتؤكد عشتار ما قالت ردت على ليلى :

– نعم لست أنا..بل الاحتمالات هي المسئولة.. تلك التي تطلقون عليها أنتم الظروف أو المسببات أو المتغيرات..ليلى أنظري إلى هذه الزهور التي بجانبك..تمعني فيها جيدا..تفحصي وجنات وريقاتها وتقاسيمها..هل تجدين واحدة مطابقة للأخرى؟

– بالطبع لا.. ما علاقة هذه الزهور بالظروف والمسببات والمتغيرات والاحتمالات؟

– الظروف أو الاحتمالات مثل وريقات الشجر، وأشكال الزهر، وسحن البشر، وتغيرات الزمن، وكل ما أنجبته الطبيعة في هذا الوجود. فبالرغم من تعددها وتنوعها لا توجد واحدة تطابق الأخرى تماما..ذاك هو قانون الأزل منذ الأزل..

– ما الذي تودين الوصول إليه؟

– تصوري يا ليلى لو أن كل ما وجد نسخة من الموجود كيف ستكون الحياة..لو أن كل الاحتمالات هي نفسها تحدث لك برتابة حركة عقارب الساعة وبنغمتها..هل ستطيري يوما وتحلقي بأهم سؤالين في هذا الوجود السرمدي..وهما كيف ولماذا؟ وتبحثي عن إجابات لتلك الدهشة..ومن ثم تجدي المعنى؟؟

– عشتار لا تسافري بذهني بعيدا دون أن تدعيني أحمل العقلانية معي .. تعالي أفهميني ما السيئ في التمتع بحياة هادئة، مطلية بصبغة حسنة واحدة؟

أجابت عشتار بصوت جاد دافئ :

– يا عزيزتي ليلى إنها المرارة نفسها، والبلادة بعينها، لذلك الطبيعة ترفضها تماما، ولا ترتضيها لأحد.. خذي مثال اللغة لو كان الإنسان ينطق صوتا واحدا فقط، ويتلفظ بحرف واحد هل سيحتاج

فكـــره إلى مساحة يجوب فيه ليتلذذ بالحركة الذهنية المتأججة؟ وهل سـيكون هـــناك جـدوى من كتابة ما يفكر به أو ما يكتبه أو يقرأه؟ الاحـــتمالات ذات الـــروح الديناميكية هي التي أضافت للحياة صبغة زاهـــية لكـــل شيء..فإذا استطعت يا ليلى.. أن تفقهي أن لا التاريخ يعيد نفسه، وأن المسميات والهالات ارث لغش ذهني متداول، وأن ما يجتره العالم يوميا ليس بحقيقة مطلقة، أثناءها ستعين أن الاحتمالات تكتـــنـــز المعـــنى كله، وأن تكوني أو لا تكوني ما هو سوى جزء هامشي من المسألة...

انزعجت ليلى من الحديث فأردفت قائلة :

– اووووووه ..ما كل هذا؟ سكبت علي جليد من الأفكار المعقدة فأنشـــل اســتيعابي وإدراكي..كل هذا لتخلي نفسك من المسؤولية!! أحـــتاج أن افهـــم عباراتك تلك..دعيني أتمعن فيما قلتيه..اتركيني يا عشـــتار..اشـــعر أني في دوامة..لقد فقدت القدرة على رؤية الأشياء بوضـــوح.. وداهمتني حالة ذهول عقيمة..ما هذا الصداع الغريب.. اتركيني الآن أرجوك..أرجوك.. اذهبي بعيدا من هنا..

– حسنا..أراك لاحقا يا ليلى..وأتمنى لك العافية..

صار الضياع النفسي يلتهم ليلى من الداخل. تتأوه وتندب حالها وتصعقها هامتها وتثخنها ضربا بصفعات صداع قاتل تصيح ليلى :

– أوووه .أهـــذه "الكارمـــا" التي يحكي عنها الهندوسيون؟ فعل مشـــين في حيوات ماضية وهذه تبعاته..لكن لماذا أتعذب وأنا لم أؤذِ أحـــدا؟ هل أنت يا ربي نقمة أم نعمة؟ كف يا رب عن مهنة الغياب وكـــن هـــناك كمـــا أخبرونـــي عـــنك..يقـــال أنـــك تسمع المنادي

وتجيـــبه..آه..يـــا لها من حماقة!! من أخاطب؟ ليس هناك أحد..ليت الممرضـــة تشـــعر بضيقتي وبلائي فتعجّلني بمسكنات الألم.. سيفلق رأسي هذا الوجع..وسيكون الليل طويلا وبطيئا بدون تلك العقاقير... أســـعفوني..أسعفوني..بالأدوية المخدرة أرجوكم...أين أنت يا والدتي كـــي تقرئي لي التعويذات وبعض من آيات الذكر الحكيم؟؟ لعلّ ذاك ينفعنـــي ويخمـــد هـــذا الدوي الصاخب في الداخل..يا رب سامحني واغفـــر لي هذه الخطايا..يا رب ابعد عني هذه الأفكار..ابعد عني عشـــتار..أو اجعلها تكف عن إغوائي..أنا أريد أن أكون لك وحدك وان أنـــال رضـــاك..يـــا رب..اغفر لي ذنبي واجعلني من عبادك الصالحين..استغفر الله العظيم..استغفر الله العظيم..

ظلـــت ليلى تتوسل الفراغ وتستجدي دون أن تحس بشيء..أي شـــيء علـــى الإطلاق..مرت ساعات طوال وهي تتلوى في فراشها دون أن يشـــعر بألمهـــا أحـــد، إلى أن حدثت لحظة تحول، وتلاشى صـــداعها شيئا فشيئا فتماثلت للشفاء، ثم انتزعها النوم من تلابيبها، فارا بها إلى دهاليزه الممتدة عبر الزمانات والأمكنة.

بؤس الحريم!

النساء كلما فقدن إحساسهن بسلسلتهن التاريخية النضرة صرن أكثر ضمورا و أسهل إذلالا

هامــت بذهن ليلى كوابيس متلاحقة، صارت تغرس مخالبها في حنايا الفؤاد و تصيبه بالضجر.. عادت للوراء سنوات وسنوات..كأن شـــهرزاد وليست والدتها هذه المرة تحاكيها من بعيد وتعيد لها الأمل مــن جديد، تلك المرأة الفاتنة التي سحرت حاكم جبار ملكَ صولجان الســلطة. كــان أغــنى محروم عرفه التاريخ لأنه كان يفتقر للحلم والرؤيا. شهريار ذاك الحاكم الخرافي لم يكن يرى أي شيء ينتظره فــي الغــد، لذلك اعتاد أن ينهي حياة أي امرأة ترافقه في ليله قبل بزوغ فجر اليوم التالي. شهرزاد امرأة أسطورية أعادت برمجة ذاك الســلطان وخلقت منه إنسانا بحكايات نسجتها من الذاكرة في تخوم ألف ليلة وليلة.

شعرت ليلى بخوف وإذا بها وكأنها في حياة أخرى، فقفزت من السـرير وهي مفزوعة من صراخ وعويل يثقبان حيطان الغرفة من كل الجهات. تلفتت ليلى في أرجاء المكان وهي تكاد تفقد أنفاسها من شـدة الرعب.. بحثت عن ابنة خالتها سلمى فلم تجدها في سريرها. زاد خوفها ..وتساءلت :

– لماذا هذا الصياح ؟ هل هناك أحد ما مات؟؟ ترى هل المتشددان أحمد وحسن تقاتلا؟؟

الذعـر افترس ليلى وهي متجهة إلى خارج الغرفة كمجنونة هاربة مـن بيـن أيدي موظفات مصحة الأمراض النفسية، فتحت الباب بقوة وانطلقت وهي مسرعة تلتهم قدماها الحافيتان عتبات الدرج ..

فـي وقت الأزمات الحادة، عادة تفقد الناس قدراتها العقلية وتبرز مكانها القدرات البدنية، ويبهت إحساسهم بالزمن، فيصبحون من أبرع العدائين، ويحطمون كل الأرقام القياسية ليصلوا إلى المكان المتوجهين إليه، من غير أن يعرفوا كيف ومتى حطت أجسادهم هناك..

حين وصلت ليلى الصالة صرخت بأعلى صوتها وقالت :

– خالتي ..خالتي.. أين أنت ؟ ماذا حدث؟ ماذا حدث؟؟

أتت إليها خالتها مسرعة، وسُمع صفعة باب خلفها، وهي تمسح دموعهـا بسرعة كي لا تلحظها ليلى..ضمت الخالة ابنة أختها بشفقة حتى شعرت ليلى بطقطقة ضلوعها بين أحضانها، ولمتها وتمتمت :

– لا شـيء ..لا شيء..يا حبيبتي ليلى.. هذا مأتم حسيني عند الجيران..لا تفزعي..

لا تـدري كـم مرة أعادت خالتها على مسامعها هذه العبارات، محاولة أن تهدئ من روعها، وتعيد لها سكينتها ..صارت الخالة تقرأ على ليلى التعويذات وآيات قرآنية أخرى..هذا الدواء لكل داء كما يراه الكثير من الناس في الأحياء الفقيرة، لأنهم لا يملكون سواه..

عـادت ضربات قلب ليلى إلى وتيرتها، فشعرت بسخونة أنفاس خالـتها تجتاحها وتسربلها بدفئها وحنانها. بعدها أخبرت الخالة ليلى بـأن جارتها أم محمد تقيم في بيتها عزاء للحسين في كل يوم سبت مـن كل أسبوع.. وهو نذر عليها بعد أن أفرج عن ابنها محمد من اعتقال دام سبع سنوات بتهمة حيازته على صور لجمال عبدالناصر رئيس مصر وأنه تابع للقوميين العرب. وخالة ليلى كانت تتسمع إلى مراسيم العزاء من "تهوية البيت" حديقته الجانبية.

جرت العادة لدى الشيعة أن يقيموا نذورا ويقدموا قرابين حين تُفك أزمتهم، مثل إقامة عزاء أو إخراج مال كصدقات، أو ذبح بهيمة قربة لله. حين يقام عزاء حسيني يجتمع الناس حول منبر المتحدث أو الملاء، ليلقـي علـيهم محاضرة دينية يعلمهم بأصول الدين وفرائضه. يسرد علـيهم سـيرة النبـي محمد وأصحابه وأهل بيته ليتخذوا من حياتهم العبر.في نهاية كل عزاء حسيني يركّز الملا على معركة الطف وكيفية ذبـح حفـيد النبي الحسين وأقربائه وأعوانه، فيبالغ في الوصف فيشتد بكاء وصراخ المستمعين، وأحيانا يؤذون أنفسهم بالضرب بأدوات حادة كي يخففوا آلامهم النفسية المتراكمه، فالمرثيات الحسينية تثير الشجون وتقلب المواجع لكنها مريحة لكثير منهم.

عندما سمعت ليلى نحيب وبكاء النسوة غاب تماما عن ذهنها انه مأتمـا حسينيا، داهمتها التهيؤات والخيالات المرعبة. تصورت أن أحـد أبـناء خالتها قد مات في حادث أو أصابه مكروه.لكنها سعدت حين أخبرتها خالتها أن محمد رفيق طفولتها قد أفرج عنه. كان محمد قـد اتهم جورا بأنه يتعامل مع الأحزاب القومية المنتشرة في سوريا ومصر آنذاك. كان معظم من زجوا في السجون في تلك الأيام أدينوا بتهمة العلمانية ومناهضة السلطة، لأن أي فكر ديمقراطي متحرر في الشرق يُعد جناية يُسجن عليها الشخص لسنين طويلة دون محاكمة.

مـنذ أكـثر مـن سنتين لم تحضر ليلى مأتما حسينيا أو تستمع لمحاضـرات شـيعية، بسبب انفصال والديها ورحيل ليلى مع والدتها وإخوتها عن منطقة الواحة. فبعد تقاعد والد ليلى من شركة الزيت التي كـان يعمل فيها وحصوله على فائض كبير من المال، تزوج من فتاة تدعـى أنيسة، تصغر والدتها بكثير من السنوات. بعدها قررت والدة لـيلى أن تغـادر الواحة مهبط رأسها، وأن ترحل بعيالها إلى منطقة الساحل، تاركة زوجها بسخط، لتبين له مدى رفضها لغدره وظلمه لها. فأخذت معها ما تبقى لها من أبنائها، ليلى وإبراهيم و يوسف.

تشوهت علاقة والدي ليلى ببعضهما البعض، لدرجة إنهما صارا لا يذكـران أي خـير كان بينهما. أراد الأب أن يرد اعتباره وينتقم ممن كانت سندا له في سنين فقره وضعفه، فأسكن الأسرة في منطقة غالبية سكانها من أهل مذهب السنة. المذهب الذي يختلف عن مذهب الشـيعة فـي أمور عدة غير ذات أهمية، لكن كلا الطرفين يصران

التـنازع علـيها، أهمهـا أنهـم لا يقرون بطقوس العزاء **الحسيني** والمناسبات التي يحيونها الشيعة، كانت بالنسبة لوالدة ليلى **متنفس لا** تستطيع أن تتخلى عنه.والد ليلى كان له مآرب أخرى، نكّل **بزوجته** بوضعها في تلك الحارة وانتقم منها، لكي تلاقي صعوبة **في ممارسة** مهنتها كامرأة قارئة في المآتم الحسينية.

بالـرغم من قوة وجبروت والدة ليلى وشخصيتها الفذة، **صارت** كـأي واحـدة لا حول لها ولا قوة، عندما اصطدمت برجل **متعنت.** انـتهى بها الحال كما انتهى بغيرها، فأصبحت "ولية" مسكينة **وبائسة،** وبانــت بأنها لا تساوي شيئا في هذا المجتمع الفحولي الطابع، **حتى لو** أنها شيخة الحارة والجميع يكن لها كل تقدير واحترام.

فـي المجـتمع الذي نشأت فيه ليلى يعتبر فحولة ذكوره رجولة. يسوده الصوت الواحد المتغطرس. يكون الذكر فيه هو الواحد الأوحد صـاحب السـلطة المطلقـة علـى الإناث. يمتلك أجسادهن ويتحكم بأرواحهن وتطلعاتهن. فالواحدة منهن ليس لديها الحق في أن تتخذ أي قـرار إلا بـإذن ذاك الراعي الفحل الذي يلقب بالمحرم. حتى لو كان يخصها وحدها، كأن تجري عملية جراحية في جسدها أي كان سببها، يجـب أن تحصل أولا على موافقة من مالكها. المحرم سمته أن يكون ذكرا، و له صلة قرابة للمرأة مثل الأب، والزوج والأخ وحتى الابن. الأقرب هو الأحق بتسلم صك الملكية والوصاية على شؤونها، كبيرها وصغيرها. يعطيه القانون الحق في أن يكون وصي مطلق عليها حتى لـو كـان أنقص علما وأقل حكمة وأصغر شأنا منها. فلا تتزوج ولا

تعمل ولا تدرس ولا تسافر ولا حتى تخرج من قعر دارها إلا بموافقة رجل.

لـيلى التزمـت الهدوء بعد أن طمأنتها خالتها عن سبب النواح القـادم مـن الجيران. المآتم الحسينية عبارة عن جلسات "ثربي" أو عـلاج نفسـي للتنفيس عما يرزح على القلب ويجوب في الخاطر. المـأتم الحسـيني مكان يتجمع فيه الشيعة من أجل النحيب و ذرف الدموع. هو دعوة للبكاء مفتوحة للجنسين طوال العام.

معظـم النساء الشيعيات اللاتي يرتدن هذه المآتم يكن من أكثر النساء بؤسـا وأقلهـن حظا وأزيدهن فقرا وجهلا. يذهبن ليبكين على مآسيهن ويندبـن حظوظهن من خلال اجترار الفجيعة الكربلائية. خالة ليلى إحدى هـؤلاء النسـاء البائسات. المسكينة لقد زوّجوها رجلا في عمر أبيها وما زالت تتعايش معه على كره مع أنه يعاملها بتسامح وطيبة. لكنهما يظلان في اغتراب متباعدين في عشرتهما، لأن ربيعها يأبى أن يعانق خريفه.

بعـد أن عـادت دمـاء ليلى إلى مجاريها اغتسلت وصلت صلاة الصـبح وقرأت بعض ما تيسر لها من القرآن، أثناء ذلك حضّرت لها خالتها إفطارا شهيا من خبز الواحة الأحمر "خبز أسمر معد بدبس التمر والقمح" ذا رائحة شهية، وبيض بلدي مع كوب من الشاهي القاتم.

التهمـت ليلى الأكل بشراهة، كأنها لم تذق طعاما منذ مدة. فهي كـل مـرة بعد أن تنتهي من طقوسها الصباحية، ينتابها هذا الجوع الشديد، ربما بسبب عزفها الليلي المنفرد الذي أدمنته مؤخراً، والذي

مازالت تقرف من حاجتها له مثل كل المدمنين.

أعدت الخالة "أم علي" نفسها للخروج لزيارة جارتها "أم سعود"، وسـلمت مفـتاح بيت الحي القديم الذي قطعت ليلى مشوار ساعتين بالسيارة لكي تلقي عليه نظراتها الأخيرة قبل أن تهاجر وتضم نفسها لأخيها نور في بلاد الغربة.أخذت ليلى المفتاح وأخبرتها خالتها بأنه بإمكانها زيارة البيت في أي وقت تود، ثم رحلت "أم علي" وهي تجر عبء عباءتها باستسلام ومهانة..

"أم علي" لقب لخالة ليلى. نالت عليه بعد أن أنجبت بكرها علي. فهـي مثل كل نساء هذا البلد تحتفظ باسمها بعد الزواج في الأوراق الرسـمية، أمـا بيـن الناس فهي أما زوجة فلان أو أم فلان، لأنهم يعـتقدون أن المرأة واسمها عورة. فالأنثى في عقيدتهم سببا للفتنة. والمعني بالفتنة هي إثارة غريزة الجنس لدى الذكور. لذا حتى اسمها يوارى بألقاب ذكورية. كون الأنثى عورة وفتنة، سمتان تلتصقان بها مـن المهد إلى اللحد. بهما ومنهما نسجت كل أغلال المرأة و قيودها التي حجبتها عن ممارسة الحياة كإنسان طبيعي..

بدرية

العقل المتبصر نعمة لكن مرات يكون فقدانه نعمة أكبر

اختلـــت ليلى بنفسها في البيت، حيث سلمى ذهبت إلى المدرسة وإخوتها في أشغالهم. أما أحمد وحسن فقد عادا إلى الجامعة. أنهت لـــيلى أمورهـــا بســـرعة واتشـــحت بالســـواد لكي تتأهب لمغادرة المنزل..وإذا بها تسمع أحدا يتسلل من الباب الخارجي. للوهلة الأولى اعتقدت أنها خالتها قد عادت لربما تذكرت شيئا ما تود أخبارها عنه. تقدمت بحذر للتأكد من شخصية المقتحم لحرمة البيت وفجأة داهمتها امـــرأة مكتظة البدن يكاد وجهها يتمزق من شدة السمنة. رثة الثياب، منكوشـــة الشـــعر، ينفـــث جســـدها رائحة نتنة..اقتربت منها ليلى وتفحصـــتها جيدا فتعرفت على ملامحها أنها بدرية "المجنونة"..فتاة فقـــيرة مـــتخلفة عقليا في أوائل العشرينات من عمرها. تقطعت بها الســـبل فصارت تقتات على فضلات الطعام والصدقات. اختفت عدة مرات عن الحي، يقال أنها تُغتصب من قبل مجموعة من الرجال ثم

يلقون بها في الأماكن الخربة وبعدها تُنقل إلى المستشفى! لم يُعرف بعد هوية هؤلاء المغتصبين، قد يكونوا من الحارة أومن خارجها لأن بدرية امرأة بلا مأوى ولا حدود، تتنقل بين الطرقات وتجوب الأزقة بحثا عن لقمة العيش والكساء!

تنظر إليها ليلى وتتعجب من البؤس الذي تكابده تلك المعتوهة..تستغرب كيف أن "الانتقاء الطبيعي" اختار لها أن تعيش هذه الحياة القذرة! هذا ما يزعمه "دارون" في نظريته العظيمة أن البقاء للأصلح! إن الطبيعة تختار بدقة من يصلح للعيش والتكاثر فيها عبر أجيال منقحة. وماذا عن امرأة مثل بدرية ما دور الانتقاء الطبيعي في بقائها ؟ إن من سنّ هذا لبدرية ليس الانتقاء الطبيعي ولا حتى القدر بل هو الاختلاف الطبيعي! الاختلاف صاغ قانونا يسيّر به هذا الكون الديناميكي بلا توقف. التنوع والاختلاف هما المساران اللذان يحددان الوجود وتوجهاته بعشوائية مطلقة ودائمة. الكل لكل الاحتمالات! لا يوجد كائن أو غير كائن إلا ويمسّه الاختلاف الطبيعي ومن ثم يطلقه من جديد ليتعرض لاحتمالات أخرى في بعد زمني آخر. كل ذلك يحدث في دورة أزلية من أجل أن تبقى قاعدة سرمدية قائمة، متجددة مبنية على البحث الدؤب حتى يخترق البشر أجواء اللماذا، فتوضع الأقلام ويتوقف الضجيج وتهدأ النفوس وتتكشف ما هية الحقيقة وتتهجدها الألسنة.

بدت ليلى مشغولة البال و هي تتحدث بينها وبين نفسها ، فإذا ببدرية تمسك بها بقسوة وبروح عدوانية، فالعنف هو الأسلوب الذي

تربت عليه تلك المختلة طوال حياتها. سحبت عباءة ليلى وصرخت في وجهها بلكنة ثقيلة، ولسان ملتو وتلفظت بكلمات لا تفقه معانيها لكنها اعتادت على سماعها من الآخرين..

– اعطيني ريال يا قحبة يا بنت القحبة..

وصارت ترددها وتشدها بوقاحة، وليلى تحاول أن تفتح محفظتها لأنها تعرف جيدا إن لم تعطها ما تريد بأسرع وقت ممكن ستصبح أكثر شراسة ووحشية..

أعطتها ليلى الريال فتلقفته منها على عجل دون تتأكد منه، ثم دسته بين ثدييها المكتنزين اللذين يكادا يقفزان من مكانهما. بعدها نظرت إلى ليلى بريبة ورفعت لها "درّاعتها" ثوبها الممزق وقالت بصوت مترهل متعب :

– تعالي أنيكك يا حلوة..تعالي عندي..تعالي لا تخافي

كشفت لليلى عن مقدساتها. علمت ليلى حينها أن بدرية روّضت بفسق على أن تقدم كل ما عندها من كنوز إذا ما أُعطيت شيئا، حتى لو كان قطعة نقدية مزيفة، لأنها عاجزة عن أن تميزها عن غيرها الصحيحة. فهي امرأة بلا حول ولا قوة، مسلوبة العقل والوجدان.

نظرت إليها ليلى و هي مصعوقة من منظر عضوها الملتهب المغطى بشعر كثيف مقزز، مبتل بسوائلها ذات الروائح الكريهة. أنزلت ليلى ثوبها لها وهي كلها أسى وحزن..وتأوهت و هي تخاطبها..

- آآآآه.. يا بدرية ترى كم من الذكور المشوهين استغلوك من أجل إرضاء غرائزهم المكبوتة ونفوسهم المشوهة القبيحة.

نساء هذه الأرض ضحية قهر متلازم بحرمان جنسي قاس. جميعهن أشباه بدرية بشكل أو بآخر. إنه مجتمع سقيم يعج بالبشر المعتلين الذين يئنون من شدة الأمراض النفسية المتوارثة. هذا المجتمع المريض كالجسد المتسرطن الذي يحاول صاحبه المغفل أن يشفيه بتناول مسكنات الأسبرين. ينخر في عظامه الجوع الجنسي الكافر، فيحصده يوما بعد يوم، ينبش في كهوفه المظلمة ويثير كواسره. يتربى الفرد على أن يقاومه بعقائده الدينية مثل قراءة من الذكر الحكيم، والتعوذ من الشيطان الرجيم، وأدعية لا تغني ولا تسمن من جوع.

كل واحد في هذا المجتمع يحمل في داخله عقدة الانثى، ويعلم أن النفس الأمارة بالسوء دائما بمقدورها أن تفتح عليه جبهات تمرد مخيف سافر. فنفسه الرخوة بإمكانها أن تهاجمه بعدة الشهوة المحرمة، وبأسلحة الشبق المتأصل في الجذور. كل ساعة تغزو النزوة الأفراد المحرومين منها فتهزمهم بسهولة، دون أن تبدو أية مقاومة تذكر، فيرتدون دائما لها خاسئين. ذاك الأمر الخطير يعيشه المجتمع في كل زاوية، ويقاسي من تداعياته لكنه ينكرها.

بلد تعاند الشمس في جميع أنماط الحياة. الذكر والأنثى لا يلتقيان أبدا سوى على فراش الزوجية المعد لهما مسبقا ومرات كثيرة بدون خيارهما. بل هناك قبائل منتشرة في البلد، المرأة تعيش طوال حياتها

مغطاة الوجه لا يراه أحد سواها. تتزوج وتنجب أطفالا ولا أحد من أسرتها ولا حتى بعلها يعرف تقاسيم وجهها إلى أن توارى بالثرى فيكشف وجهها لتلتهمه ديدان الأرض ودوابها الصغيرة.

انتبهت ليلى لنفسها حين حاولت بدرية أن تدفع بها لتدخل البيت، فتداركتها وسحبتها إلى الخارج، فسلمت بدرية نفسها لليلى بهدوء. بعدها أخذتها عند الجيران لكي يعتنوا بها وتريح نفسها منها!

وبحزن متكدس في الداخل تركت ليلى قدميها يحملانها بخفة، وخرجت متجهة إلى حيث كانت تحيي. كان الشارع هادئ يكسوه التراب بحرج. كانت البيوت ترتدي ألوانها المتسخة بصمت لا يوحي برضا. بدت خجولة وكأنها تحاول أن تبين لمن يمر بها بأنها ليست المتسببة بهندامها غير اللائق، الظاهر أمام المشاة و عابري الأزقة..

في الفترات الصباحية الشارع يكون من نصيب النساء والأطفال يمرحون ويسرحون فيه. الطرقات صحف مجانية متوفرة للعيان ولمن يجيد قراءتها. كل جزئية فيها تبين تفاصيل دقيقة عن طبيعة سكانها.. المساكن والسيارات تعكس أوضاعهم الاقتصادية. الناس وتسكعاتهم تعرض أحوالهم الاجتماعية. تبقى الثقافية والدينية تظهر على أذواقهم في تصميم منازلهم، و لبسهم وطقوسهم التي يتبعونها في سيرهم وتنقلاتهم.

تمشي ليلى بتردد وهي متشحة بالسواد من رأسها إلى أخمص

قدميها، وغطاء حالك ينسدل على وجهها فيحجب عنها النور، ويمنعها من رؤية الأشياء بوضوح. اللون الرمادي هو المخيم على كل ما تنظر إليه ليلى، مما يثير في داخلها الاشمئزاز والرغبة في العودة من حيث أتت..

اقتربت ليلى من الحي الذي ترعرعت بين أحضانه الفقيرة الدافئة، مر بها سرب أسود متواصل من نسوة يجرجرن أطفالهن بعناء وتلكؤ، متجهات إلى داخل الزقاق المحاذي لبيت طفولتها. بدوا كأنهن ذاهبات إلى مأتم حسيني من أجل اجترار مشاعرهن فيه.

دنت ليلى من البيت العتيق الذي ظهر كالشيخ المسن الذي أعيته أمراضه المزمنة. أخرجت ليلى المفتاح من حقيبتها لتدسه في خرم الباب فأصابتها رجفة منه. سقط المفتاح من بين يديها فانحنت لتلتقطه، وبينما هي تحاول في لحظة أن تداري ما ألَمَّ بها، سمعت كأن عمرها يحاكيها عبر مساحات زمنية بعيدة. بدأت حرارة جسدها تتسرب من أطرافها فشعرت بصقيع ينفضها بشدة..لا تدري ليلى لماذا قررت زيارة البيت الذي أحرقت فيه سنين الطفولة والمراهقة. فهي لم تكن تعلم إن كانت ستحتمل روحها مراجعة عمرية أخرى أم لا، لكنها ستغامر على أية حال و لن تتراجع عما عزمت على فعله..

خلّصت الباب من قيده فأطلقته للريح ودخلت مغامرة وجودية أو قد تكون محاولة جادة منها لتصفيف مشاعر مبعثرة وملعوب بها، لذا ترى ولأول مرة أنها في حاجة لإعادة جدولتها..عاجلها صوت عشتار الذي كانت في اشتياق إلى سماعه..وبادرتها بسؤال محير قائلة :

– هل من الممكن للمرء أن يسلك نفس الخط الزمني مرتين يا ليلى؟؟

أجابت بتردد :

– لا أدري يا عشتار!

– ماذا يحصل لو حدث ذلك بالفعل؟

– ربما في المرة الثانية سنسعى جاهدين إلى الخيارات التي كان من المفترض أننا انتقيناها منذ الحياة الأولى!

– لكن، أليس هذا الفعل سيقود البشر إلى الخوض في تجارب محسومة النتائج؟ ألن يؤدي ذلك بهم إلى الافتقار للحلم؟ فتتلاشى طموحاتهم و تتآكل أرواحهم ببلادة وفتور!

وبلا مبالاة ردت ليلى :

– لا أعرف..ربما

– ليلى، الحياة لا تقبل العودة بنفس النمط ولا تسلك دربا كانت قد سارت فيه مسبقاً. قد تتشابه الدروب لكن التاريخ لا يعيد تقليب صفحاته ليجترها. فعقارب الساعة لا تصغر أكتافها، ولا تُغير مواقفها لترتد أو لتكفر بالبعد الرابع وهو الزمن.

شعرت ليلى بقريحة الكلام بدأت تتنامى فقالت:

– لكن يا عشتار، يظل الزمن يتربص بنا ويرصد جميع تحركاتنا كي لا نحيد ونطرق أبواب العودة. ومع كل هذه الرقابة المشددة، أحيانا يفشل الزمن في مهمته تلك، مثل كثير من أجهزة المخابرات في الدول المستبدة..بعدها يعبر الفكر وتحدث النقلة!

– نعم يا ليلى يعبر الفكر لكن لا تحدث النقلة. هناك أطياف قد

تمر بذهنك، تشعرك فيها أنه لا خيار لك إلا أن تسمحي للعمر بالعبور مرة أخرى، لرغبات خاصة في نفسك دون أدنى محاولة لاستقصائها. لكن أجندة الحياة لا توفر أبدا ذاك النوع من الترف الذهني..بالتالي تلك الأطياف تجسد وهما رهيفا يعكس واقعا سحيقا مضى..

– عشــتار..البعض منا يدرك ذلك. لذلك يلجأون إلى الائتلاف الذاتــي والصفاء الروحي، ليلتحموا ببر الأمان. بعد ذلك يبقى عليهم أن يكونوا بشجاعة طارق بن زياد، الذي أحرق مراكب العودة عندما حط على البر الإسباني!

– نعم بر الأمان هو الالتصاق بالذات برضا.

صــحت لــيلى من غفوتها وإذا بوجه طبيبها "سميث" ذو الشعر الأشــقر أمام ناظريها. كان يتحدث للممرضة بلغة لا تعرف معظمها ولا تحســن فك رموزها. بدأ بفحصها بآلاته الباردة وأنامله البيضاء الناعمة، وهي تحدق فيه تارة و تارة أخرى تغرس ناظريها في سقف الغــرفة الــذي حفظت كل تفاصيله بدقة، حتى انهى الطبيب مهمته ورحل. .بعدها عادت تتظاهر بالنوم كالقطة الصغيرة المتعبة كي لا تحســس أحدا بخجلها الممزوج بالحسرة..ذات الشعور الذي لا يكف عــن مصاحبتها بسبب حالها الكئيب الذي تكاد تحس أنها تكابده منذ قرون عديدة..

التعميدة!

منذ فجر التاريخ والبشر مدركون جيدا أنهم مخلوقات هشّة، سريعة العطب ومعرضة في أية لحظة للفناء

يــبدو أن هــذا الليل البليد ما زال في منتصفه و بدأت الساعات تتقيأ على نفسها وتلوك عقاربها باشمئزاز..تشعر ليلى بصداع غريب يقــرع بشدة في جمجمتها.. بدأ قلبها يهبط بدقاته..اختنق الهواء في أنفاسها..كأنه ضلّ الطريق المؤدي إلى رئتيها..أحست بوجع لحظاتها الأخيرة وهي تشرف على الرحيل دون أن يشيّعها أحد ..حزن وخيبة ..تــود لــو تســتطيع أن تودع الحياة بصورة مختلفة، أقلها بزهور وأدعية وترتيلات قرآنية وأحبة ملتفين حولها، حيث المودة والرحمة تــندلق بــرقة من وجوههم. وأن تمسك والدتها بيديها و تمسح على رأســها وهي تقرأ لها آيات قرآنية، وتلقنها الشهادتين، و تطلب لها الجنة، وحسن العاقبة قبل أن تفارقها..

الألـــم صـــار لا يطـــاق.. ارتفع صوت الجهاز الملصق بجسد لـــيلى..وصار يطلق رنين عال، مما جعل الممرضة تهرع مسرعة إلـــيها وأضاءت الغرفة لترى ما جرى ليلى..فصرخت ليلى بصمتها الذي لا يحسن أحد سماعه..

– لا ..أرجـــوك يا سيدتي اطفي النور ولا تشعليه أبدا.. إنه فلق هامتـــي مـــن شـــدة ســـطوعه.. دعينـــي أفـــارق الدنيا في سكينة الظلمـــة..دعيني أموت وأنا قريرة العين مرتاحة..اخرجي من دائرة سكوني كي يأخذ الله أمانته وارتاح من هذا العيش الذي لا عيش فيه ولا حياة..

قـــرأت الممرضـــة بعض آثار المعاناة، التي نُقشت على ملامح ليلى، فعرفت أنها تتضور وجعا ..وتستجدي الراحة، غابت للحظات وعـــادت محملـــة بإبرة مسكنة للألم، وغرستها في ذراع ليلى. بعد دقـــائق هـــدأ الإعصار الصاخب الذي ضرب بدماغ ليلى، فارتاحت وهي تهمس :

– آه شـــكرا لـــك يـــا سيدتي على هذه الخدمة لا تدرين كم أنا ممـــنونة لـــك ولهـــذا العقار العجيب ..لله دره من صنع هذا السائل السحري، القادر على اغتيال الألم وهو في مهده..

مرت زمن حسبته عقارب الساعة بدقة. سكنت الأشياء من حول لـــيلى وتحرر ذهنها من براثن الأوجاع، وتاهت في مساحات واسعة من ماض بعيد..

سحبت نفسها بعنوة إلى هناك حيث كانت طفلة غضة. مرت من الدهلـــيز القديم الذي كان موضع "المساخن" قلل ماء الشرب. وكأنها تشـــتم رائحة الفخار الرطب، فينعشها ويحملها في قوافل العودة إلى الوراء، إلى حقبة زمنية بعيدة. شرعت ليلى بتقليب صفحات تاريخها بغبن مصبوغ بانبهار التجربة الأولى..

خطـــوات تعـــبر بلـــيلى وتسبقها بحذر، تتردد لكن نفسها دائما تحرمها من حقها في المقاومة، وتنصاع لها وتتبعها. فقد تربت ليلى على أن التمرد بكل أشكاله مرفوض بل محرم تماما في عالم الإناث، فذاك أمر من الشواذ التي لا قاعدة له أبدا!

تلاحقـــت ليلى نفسها قبل أن تلهو عنها وتتوه عنها، أو تضيعها، وتبقيان هما الاثنتان في عداد المفقودات.. تطرق مسامع ليلى نغمات لأصوات غضة..تقترب..شيئا فشيئا تكاد تسمعها بوضوح..

الحمد لله الذي هدانا...آمين
رزقنا معلما يرعانا..آمين
عرفنا الإعراب والبيانَ..آمين
الحمد الله الذي يحمدَ..آمين
حمدا كثيرا ليس يحصى عددا.. آمين
علم موسى واصطفى محمدَ..آمين
وأنزل القرآن نورا وهدى..آمين

....

الألـــم صـــار لا يطـــاق.. ارتفع صوت الجهاز الملصق بجسد لـــيلى..وصار يطلق رنين عال، مما جعل الممرضة تهرع مسرعة إلـــيها وأضاءت الغرفة لترى ما جرى ليلى..فصرخت ليلى بصمتها الذي لا يحسن أحد سماعه..

– لا ..أرجـــوك يا سيدتي اطفي النور ولا تشعليه أبدا.. إنه فلق هامتـــي مـــن شـــدة ســـطوعه.. دعينـــي أفـــارق الدنيا في سكينة الظلمـــة..دعيني أموت وأنا قريرة العين مرتاحة..اخرجي من دائرة سكوني كي يأخذ الله أمانته وارتاح من هذا العيش الذي لا عيش فيه ولا حياة..

قـــرأت الممرضـــة بعض آثار المعاناة، التي نُقشت على ملامح ليلى، فعرفت أنها تتضور وجعا ..وتستجدي الراحة، غابت للحظات وعـــادت محملـــة بإبرة مسكنة للألم، وغرستها في ذراع ليلى. بعد دقـــائق هـــدأ الإعصار الصاخب الذي ضرب بدماغ ليلى، فارتاحت وهي تهمس :

– آه شـــكرا لـــك يـــا سيدتي على هذه الخدمة لا تدرين كم أنا ممـــنونة لـــك ولهـــذا العقار العجيب ..لله دره من صنع هذا السائل السحري، القادر على اغتيال الألم وهو في مهده..

مرت زمن حسبته عقارب الساعة بدقة. سكنت الأشياء من حول لـــيلى وتحرر ذهنها من براثن الأوجاع، وتاهت في مساحات واسعة من ماض بعيد..

سحبت نفسها بعنوة إلى هناك حيث كانت طفلة غضة. مرت من الدهلـــيز القديم الذي كان موضع "المساخن" قلل ماء الشرب. وكأنها تشـــتم رائحة الفخار الرطب، فينعشها ويحملها في قوافل العودة إلى الوراء، إلى حقبة زمنية بعيدة. شرعت ليلى بتقليب صفحات تاريخها بغبن مصبوغ بانبهار التجربة الأولى..

خطـــوات تعـــبر بلـــيلى وتسبقها بحذر، تتردد لكن نفسها دائما تحرمها من حقها في المقاومة، وتتصاع لها وتتبعها. فقد تربت ليلى على أن التمرد بكل أشكاله مرفوض بل محرم تماما في عالم الإناث، فذاك أمر من الشواذ التي لا قاعدة له أبدا!

تلاحقـــت ليلى نفسها قبل أن تلهو عنها وتتوه عنها، أو تضيعها، وتبقيان هما الاثنتان في عداد المفقودات.. تطرق مسامع ليلى نغمات لأصوات غضة..تقترب..شيئا فشيئا تكاد تسمعها بوضـــوح..

الحمد لله الذي هدانا...آمين

رزقنا معلما يرعانا..آمين

عرفنا الإعراب والبيانَ..آمين

الحمد الله الذي يحمدَ..آمين

حمدا كثيرا ليس يحصى عددا.. آمين

علم موسى واصطفى محمدَ..آمين

وأنزل القرآن نورا وهدى..آمين

....

كانت "المطوعة" الملاية الكبيرة معصومة تقرأ ما يسمى بالتحميدة، قصيدة تفوق الخمسين بيتا. منظومة بطريقة خاصة تنتهي بسجع جميل. تتغنى بها الشيخة معصومة بلحن ممتع يجعل المستمعين من حولها يتجاوبون معها بأصوات متناسقة ومنسجمة، مرددين كلمة آمين مع نهاية كل وقفة. يرتفع صوتها وينخفض وبنفس النغمة. يتابع الجميع معها خاصة الصغار منهم باستمتاع وتحفز.

الملاية بقدرتها الفائقة على إدارة الجموع داخل أماكن المآتم الحسينية وخارجها، كأنها "سميراميس" ملكة بابل التي نسبت إليها كل الأساطير في إنشاء المدن وغزو مصر والحبشة وأجزاء كبيرة من آسيا. الملاية امرأة ذات سلطة على النساء وأحيانا تمتد سلطتها إلى الرجال من خلال زوجاتهم. يعشن حياة تبجل واحترام ويظل ذكرهن طيبا حتى بعد مماتهن.

كان الجو حارا والبيت مكتظا بالنساء والبنات والصبيان . احتشد الجمع للاحتفال بتخرج أخت ليلى الوسطى مريم من "المطوع" الكتاتيب وبحفظها للقرآن الشريف بكامله. فقد جرت العادة أن تحتفل الناس بهذه المناسبة.ويُدعى إليها نساء العائلة والصديقات المقربات. توزع في هذه المناسبة الحلويات و"الفلفاص" البذور المجففة و"الشربت" المشروبات.

أخت ليلى مريم بدت كالعروس. ارتدت كثيرا من الحلي بعضها من والدتها والبعض الآخر من أختها الكبرى زهرة ومن خالتها أم

علي أيضا. وضع القبقب والشقائق على رأسها وسرح شعرها الأسود الطويل بدهان الورد. زينت شفاهها (بالديرم) صبغة شفاه خشبية ذات لون بني..وشبك الريحان في شعرها فأضفى عليها تألقا مميزا وجمالا ساحرا مع ثوب النشل الأحمر الذي كانت ترتديه..

بدت مريم سعيدة وكأنها تمتلك الدنيا بما فيها وهي ممسكة بلوح كانت تستخدمه أثناء الدراسة. اللوح مغطى بقماش حريري أخضر، مزهر من الجوانب مثبت عليه وعاء يسمى "بنجر" . تتنقل مريم به من امرأة إلى أخرى وتنحني بإجلال لتقبل هاماتهن ويهنئنها بدفء، ثم يضعن في الوعاء ما توفر لديهن من مال أحضرنه معهن لهذه المناسبة.

انتهت التحميدة وسُلم كل المال الذي جمعته مريم للشيخة معصومة، لأنها هي التي أشرفت على تدريسها وتحفيظها القرآن، وتعليمها أصول القراءة لمدة سنة ونصف تقريبا.لكن ليس هذا كل ما هنالك للملاية معصومة، ستحصل أيضا على مبلغ أكبر سيُقتطع من مهر مريم إذا تزوجت مستقبلا حيث يقدم للشيخة ثمنا لخدماتها.

بان على الشيخة معصومة الفخر والاعتزاز، وهي تتناول أطراف الحديث مع النسوة اللاتي غالبيتهن أميات لا يفقهن شيئا مما تقوله مما يزيدها تكبرا وعلوا. تتوسطهن الشيخة بزهو وبجانبها جدتيّ ليلى الاثنتين.

جعلت الحياة من الشيخة معصومة امرأة صارمة وشديدة الحزم. فهي أرملة لثلاث رجال. كانت فضة غليظة، كثيرا ما اشتكت مريم من قسوتها وجبروتها عندما كانت تعلمها. العنف الشديد هو المنهاج الذي دائما تلجأ إليه وتتبعه في تعاملها مع طلابها وطالباتها. نادرا جدا ما تبتسم. ملامحها صحراوية وروحها ضارية. الكل يهابها كبارا وصغارا، ويتجنب الاختلاف معها في أي أمر من الأمور.

كانت تراقب ليلى بفضول، وتتابع تحركاتها بنظرات حادة فيها ترقب، وكأنها تنتظر اليوم الذي ستستلم فيه الضحية الجديدة. ليلى كانت خائفة أن ترسلها والدتها الى الكتاتيب وتصبح تحت قبضة الملاية معصومة، فتمارس عليها أساليبها المتنوعة في القمع والاستبداد. فقد أذاقت أخوة ليلى المُر بقهرها لهم ابتداء من زهرة ومرورا بنور وانتهاء بمريم. أما يوسف و إبراهيم فقد نجيا منها، لأنهما انضما إلى المدارس، لذا لم تجبرهما والدتهما على دراسة القرآن في الكتاتيب.مدارس البنات كانت متوفرة أيضا، ولكن والد ليلى لم يتخذ القرار بعد كي يرسل كل من ليلى ومريم ليتعلما هناك. ربما لأنه لا يراه امرأ مهما، لأن الإناث أولا وأخيرا، لا أحد يرى أن تعليمهن له أية قيمة أو فائدة. بل البعض يعتبره سببا لانحراف الفتاة وفسادها.

كانت ليلى تتمنى أن يقرر والدها بسرعة قبل فوات الأوان، لأنها في خوف شديد من أن تطال يدي تلك الشيخة المتوحشة التي كانت والدة ليلى إحدى تلميذاتها. لذلك تُكن لها أم نور، احتراما

وتقديرا كبيرين، لأن الفضل يعود لها في تدريس بناتها وتدريسها أيضا، وبالتالي في تحصيلها على هذا المركز الاجتماعي المرموق. فوالدة ليلى، أم نور، اليوم تعد من أكفأ "الملايات" الشيخات في الحي، وأكثرهن جدارة في إقامة المآتم الحسينية وأعلاهن أجرا. دائما تُظهر أم نور أمام معلمتها التبجيل والاحترام وتوليها معاملة خاصة، من أجل استمرارية علاقة الحلف التي بينهما.

في مناسبات مثل التحميدة تقوم نساء الحي بمهمات الصيد والتصيد للفتيات، لكي يخترنهن زوجات لشباب العائلة المؤهلين للزواج. وقد تكون مريم التي أنهت دراسة القرآن وحفظه بنجاح، إحدى تلك المرشحات لدخول عش الزوجية، مع أنها لم تتجاوز الحادية عشر بعد.

هكذا اصطادوا أخت ليلى الكبرى زهرة ورموا بها في أحضان شاب لا تعرف عنه شيئا غير اسمه. هذه هي معتقداتهم. تتربى الفتاة على الخجل والحياء بحيث يتحول كل جزء في جسدها محرم يجب عليها أن تلفه وتواريه. لدرجة تشعر أن حتى هي نفسها عليها أن لا تنظر إليه وأن لا تمسه. أحاسيسها تُوأد منذ الصغر سرا وعلانية، وكلما ازدانت الفتاة وازدهرت فيها تقاسيم الأنوثة، تعددت طرق وأساليب القمع الروحي والجسدي الذي يمارس عليها من نساء العائلة قبل رجالها. يكبرن الفتيات وتكبر معهن مشاعرهن المشوهة، وغرائزهن المبتورة، ويصبحن أغرابا عن أجسادهن وأرواحهن. وكلما غطت الفتاة نفسها وازداد استحيائها كبرت فرصتها في الزواج المبكر.

زهـــرة أخـــت ليلى كغيرها من بنات جيلها، وجدت نفسها بين عشـــية وضحاها، أن كل ما روضت عليه طوال سنين حياتها يجب أن ترمـــي به في عرض البحر.وتتبنى معتقدات أخرى لأنها تحولت بورقـــة من المأذون من طفلة ساذجة إلى امرأة ناضجة! ورقة قادرة علـــى أن تجعـــل مـــن الصـــبيان رجالا ومن الفتيات نساء. مفعول الأوراق في حياة البشر له سحر قوي، يزداد يوما عن يوم، و كأنهم لـــم ولـــن يحـــيوا بدونها! وجود الناس في هذا العالم يثبت بورق، ورحـــيلهم عـــنه يســـجل بـــورق. أحلامهم وتطلعاتهم، إخفاقاتهم ونجاحاتهم جميعها مدونة على ورق.

ورقـــة معـــتمدة غـــيّرت حياة زهرة البائسة، منذ يوم كتابة عقد زواجهـــا، أو بالأحـــرى انتقال صك الملكية من والدها الى ذكر آخر، وهي تحاول أن تهضم كل ما يُدس في ذهنها عن حق الزوج وطاعته. تزوجت وهي ابنة الثانية عشرة من عمرها، فبات مفروض عليها أن تتصرف على قدر عال من الفهم والاستيعاب لحياة لم تُهيأ لها أبدا ولم تعهدها من قبل. توجب عليها أن تدخل عالما كانت مقصية عنه طوال سنينها الماضية، عالم الكبار الراشدين. وأن تُظهر أنها تستطيع تحمل المسؤولية التي ألقيت على أكتافها الصغيرة، و الهم الذي حُمل به قلبها الغض. وأن جسدها الذي غطته لسنوات، بات عليها أن تكشفه بتفسخ و جـــرأة، وتقـــف عارية تماما في مخدع رجل غريب عليها، فاتحة أحضـــانها له ومشـــرعة عتباتها التي كانت يوما محرمة حتى عليها، ليضاجعها ويتمسح بثلاثيها المقدس ويلتهمه كل ليلة حتى يشبع رغباته المحتدمة.

تعـــد زهـــرة من الفتيات اللاتي حالفهن الحظ، لأنها تزوجت من شـــاب مـــتعقل ولـــيس من صبي أو شاب متهور كما حصل لبعض الصـــغيرات. ناصـــر زوج زهـــرة شاب يعرف ربه ويهابه ويحسن معاملـــتها. لا يظلمهـــا حتى في الفراش. يتقرب منها ويتواصل معها جنســـيا ليرضي نفسه وغرائزه ويشبعها في الوقت عينه. يؤمن ناصر أن للزوجة حق شرعي في كل ما يملك، وأنه ملزم بتوفير كل طلباتها حـــتى لو أرادت أجرا للرضاعة فهو على أتم الاستعداد لأن يكفل لها ذلك. فهو شاب ملتزم دينيا، وطالب في حوزة علمية مرجعيتها ونهجها تـــبعان فقـــيه بارز وذائع الصيت في أرض بابل. تزوجته زهرة منذ أربـــع سنوات ولديها منه طفلان والثالث على وشك الظهور وهي لم تـــتخط ســـن المراهقة بعد. زهرة الآن في شهرها الأخير متعبة جدا ومهـــدودة الجســـد لذلك لم تستطع أن تحضر احتفال التحميدة لأختها مريم.

انتهى حفل التحميدة فحملت النساء أجسادهن المنهكة والتي كانت تتصبب عرقا من حرارة الجو،وخرجن وهن يسحبن معهن حاشيتهن من بنات وأولاد. جدة ليلى "الأم الحجية" أيضا رحلت مع بنات الخال الأكبر جابر الذي يقطن مع أسرته وأسرة ليلى في البيت نفسه حيث يفصلهما "الحوش" ساحة ترابية كبيرة.

الخـــال جابر هو الأخ الأكبر لأم ليلى وهو المسئول عن البيت الكبـــير. تـــزوج أربع مرات وجميع زوجاته توفين لأسباب طبيعية مختلفة. آخرهن توفيت بين أحضانه قبل أن تكمل شهرها الأول معه.

بعدها صار من الصعب عليه أن يجد امرأة مستعدة أن تنسى تاريخه النحس مع النساء وترضى به بعلا. لذلك فهو يعيش أعزب منذ سنوات. لديه من زوجاته ثمان بنات. زوج منهن أربع، وبقي أربع يقمن على رعايته والاهتمام بجدتهن "الأم الحجية".

كثير من الرجال الذين يرزقون بفتيات دون الصبيان كخال ليلى، يظهر في شخصياتهم شرخ عميق، وكأنهم اقترفوا أثما عظيما لا يغتفر. يتولد في داخلهم شعور كبير بالخيبة، لأنهم لم يخلفوا صبيان يحملون أسماءهم من بعد رحيلهم عن هذه الدنيا. حمل الأسماء أم عدم حملها تلك هي المسألة لدى غالبية الرجال! انه هم غير معروف ولكنه يسبب قلق كبير للأسر. تفكير أحادي البعد ينخر في نفوس الذكور خاصة فيصيبها بالسقم، فيعيشون في دائرة ضيقة وخانقة. ترى هل الأشخاص الذين يحملون أسماء آبائهم اليوم سيعنون شيئا للقادمين مائة سنة من الآن؟؟ هل احتفى الدهر أو رفع يوما من شأن من أنجبوا أولادا، و قلل من غيرهم؟ ألف عاما للوراء أو ألف عاما للأمام، أين هم هؤلاء الآباء وأين أبنائهم الذين تفاخروا واعتزوا بهم؟

ذهبت جدة ليلى الضريرة أم والدها، مسرعة إلى الحمام وهي تحمل قلق التأخر عن أداء فريضتها كعادتها. انحنت لصنبور الماء الذي يقترب من الأرض لتغتسل وتتوضأ استعدادا للصلاة. جدة ليلى لا تحس بتحركات الشمس ولا بدبيب عقارب الساعة، لذلك دائما تخاف أن تتأخر عن أداء فرائضها.الغريب إن معظم كبيرات السن

في الحي فاقدات البصر وقانعات بقدرهن. هل لأن البؤس الذي تجرعنه طوال سنين العمر جعلهن لا يفرقن بين رؤية الأشياء أوعدمها؟إما أن الحياة باتت بالنسبة لهن لا تعني سوى ظلام حالك ولن يستدل النور عليهن أبدا..

دخلت أم نور مع ابنتها مريم "الليوان" الغرفة لتساعدها على خلع عقودها وأساورها وحفظها في أماكنها.بقيت ليلى ومحمد رفيقها المحبب، ابن الجيران، متسمران في المكان. ينظران بذهول طفولي الى ما خلفته حفلة التحميدة من فوضى وقلة ذوق. كانت الساحة مملوءة بالأوساخ والقاذورات التي تحتاج إلى من يلتقطها.

راودَ ليلى شعور بالانسحاب من المكان. وبلمحة سريعة قرأت فيها انطباعات محمد الظاهرة على تقاسيمه البريئة، وتبين لليلى انه يحمل نفس الشعور.

علمت الدنيا ليلى ورفيقها محمد، أن الهروب هو أول الحلول الجاهزة في قائمة أجندتهما، وأسهلها لذا يلجأ الناس إليه، وإن كان ليس أكثرها صوابا. فدائما الهروب هو الملاذ الموعود، عندما يشعران ليلى ومحمد ببوادر خطر سيداهمهما. شعور غريزي من افتقده من البشر اعتبر في عداد الممسوسين.

لكن محمد أكثر حرصا على الهروب من ليلى لأن بيئته المنزلية

تعـج بالعنف فوالده إرهابي مخيف. فحين لا يكون الهروب في حسابه، يخطئ في تقديراته لبعض معارك بيته الضارية . فجأة يجد الأخطار تـتداركه مـن حيـث لا يعلم، فتصيبه الضربات واللكمات في أماكن موجعـة. وتسبب له أضرارا جسيمة حتى لو كان على أهبة الاستعداد للتصدي لها. فكثير ما ضاقت بمحمد الدنيا بما رحبت، مع صغر سنه يحـس أن الأيـام تشعره تارات بأن وجوده دون قيمة. في تلك اللحظة يركـبه الندم من أساسه الى رأسه، لأنه لم يطلق لنفسه العنان و يهرب بـروحه بعيدا عن تلك الساحات الخطرة و الجبهات الصعبة، حيث كان باسـتطاعته القـيام بذلك. لكنه مازال يؤمل النفس أنه سيهرب من بيت أسرته ومن والده الشرس ذات يوم.

اقتربـت لـيلى من صديقها محمد، وبدأ يتشاوران ويتفقان على خطة هروب محكمة وفاعلة، وإذا بصوت والدة ليلى يأتي من وراء باب الغرفة على عجل :

– لولـو الله يعافـيك يا بنتي.. ابدئي يا حبيبتي بتنظيف المكان ودعي محمد يساعدك.

ومن غير أدنى تفكير أو تردد أجابتها ليلى :

– حاضر يمه

كلاهمـا شعرا بالخيبة والفشل، فاسقطا بيارقهما وسلما أنفسهما للواقـع. فقامـا بالتنظيف وهما نادمان، لأن تحركاتهما كانت بطيئة وغـير متقنة. فقد كان بالإمكان أن يستغلا وقت انشغال الجميع قبل نهاية الحفلة، ويستغفلونهم بالانسحاب بهدوء من غير أن يشعر أحدا

بغـيابهما، والذهاب إلى مخبئهما المحصن دار الحطب، حيث تعودا ليلى ومحمد أن يقضيا أوقات ممتعة فيه.

محمـد رفـيق لـيلى أصغر منها سنا، ولكنه أحيانا يبدو وكأنه راشـد، بسبب ما يحمّله والده من مسؤوليات وهموم. يفضل محمد دائمـا أن يقضـي أوقاتـه مع ليلى لأنها تجعله يتلذذ بشقاوة طفولته وبحلاوتهـا. والـد محمـد رجل متسلط وقاس وذو طبع متعجرف. دائمـا يشـعر أبناءه بأنه يمتلكهم ومن حقه أن يفعل بهم ما يشاء . الضـرب والتنكـيل هـو الأسلوب الذي يتبعه أبو محمد مع أفراد أسـرته.يظهـر على هذا الأب التعسفي غضب غير مبرر على من حوله، وكأنه يعاني لسبب ما من إحساس بعدم الارتياح والرضا. هو مـن الـناس الذين لا يتمتعون بقبول الذات لأنهم لا يرون جماليات الحـياة ولايـتطعمون طراوتها. ذلك خلق في داخله فوضى حواس وضجيج مشاعر تجهد روحه روحه فلا تدعه يستكين. فتؤرق نفسه ويـثور جسـده بغضب لا سبب له، وكثير ما تتجسد تلك الثورة في أنماط مختلفة من العنف والاستبداد على من هم أضعف منه. ومحمد هو ممن يفرغ فيهم سخطه.

شَـعَرَ محمـد بدقات ساعة رحيله تقترب وبالشمس وهي تلملم خيوطها استعدادا للأفول. فارتجف خوفا وحمل نفسه مسرعا إلى بيته الذي يمقته، احتاج أن يغادر على عجل قبل أن يأتي والده ويجعل من تأخره حكاية قد تنتهي بحالة كئيبة ومأساوية.

توقفت ليلى لتلتقط أنفاسها بعد عمل التنظيف الشاق. صارت تراقب جدتها الضريرة وهي تغتسل وتتوضأ استعدادا للصلاة، تبلل كل ملابسها دون أن تشعر. والد ليلى هو الإبن الوحيد الذي تبقى من الدنيا لتلك الجدة الضريرة. لذلك جدة ليلى تدعو لأبنها الذي هو والد ليلى بالتوفيق والسلامة ليل نهار. تقوم وتطلب لأبنها من منتصف الليل حتى أطراف الفجر. تحب ولدها إلى حد مثير للاستغراب والشفقة. بالنسبة لها هو نور عينيها الحقيقي الذي تتمنى من الله أن لا يحرمها منه. تعيش من أجله وله، و لا حب في حياتها سواه. أم مسكينة لا تبصر غير ابنها سببا وحيدا لمواصلة العيش.

أتت مريم من الغرفة لتعلم ليلى بأن الوقت قد حان لإعداد(دواشق) مراقد النوم قبل غياب الشمس. صعدتا معا الى السطوح العليا والتي تستخدم لأيام (القيظ) الصيف الحارة.أما السطوح الدنيا فهي لأيام الربيع، لكن جدة ليلى تنام طوال الصيف في الأسفل لأنها لا تحتمل الصعود إلى الأعلى.

بخفة تسابقتا ليلى وأختها على الدرج حتى وصلتا الى الأعلى حيث توجد غرفة المراقد(المفارش). بدأتا أولا بفرش مراقد إخوانهم الثلاثة نور ويوسف وإبراهيم في السطح الأكبر. ثم فرشتا سريرهما في السطح الأصغر حجما . دائما كان ذلك مكان ليلى وأخواتها حتى عندما كن أكثر عددا من الصبيان. قد يكون ذلك حدّد أيضا تحت قاعدة أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين حتى في النوم! فنصيب الذكر مضاعف في الإرث والشهادة والقبول قانونا وشرعا.فالسطوح ذات المساحة الأكبر من نصيب الأولاد. ربما ذلك يجعل أحلام الذكور

أثناء النوم تتضاعف، كما تتضاعف أحلامهم المعدة لهم مسبقا في عالم اليقظة.

حملتا ليلى ومريم معا أكبر فراش وهو لوالديهما، واتجهتا به إلى السطح المخصص لهما، فهو الوحيد الذي له باب. فتحتا الباب وألقيتا به على الأرض بسرعة وهما مجهدتان من شدة ثقله. فرشتاه على " المدَة" الحصير و رتبتا أغطيته.

تركت ليلى اللمسات الأخيرة لمريم حيث تدس كل مرة بين الوسادتين صرة "المشموم" الريحان، التي تبث رائحة منعشة في السطح. عادة جدران سطوح البيوت منخفضة. وقفت ليلى على أطراف أصابعها محاولة أن تسترق نظرة على المنازل المنتشرة في الحي. تطالع فيها الأمهات أو بناتهن وهن منهمكات بإعداد مفارش النوم وترتيبها. وقفت ليلى لفترة حتى أتعبتها أصابع قدميها، بعدها عادت لمريم لترى إن كانت قد انتهت من مهمتها، لكنها لاحظت على وجه مريم مسحة حزن وانكسار تعجبت فسألتها :

– مريم ما بك؟ من المفترض أن تكوني سعيدة اليوم لأنك انتهيت من الكتاتيب..ومن تلك الملاية المستبدة.

أجابت مريم بغبن :

– لا لم انتهِ بعد..الشيخة معصومة طلبتني من أمي مرة أخرى.

تفاجأت ليلى فقالت :

– ماذا تقصدين؟

ردت مريم :

– أن أرجع عندها لأدرس السيرة النبوية وأعاونها على تدريس ما أسمتهم بالبليدين من تلامذتها.

– وهل وافقت أمي؟

– نعم ..أيضا سترسلك معي لتدرسي القرآن.

صـــعقت لـــيلى من هول المفاجأة واحتبس الكلام في حلقها ولم تنــبس ببنــت شــفة..جف ريقها وشعرت برجفة هزتها من رأسها وحطـــت في كل موقع في بدنها. أحست كأن سطل من الماء المثلج اندلـــق علـــيها. أخبرتها مريم أنها ستذهب معها إلى الكتاتيب عندما تجمع والدتهما مبلغا مناسبا لتقدمه للشيخة كعربون على الحساب وقد يحدث ذلك خلال شهور...

مـــرت تلك الشهور بسرعة الضوء ووجدت ليلى جسدها النحيل تحت عصا الشيخة معصومة. جلدتها ذات يوم بكل قواها وكأن تلك الملايـــة الشرســـة تحاســـب ليلى على قهر الزمن الذي سلب منها أزواجها الثلاثه وسحب بساط الأمان من تحت قدميها..كان ذنب ليلى في ذاك النهار أنها تأخرت في الحضور لأنها لعبت قليلا وهي ذاهبة الـــى الكتاتيـــب مـــع صبية في الشارع. رأتها فتاة كانت قد أرسلتها الشيخة لتبحث عنها وبلغت عنها عند تلك العجوز الصماء القلب.

كان نهار أسوداً ومرعبا بالنسبة لليلى، فقد انهالت عليها الشيخة بالضـــرب والتوبيخ واتهمتها بقلة الحياء وبالصبينة ومزاولة المنكر باللعب مع الذكور. بكت ليلى طويلا وخضبت خديها الغضين بدموع الظلم والانكسار. لم يسمع أحدٌ بكاءها في ذاك اليوم..

فزعت ليلى من غفوتها الزائفة.كأنها كانت غارقة في بئر عميق ونجّـــت نفسها منه.. أثناء محاولتها باسترداد روعها ..إذا بها ترى وجه عشتار..

– ليلى كيف تشعرين الآن؟

– أفضل.. لكن كان هناك كابوس قد حلّق فوق رأسي لقليل من الوقت ووجدت نفسي في مأزق..

– اهدئي كان مجرد كابوس..

– كنـــت طفلـــة وديعة..لكن في هذا العالم حتى الصغار يُسلب مـــنهم حقهـــم فـــي التمتع بطفولتهم. تطاردهم القناصة (الراشدون) لتصطادهم وتزج بهم في أقفاص الكتاتيب أو ما يُسمى بدور التربية والتعلـــيم. يكدسون هناك ويعاملون بقسوة. فتسلب منهم حتى آدميتهم بحجة تعليمهم وتنوير عقولهم.. بعدها تبدأ قناديل أرواحهم بالانطفاء واحـــد تلـــو الآخـــر، فيصبحون صغارا بتقاسيم معتمة تفتقد لبريق الطفولـــة البهي، معدمين من إشراقتهم السجية، ومن صبغة اللامبالاة البريئة ومن كنوز الدهشة... أتدرين يا عشتار؟

– ماذا يا ليلى؟

– اعـــتقد أنكم لن تحاسبوا أحدا من هذه البقعة من الأرض على خطايـــاهم خاصة الإناث منهم! يكفينا ما عنيناه من قمع ومسخ للذات في هذه الدنيا..

– من تقصدين بـــ "أنكم"؟ و ما قصة المحاسبة؟

– أنـــتم الآلهـــات والآلهة ..المفروض لا تحاسبونا بالذات نحن الإناث لأننا لم ننعم بحياة طبيعية ولم نستطعمها..بل لم نحيا أبدا في هذا البلد المظلم..

– ليلى أتتذكرين حين قلت لك في إحدى لقاءاتنا أن ما تؤمنين به سترينه؟

- لا أذكر.. لكن هل يعني ذلك لأني ألمن بك أراك؟

- قبل أن أجيبك على هذا السؤال ..دعيني أرجعك قليلا للوراء..كيف كانت حالتك قبل أن نتواصل معا؟

- كنت في حالة شديدة البؤس..كنت معدمة وفي حاجة ماسة إلى من يوقفني على أرض صلبة في عالمي الهش المحيط بي..

- إذاً الحاجة هي التي دفعت بك الى البحث عمن ينتشلك من حالة اليأس تلك..

- ربما الحاجة..بلى الحاجة..هي كما يقال أم الاختراع..لذا ابتكرتك في ذهني.... أليس هذا ما كنت تنوين الوصول إليه.؟

- الحاجة هي التي حولت العجلة المربعة الى مستديرة، وحركتها في الاتجاه الذي جعل الإنسان أكثر ارتياحا وتصالبا وقناعة بالمواصلة.. نفس تلك التجربة مرت بك وتمر بالكثيرمن أمثالك كل يوم، لأن البشر مدركون جيدا أنهم مخلوقات هشة وسريعة العطب ومعرضة في أي لحظة للفناء..لذا بحثوا وما زالوا يبحثون عن سفن النجاة كي تنقذهم من الطوفان المتربص بهم. في القدم طلوا مراكبهم بصبغات خارقة وألبسوها كساء القدسية، كي تسيّر لهم دورة الحياة بهدوء في الدروب الشائكة، وتشعرهم بالاطمئنان في عالم يخشونه حتى بعد الرحيل عنه..

- عشتار هل تعني أننا نوهم أنفسنا بأشياء لا وجود لها...؟

- نعم و لا! بعضها موجود والبعض الآخر خلقها القصور الذاتي لدى الإنسان، وقلة الإدراك، والإصرار على الاستدلال على جميع الأمور بمقاييس بشرية.

- مقاييس بشرية؟

- نعم، كأزمة انتهاء الحياة ..

- ماذا تقصدين؟

- دعيني أشرحها لك. أزمة انتهاء الحياة وتلاشيها أمر لا تدركه عقول البشر، لذا صاغوا هذه المعضلة بمفاهيمهم البسيطة..ففسروها بالخلود المشروط من سياقهم في إطار الثواب والعقاب ،مثل حين يغضب المرء من ابنه يعاقبه وحين يرضى عنه يكافئه.

- هذه طبيعة البشر وما دخله في أزمة نهاية الحياة!

- سأوضحها لك وستستنتجين العلاقة بنفسك. صحيح طبيعة البشر تميل الى الجزاء ببعديه الموجب والسالب من أجل أن تستقيم حياتهم، لكن تلك الأمور ليست ناموس الكون المطلق، ولا مبدأه كما يتصوره السواد الأعظم منكم ويؤمن به. الإشكالية هنا أن الناس إذا اعتادوا الشيء اتخذوه مسلما لا يجوز المساس به.

- لم أفهم!

- نعود للعقاب والثواب هذا أمر مسلم به بالنسبة للطبيعة البشرية لإعطاء كل ذي حق حقه، لكنه ليس قانونا أو سنة كونية أزلية، لأن أمور الناس وسننهم يجب أن لا تطبق أبدا على مفاهيم الديناميكية المتغيرة، فهي لم تحكمها قط سمات البشر مهما تمنوا ذلك. فالمعتدي والمعتدى عليه ليس بالضرورة يحصلان على ما يستحقانه.

- لكن هذا ليس عدلا!

- العدل هو إحدى مقاييسكم وقيمكم والتي لا تعترف بها منهجية الديناميكية المتغيرة ولا الكون ونواميسه. وبما أن البشر لا يحسنون فِهم ذلك فَهم لا يستطيعون إدراك بُعده المعقد، لذا تجدي معظمهم يتشبثون بما يرضي ضمائرهم ويريح أنفسهم ويسكت أدمغتهم،

فالأغلبية الساحقة من البشر اليوم تؤمن أن قضاياهم المعلقة ستحسمها لهم يوما ما أيدي عادلة في هذه الدنيا وتكملها في الحياة الأخرى.. ما بك يا ليلى؟ أراك منزعجة!

- ما هذا الكلام؟ ماذا تقولين يا عشتار؟ هل فقدت صوابك؟ هل أنت مدركة لما تلفظت به للتو..؟؟ هذا يعني أن وجودنا على هذه الأرض عبث في عبث!

- هذه هي المعضلة الأكبر.. القصور الذاتي لديك. لأن ذهنك قاصر وعاجز على استيعاب الأبعد، لذا قام بإيصالك إلى اقرب محطة وهي هذا الاستنتاج، فأنزلتِ رحالك فيه بسذاجة..أنا لم أتحدث عن مفهوم الوجود و لم أمس عبثيته..

- عشتار..أرجوك لا تتهميني بالقصور. كلامك أعطاني دلالة على أن العدل لن يتحقق أبدا في هذه الدنيا ولا حتى في الآخرة. هذا يرمي الى أن ما يجري لنا على هذه الأرض دون معنى..

- لنعاود طرح الفكرة من جديد..لكن بصيغة أخرى ربما ذلك سيساعدك على تقصي جوانب القضية التي نحن بصددها..

- تفضلي يا معلمتي..

- الآن في عالمكم هذا حين ينوي باحث لإثبات نظرية ما يقوم بطرح ثلاث افتراضيات لإثبات صحتها.النتائج تكون إما ايجابية أو سلبية أو محايدة..

- لم أفهم..

- خذي هذا المثال والذي يحدث يوميا في المختبرات العلمية. لاستحضار دواء جديد لعلاج حالة ما في عضو ما، الدواء إما أن يكون تأثيره ايجابي على المريض فيشفيه، أو سلبي فيزيده سقما، أو

أن لا يكون له أي أعراض جانبية على ذاك العضو على الإطلاق..

- هذا أمر واضح وسهل..لكن ما علاقته بأن كل المقاييس البشرية ذات معنى مختلف عما تسميه بالميكانيكية المتغيرة وان وجودنا عبث ؟

- له علاقة كبيرة بالوجود وظواهره. لنبدأ من النهاية..مثلا توصل كثير منكم على أن عبادة الرب هي سبب الوجود والمحور الذي يحرك حياتهم لذلك يلتفون حول تلك الأيدلوجية..إذا استخدمنا تلك الفرضيات الثلاثة كيف ستكون النتيجة؟

- سبب الوجود أو العبادة أثرت إيجابا على البشر، أو أثرت سلبا أو أن لا دلالة لتأثير ذاك السبب على المسيرة السرمدية..أهذا ما كنت تطمحين للوصول إليه يا عشتار؟

- نعم و لا..لأن العبادة نسجت بمفهوم إنساني محدود الأفق، بينما الوجود ظاهرة كونية ذات أبعاد سحيقة لم تعرف نهايتها ولا بدايتها بعد، وبطريقتك تلك كأنك تحاولين تطويع الكواكب الضخمة الجارية في ذاك الفضاء الأبدي، لتسير في الأزقة الضيقة للحي الذي كنت تقطنين فيه! لكن تجاوزا و من أجل أن يستوعب دماغك الفكرة لنواصل الحوار..الآن في نظرك يا ليلى أي الافتراضات أقرب الى الواقع؟

- لا أدري..أنا متعبة قليلا..وأنت ضيعتِ ذهني في متاهات دون معنى بأطروحتك تلك التي لا أصدق حرفا واحدا منها..

- جميل يا ليلى هذا ما وددت لك أن تتوصلي إليه منذ لقاءاتنا الأولى! "فإن كل ما في الحياة هو صيرورة دائمة لا تهدأ، ولا يمكن أن تتعايش الصيرورة مع الثبات، وإنما يمكن أن تؤول هذه

الصيرورة إلى ثبات إلى الهدوء التام في حالة الانطفاء الكامل(النيرفانا)" ليلى لا تلتهمي الأمور بطواعية وتسيري خلفي كفيلة السيرك وخيوله حين تتبع أوامر موجهها، ولا تبتلعي ما يدور حولك من مفاهيم فكرية دون غربلتها على محكات علمية موثوق بمصداقيتها. لأن كل ما قيل وما سيقال، وما كتب وما سُيكتب، صيرورة وليس ثبات دائم لذلك هو مطروح للنقاش والتداول، ومعرض للقبول أو الرفض. هذه حقوق البشر الشرعية التي لابد لهم أن يعوها ويزاولوها كل يوم بحرية، كي لا يتحولون الى خامات معدة مسبقا لكي تصب في قوالب رثة. فيعيشون طوال حياتهم أجساد تحركها أرواح الأموات.الآن دعينا من هذا الحوار يا ليلى، بما انك متعبة سنواصل حديثنا لاحقا، فأنت تبدين انك في حاجة ماسة الى الراحة والانزواء مع الذات..فإلى اللقاء

– الى اللقاء..

تستمر تحدث ليلى نفسها :

– آه ليتك يا عشتار تكفي عن مخاطبة المستور والتحرش بخباياه المحرضة على التمرد. لقد تعبت من النبش في كل هذا الزخم المكتظ بالغموض والسرية..سئمت من فوضى المعتاد..لا أريد كل هذا الهم الثقيل أن يعتلي صهوتي كل مرة. أريد فقط أن أعيش في أمان وأتمتع بهدوء الذهن وصفاءه مثل أخواتي زهرة ومريم..أريد أن أكون مثل سائر الناس أقضم الموروث وألوكه دون عناء، ومن غير وجع الرأس هذا..يا ترى هل بعد أن قطعت كل هذه المسافات سيتسنى لي يوما سلوك طريق العودة؟؟ هل ليلى البسيطة في تفكيرها وطموحاتها ما زالت تنتظرني في مكان ما؟ لا أدري..لا أدري..

دار الترهيب والتلقين

عصفور الشجر خير ألف مرة من عصافير اليد

عاود الكابوس المزعج زيارة ليلى وهي تصارع ويلات غيبوبتها، فرأت نفسها في المدرسة وهي واقفة مع رفيقتها سميرة أمام طابور المدرسة الصباحي والفزع متربص بهما. كانتا ترتديان الزيّ المدرسي الذي يكسي كل تضاريس الأنوثة في جسديهما. فضفاض طويل، وذو لون كحلي قاتم وأكمام ساترة. دُعيت ليلى وسميرة في ذاك اليوم للامتثال أمام كل من هب ودب في المدرسة بسبب أمر شنيع اقترفتاه لكنهما لم يعرفا بعد ما هو.

مدرسة ليلى الابتدائية كانت بيت متهالك البنية يوجد في حي يبعد عن بيتها بربع ساعة مشيا على الأقدام. كانت المدرسة مكتظة بالفتيات صغارا وكبارا. الطالبات مكدسات في غرف البيت المدرسي

بطريقة تشل الحركة. كان التعليم ما زال يحبي في البلد آنذاك، لذلك أعداد التلميذات كانت مهولة، لأنه لم يحدد بعد سنا قانونيا لدخول المدرسة، بسبب الأمية المتفشية بين الناس. كانت الحكومة تجلب الطاقم التعليمي بعقود طويلة الأمد من الدول العربية المجاورة لكي تنشر التعليم وتكافح الأمية.

ليلى وصديقتها سميرة مازالتا ترتجفان واقفتان على أحر من نار تتلظى، تنتظران العقاب. متلهفتان بخوف شديد للتعرف على جريمتهما. أتت مديرة المدرسة الشامية الجذور والسحنة، حاملة وجها شرساً وعيونا تشع غضبا وترهيبا. تلك المرأة التي لقبها الطالبات بالإبليسة لم تستدل الابتسامة يوما على وجهها. لا تعرف سوى أن تصرّخ وتلعن وتصب جام غضبها على الصغيرات في المدرسة.

ألقت المديرة نظرة ازدراء على ليلى وسميرة ثم صفعتهما بكفوف متلاحقة على وجهيهما البريئين وهي تشتمهما وتتهمهما بعدم الحياء وقلة الأدب. ليلى لم تشعر بشيء في تلك اللحظات من شدة الخجل، لأنها كانت المرة الأولى التي تضرب فيها، منذ أن التحقت بالمدرسة قبل ثلاثة سنوات. ليلى طالبة مجتهدة في الصف الثالث، لم تخفق يوما في أداء واجباتها. ترتيبها في الصف دائما الأول وأخلاقها عالية. فهي طفلة مهذبة ومطيعة. كانت تحفظ كل ما يُلقن إليها دون أن تسأل أو تتقاعس. لم تمس قط الخطوط الحمراء ولم تتخط حاجزا. أيضا صاحبتها سميرة كانت على نفس الدرجة من الخلق والمثابرة. لكن كل تلك السيرة النضرة لم تشفع لأي منهما بشيء.

بعد أن انتهت المديرة من صفع الصغيرتين ليلى وسميرة، وتركتهما ومسحة الذل والانكسار قد كست ملامحهما، دارت ظهرها عنهما والتفتت إلى طوابير المدرسة، وبدأت تخبر الموجودات من طالبات ومعلمات عن الجنحة الفظيعة التي جرت بالأمس في أروقة المدرسة. يوم الجريمة كان يوم الاحتفال بعيد الأم. وكان نظام المدرسة في ذاك اليوم أقل حزما وصرامة لأنه لم يكن يوما دراسيا عاديا. لذلك ليلى وصديقتها سميرة قررتا بدافع طفولي ساذج، أن تستكشفا مبنى المدرسة. صعدتا إلى الدور الثالث والذي كان سطحا وذو حيطان منخفضة بعض الشيء. أخذن نظرة على المكان وعلى الزقاق ثم عادتا إلى الحفل. أثناء ذلك رأتهما إحدى الطالبات ودون علمهما فبلغت إدارة المدرسة، وحل بهما ما حل بهما في صباح اليوم التالي.

بقيت ليلى وسميرة بعد ذاك الضرب والتشهير المهين لنصف نهار، واقفتين على قدميهما الصغيرتين دون راحة دون أن يقدم لهما أكل أو شرب. ذلك كان مشهدا واحدا من مشاهد أخرى شنيعة تحدث يوميا تحت سقف المدرسة..فالحاملات لأمانة التعليم كن يعاملن الصغيرات كالمستعبدات الرخيصات، دون أن يكترث أحد بآدميتهن. يظل "من علمني حرفا صرت له عبداً " هو النهج المتبع في تعامل المعلمات لتلميذاتهن. بالرغم من أن المعلمات جميعهن عربيات، لكن معظمهن كن كالمستعمر الذي يحمل أجندة خراب الأرض وسحق إنسانية من عليها من البشر.كانت الواحدة لا تنادي على طالباتها سوى بألقاب بذيئة..مثل حمارة وكلبة ومتخلفة.. يُضربن التلميذات على أتفه الأمور حتى إذا كان السبب أنهن لا يفهمن اللهجة، وأحيانا

تسيل الدماء من أيديهن الغضة من شدة الضرب. مرات كثيرة يترِكن التلميذات المعاقبات يرتجفن في البرد، لأنهن لم يؤدين واجباتهن. أما إذا أخفقت إحدى الطالبات في تحصيلها الدراسي فتلك هي الطامة الكبرى، حيث يعلق على ظهرها طوال الأيام علامة مكتوب عليها عبارة "أنا كسلانة" أو "أنا فاشلة" حتى يعرف الجميع عنها وعن إخفاقها .

رحلة التعليم بالنسبة لليلى وغيرها كانت رحلة شائكة محفوفة بالمخاطر. كانت منهجية المسيرة التعليمية مسخ لذات التلميذة وسحق تقديرها لآدميتها. المعلمات ذوي السمات الإنسانية كان تأثيرهن باهت على سير النهج التعليمي في تلك المدرسة،لأنهن كن قلة جدا حيث كان مجموعهن لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة..

المدرسة هي عبارة عن مؤسسة ترهيب وتلقين وتعليب تمثل حال البلد كله. فيها سلطة مركزية متعنتة، ذات قبضة فولاذية. الحاشية والمعلمات يتبعن ما يطلب منهن وبعنف أشد أحيانا، من أجل كبح جماح الصغيرات واجتثاث أي شعور في الداخل يوحي لهن بقيمتهن وكينونتهن كبشر. كل متعسف مستبد يحتاج إلى جهاز مخابرات للتصنت على المستبد بهم، ليمكنه من استتباب الأمن واستمرار جبروته على رقاب الضعفاء. حتى ذاك الأسلوب من التسلط كان موجودا فيما يسمى بدار التعليم، فهناك جاسوسات من الطالبات أنفسهن مسلطات على زميلاتهن يتابعن تحركاتهن ويراقبن سلوكهن. بالطبع في أي نظام فاشي المعادلة لا تكتمل سوى بخراب

النفوس وتفاقم الفساد الإداري. فهذا النمط من الفساد يحدث في المدرسة أيضا، وذلك بتلاعب المعلمات في أدائهن وعملهن، والسلطة العليا تبارك لهن ذلك. التلاعب بالحقائق دائما يجمل صورة السلطة الديكتاتورية ويلمعها. كانت المعلمات يبرنّ بناتهن ومن يعرفن من التلميذات بالصلاحيات والدرجات العالية. أما حين تكون هناك زيارة لمفتشات من جهة عليا، تُجمع كل المتفوقات في صف واحد ويدعون الزائرات لحضوره، كي يظهرن أن المدرسة تنشأ جيلا ناجحا ومتميزا..

تصاب ليلى بأرق في غفوتها، فتحاول أن تبعد كابوس المهانة ذاك عنها، تنادي على عشتار..بصوت مبحوح حزين :

– عشتار ..عشتار..أين أنت؟

– نعم يا ليلى ..أنا هنا معك..

– تبا لتلك الذاكرة العفنة..عاودني ذاك الكابوس مرة أخرى..حيث كنت سجينة تحت رحمة أيدي نساء لا تعرفن الرحمة...

– السجن أشد ألما من الموت على الأرواح الطليقة..لذلك حين تُسجن العصافير تنتحر أو تمتنع عن الإنجاب. كتعبير بالاحتجاج عن رفضها للأغلال..تلك القدرة على رفض الحبس ألهمتهم بها الطبيعة..

– ويقولون عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة..

– هــؤلاء الـــناس الذين يبجلون عصفور اليد هم بشر مدمنون علـــى القـــيود ومستعبدون للمألوف البليد. يرون الطموحات القريبة الســـهلة المـــنال هي الخير كله، لأن رؤاهم لا تبصر أبعد من أرنبة أنوفهـــم. لذا يؤمنون أن ما تمسك به اليد من عصافير حتى لو كانت سقيمة، أفضل من العصافير الحرة على الشجرة..

– لكن في الحب يختلف الأمر يا عشتار فعصفور اليد لا يطربنا تغـــريده. تكـــون في داخلنا لهفة مستديمة في محاولة صيد عصافير الأشجار والتي تحلق بعيدا عنا..أليس ذلك بأمر محير؟

– هـــذه ســـمة البشر الجميلة والتي تسَحق دائما بحجة الفضيلة والأخلاقـــيات. الإنســـان الذي يحتفظ بتلك الملَكة عاشق ببطاقة ذات صـــلاحية دائمـــة. هؤلاء الناس كالزهور اقتنائهم يسبب لهم الذبول والاحتضـــار.. مؤسسة الزواج بالصورة التي عليها اليوم هي بمثابة الرماح التي تدمي الحب المتجدد وتصيبه بضربات مميتة..

– اذا من الأفضل أن لا ندخل أقفاص الزوجية!

– ولمـــاذا لا تقوليـــن من الأفضل أن تعاد صياغة تلك الرابطة الإنسانية..؟

– لكـــن يا عشتار في نهاية المطاف..نحن البشر نصاب بالملل مـــن الموجود بسرعة، وهذا ما يحدث للحب بعد الزواج، بأي شكل كان فإنه يصدأ ويتآكل مع زحف الأيام..

–هـــل هو بسبب الملل أم بسبب طبيعة العلاقة..؟؟ لماذا العلاقات الإنسانية الأخرى على قدر أكبر من النجاح..؟؟

– أي علاقات؟

– علاقـــتك بـــإخوتك بوالدتك بأفراد أسرتك..علاقة الأم بفلذات كبدها..

– لا أدري..هـــي عمومـــا تختلف لأن الجسد ليس طرفا مزاحما فيها..

– تعني العلاقة الجسدية؟

– نعم

– أليس من المفترض أن الشبق يزيدها جمالا وتوهجا؟

– ربما لكنه يملي علينا التزامات صعبة أحيانا

– هـــذا أنـــت نطقـــت بها..ثمة أملاءات صعبة في علاقة الحب المســـيج بالـــزواج، بينما الروابط الأخرى لا تحكمها الأغلال وليست معرضـــة لغـــرف التحقيق ولجان المراقبة..لست مطالبة بشيء تجاه أولـــئك الأفراد المحبين لك ولست مسئولة..أنت طرف حميمي يتدفق دون قيد أو شرط..لذلك تلك العلاقات حلوة ومثمرة..

– البشر قادرون على أن يشوهوا حتى أجلّ شيء في الحياة

– ربمـــا يا ليلى لأن الناس مازالوا يبحثون عن النقاط ليضعونها علـــى حروفها.. هم في حاجة أن يقرأوا الأمور قراءة صحيحة وذاك لن يحدث إلا حين تكتمل السطور بكلماتها ونقاطها...آلاف السنين التي خلـــت لـــم تـــنه سوى سطور قليلة متكاملة..أوقفت الساعة الناس..ما ينـــتظره البشر من السماء هو موجود على الأرض.. السماء لا تزيد حـــياة البشـــر خيرا ولا تنقص من الشر المتربص بهم. عليهم هم أن يبحـــثوا بأنفســـهم ليصلوا إلى حالة من التوازن عن طريق الحرص والاعـــتدال. فالـــتوازن الكـــامل أســـمى اللذات، وأرفع علاقة بالذات الإنسانية..

استأنست ليلى لعبارات عشتار التي أحست فيها ببديهية المنطق وسلاسته. كأنها ارتاحت لأول مرة لما دار بينهما مما جعلها تطمئن بعض الشيء للنقاش الذي دار بينها وبين عشتار..عامت ليلى ببالها كلمـــة نقاش ..وتذكرت ما سمعته يوما من حبيبها سامي، أنها مشتقة مـــن نَقَش..وحين ينقش الصخر يزدان ويظهر بلباس جذاب ويصبح أكـــثر وســـامة.. وبالتأكـــيد النقاش المجدي أداة جيدة لتجميل العقل وتحسينه.. كما نقشت عشتار بأفكار مثيرة في ذهن ليلى وخلقت منها أنثى حية تعرف كيف تعيش الدهشة وتنعم بها.

هدأت ليلى وارتاحت أنفاسها، وزال استجداؤها للسكينة وخلدت لنوم لم تحسه من قبل..

ربـاب

اللون المتميز يبدد الألوان الباهتة كالأنثى المتمردة تبدد الأذهان المعتمة

حيـــث كانـــت ليلى كما هي! ممددة على السرير تقرأ تفاصيل زنزانـــتها البيضاء، فإذا بطيف ذاكرة قد حضر إليها..وعالم الحاضر قـــد غـــاب عـــنها.. فـــترى نفسها خارجة كعادتها لفسحتها اليومية الاستكشافية مع صاحبها الوفي محمد. فبعد أن غادرت والدتها البيت ذاهـــبة لإحـــياء مأتمها الحسيني الصباحي، خرجت ليلى لتتسكع مع محمد في الحارة وبين أزقتها.

لـــيلى ومحمـــد يقومان بجولاتهما اليومية في الصباح الباكر، خاصـــة فـــي أيام الصيف قبل أن تشتد حرارة الشمس ولا يجدان ما يحميان أقدامهما به من الأرض الحارقة. ليلى لا تمتلك دائما نعالا أو

خفا لقدميها الصغيرتين، لأنهما ينموان بسرعة ووالدتها لا تتابع ذلك بسبب كثرة مسؤولياتها.لذا تضطر ليلى أحيانا في أيام "القيظ" الحامية أن ترتدي نعال قديمة رثة ورثتها عن أختها مريم وان كان مقاسها لا يناسبها.. مرات تعيقها عن الركض والقفز بخفة، لذلك تفضل أن تمشي حافية القدمين عوضا عن ارتدائها.

مشت ليلى مع محمد في أزقة الحي الممتلئة بالأتربة الناعمة التي كلما خطى أحد عليها تطاير الغبار في الهواء بعشوائية مزعجة. مرا بجانب أوساخ متراكمة ملقية في زوايا نتن بين البيوت.كلما اقتربا ازداد أزيز الذباب حيث أفواجه تتطاير حول بقايا الأطعمة المرمية على الأرض.دائما فضلات الأكل تبقى متناثرة في كل مكان بسبب العبث الليلي للقطط الجائعة والفئران المتطفلة. تظل أكوام القاذورات تتكاثر لعدة أيام قبل أن تُجمع وتُنقل خارج المنطقة السكنية. هناك رائحة خاصة تنفث من حيطان البيوت ذات نكهة غريبة. ربما لأن معظم المنازل مشيدة بالطين المدعم بجذوع النخيل. يظهر هندام المساكن غير متناسق ومترنح، وبعضها مطلي من الخارج بالأسمنت ليسند قوامها المترهل. في مواسم هطول الأمطار كثير من تلك المساكن تتضرر وتتهدم ويجتاح المطر غرفها.

سارت ليلى بخطوات ثابتة حيث كانت تتحدث لمحمد عما سمعته في آخر مأتم حسيني حضرته مع والدتها قبل يومين عن جارة جديدة في الحارة. أخبرها محمد بأنه يعلم أين تقطن تلك الجارة. وأعلمها أن بيتها موجود في نهاية الزقاق المحاذي لبيت

ليلى. حيث يلتصق جدار بيت تلك الجارة بجدار "الحوش" الساحة الترابية الكبيرة. ليلى ومحمد مشيا معا بهمة كأنهما مرسلان لأداء مهمة رسمية، فقد قررا أن يتوجها بسرعة إلى ذلك البيت كي يتأكدا إن كان فيه صغار ليتعرفا عليهم.

كان باب بيت الجارة الجديدة مُشرعاً على مصراعيه. قربا منه ولمحا امرأة جميلة في الداخل ترتدي ملابس لم يريا مثلها من قبل. هذه هي الجارة الجديدة الشابة رباب التي تبدو أنها تقف على أبواب العشرين من عمرها، ولكن لم تطرقها بعد. مر تقريبا شهران منذ أن انتقلت تلك الحيزبون إلى الحي، لكن سمعتها وصيتها لا تخفيان على أحد.كل نساء الحارة يتحدثن عنها بغيرة ولهفة في تجمعاتهن التي تعقد بعد الانتهاء من العزاء الحسيني. سمعتهن ليلى عدة مرات وهن يصفنها بتعجب وحسد من جاذبيتها . جمالها الفاتن يخلب عقل كل من رآها. لها جسم طويل وقد شامخ . ترتدي ملابس غريبة بالنسبة لأهل الحي، لأنها لا تلبس الدراعة مثل كل النساء. تلك "الدراعة" ما هي إلا فستان طويل واسع يخفي جماليات جسد المرأة ويطفئ سحر مكنوناتها. رباب امرأة من طراز آخر. تختار دائما ملابس ذات ألوان زاهية وأخاذة. تتكون ملابسها من قطعتان سروالا وبلوزة أو أحيانا تستبدل السروال بتنورة. زيي لم يعتد على رؤيته أحد على أي امرأة من قبل.

السراويل التي ترتديها رباب من النوع الضيق جدا يضغط بشدة على ساقيها ويلف بلذة فخذيها المتأججين، حيث يظهر بروزا بينهما

من الأمام والخلف، يثير خيالات مكبوحة لدى من يلمحه حتى لو كان من الصغار.. وإذا ارتدت تنورة تكون من الطابع القصير حيث تحط أطرافها على مشارف ركبتيها الناعمتين السمراوتين، ويكون قماشها من الخامة اللامعة تنسدل باستحياء على أردافها الممتلئة.. وتأتي بلوزة مفصلة على تقاطيعها تعانق تضاريس جسدها العلوي المشتعل بلهفة..تغطي بلوزتها بخجل بعض من نهديها الصارخين بينما تكشف معظم معالمهما..حلمتاها القافزتان بتمرد تحدقان من تحت أرديتها بشبق في عيون الناظرين إليهما، يكادان يفضحان كل من يحاول غض الطرف عنهما. بشرتها سمراء ذات مذاق مختلف. شعرها أسود كثيف متموج يتدلى على كتفيها المشرئبان بفتنة شبابية عارمة. وجهها دائما مطليا بأصباغ مثيرة. شفتاها حمراوات تبعثان لذة كلما رطبهما لسانها بلمسته الخاطفة. خداها يميلان إلى لون الزهور الوردية يدعوان برغبة حارقة لتقبيلهما. يسكن في المنطقة التي بين عينها السوداوية وحاجباها لون ازرق بلون السماء تغيره بين الحين والآخر يتناسب بحميمية مع ما ترتديه. وجهها حالم يبعث في نفوس المحدقين إليه طراوة الطبيعة ونشوتها ويوقظ نزوات خامدة عند الرجال وغبطة وقلق عند النساء..إنها امرأة من عالم آخر لا أحد يعرف عنه شيئا في هذه الحارة البائسة..

لمحت رباب ليلى و محمد وهما يطالعانها بإعجاب ودهشة عيونهم الصغيرة البريئة تفضح ذلك بوضوح. وجهت رباب ناظريها نحوهما فشعرت ليلى بفزع وبقيت في مكانها، بينما محمد فرّ هاربا خوفا من أن يراه أحد متلبسا بخطيئة النظر إلى امرأة فاتنة يحرم عليه رؤيتها..

لم ترَ ليلى من محمد شيئاً في تلك اللحظة غير آثار أقدامه العارية على التراب..وشعرت بلفح غبار خلّفهُ من وراءه.تسمرت ليلى في مكانها وهاهي رباب المرأة الشابة الذي سحرها شَغَلَ عقول نساء الحارة قبل رجالهم قادمة إلى ليلى، وهي تقترب منها بخطوات مترنحة تسمع صوت نغمة ما آتية من قدميها..إنها ترتدي نعالا يصدر إيقاعا خاصا كلما خطت..ذو لون ذهبي مشع..ينخفض من الأمام بينما يرفع قدميها الصغيرين من الخلف ليزيد طولها طولا فذا. ذهلت ليلى عندما رأت أظافر قدمي رباب مطليين بلون أحمر. صار صوت إيقاعها المترنح يعلو شيئا فشيئا كلما تقدمت بهمة ناحية ليلى .تكاد ليلى تسمع صوت دقات قلبها تتنافس مع صوت نعالها الجميل وتتزاحم معه في الارتفاع.. قدما ليلى لم يعدا ملك لها ولا تدري كيف أضاعتهما، فهما غير قادران على حملها والتحرك بها بعيدا عن هذا المكان. كانا جامدان تماما كأنهما صنعا من الخشب. فخداها صارا يرتجفان بشدة وأطرافها تجمدت من صقيع ما أصابها.. بينما وجهها يتصبب عرقا ونفسها بالكاد تسحبه من رئتيها المتصلبتين.. وإذا برباب تبادرها بابتسامة عذبة وتلقي عليها التحية.

– هلا والله وغلا..تعالي ادخلي..ما اسمك؟

لم تستطع ليلى أن تحرك شفتيها عن بعضهما البعض كي ترد لها تحيتها..وتجيب على سؤالها. شفتاها التصقتا فجأة حتى شعرت وكأنها ولدت بشفة واحدة. لم تعد تشعر أنها تمتلك مهارة الكلام..زادت خوفا وخشية..وإذا برباب تمد يدها إلى ليلى، حيث بانت أظافرها المخضبتان بالطلاء الأحمر، وأصابعها مكللة بخواتم ذات فصوص ملونة. بينما يحيط برسغها أساور من ذهب

لامع..أغمضت ليلى عيناها حتى لا ترى ما ستفعله رباب بها تمنت أن تختفي أو أن تنشق الأرض فتبتلعها في تلك اللحظة..

ولـــيلى كانـــت غائبة في أمنياتها انتـــفض جسمها بشدة عندما لامست يد رباب رأسها وهي تتحدث بصوت ساحر:

– ما بك ..هل أنت خائفة يا حلوة مني؟؟

بعدها سمعت ليلى رفيقها محمدا يناديها بأعلى صوته :

– ليلى..اهربي هيا اشردي يا ليلى..

شـــيء مـــا انتشل ليلى من بين يدي تلك المرأة الفاتنة، فجرت مســـرعة لأول مرة شعرت ليلى أنها تسابق الريح حتى وصلت إلى آخر الزقاق وهي غير مدركة أسباب هذا الفزع والخوف كله. أمسك محمـــد بـــيد رفيقته الخائفة وركضا سويا..إلى أن وصلا إلى البيت واتجهـــا إلـــى مخبـــئهما في دار الحطب وجلسا على الأرض وهما يلهثان كالحيوانات الصغيرة المذعورة..

عـــادت لـــيلى من عالمها وفتحت عينيها المثقلتين بالسهر وهي تتساءل..

– مـــا هـــذه الـــيد الـــباردة؟ آه ممرضـــتي الكريمة..شكرا لك لإيقاظي..نعم ..أنا في حاجة أن تدلكي لي هذا الجسد الخامل..أرجو أن لا تنســـي تغيير قطنتي ..لأني اشعر بسخونة الدم وهو يندلق من ثلاثي المقدس.. لا ادري لماذا لا تعفيني الطبيعة من تلك الهبة؟ أنا

لا احلم بزواج آخر كي أفكر بإنجاب أطفال ليذوقوا ما ذقته من شقاء هـــذا العـــالم وبؤســـه.. لا أريد هذا النزف الشهري أن يستمر وأنا طريحة الفراش...

حالة الحيض التي تمر بالأنثى ألصقت بها طابع "التابو" في كثير مـــن الأديان والمجتمعات. الحائض تتحول لعنصر نجس ومنبوذ حتى تنتهـــي مدة الحيض ومن ثم "التابو" يزاح عنها. في القبائل البدائية في اســـتراليا قتل رجل زوجته حين تمددت على فراشه وهي حائض. أما فـــي قبائل الامريكين الأصليين حين تحيض الفتاة للمرة الأولى تُعزل فـــي كوخ ويُمنع على الذكور زيارتها إلى أن "تطهر" من رجسها. في الـــيهودية تعد الحائض كائن قذر ولا تقبل منها طقوسها الدينية.أما في الإسلام حين تحيض الأنثى لا تُقبل منها أي نوع من العبادات، ويُحرم عليها مس القرآن، ويهجرها زوجها في المنام.

تذكـــرت ليلى حين نزفت للمرة الأولى، كان عمرها ثلاثة عشر ســـنة. لـــم تخبرها والدتها بشيء عن تلك الدورة الإلوهية الخاصة بالأنثى ولم تكن تعلم شيئا عنها. كانت في صفها المدرسي وشعرت بســـيولة ســـاخنة تنســـحب بنعومة من ثلاثيها المقدس وتسيل على فخذيها. تعجبت من نفسها..شكت أنها تبولت دون أن تحس. لم تتجرأ أن تســـأل المعلمـــة بالســـماح لها بالخروج، لأنها كانت متأكدة أنها ستغضـــب و ربما ستتهمها بالتسيب والدلع..صبرت لثلاث حصص متتالـــية وهـــي تنزف دون أن تتحرك من مقعدها. بعدها أتى وقت الفســـحة فنهضت و تفحصت زيها المدرسي وإذا به ملطخا بالدماء. ارتعبت و تصورت أنها ستنزف حتى الموت..بكيت وبكيت والتمت

حولها الطالبات ودموعها تهدر بغزارة. كانت تتمزق خوفا و جزعا بين زميلاتها وقلبها يغدق عليها بالمشاعر الموحشة. بعض التلميذات اللاتي عشن التجربة حاولن أن يخففن على ليلى مصابها لكن لم يكن لديها القدرة على سماعهن. بعدها أتت المراقبة من الادارة وصرخت في وجه ليلى و وبختها بشدة كي تكف عن البكاء. كادت أن تصفعها لكنها ترددت في اللحظة الأخيرة. لملمت ليلى حزنها وصمتت كي لا تعاقب على اندلاق مشاعرها الطفولية بهذه الخصوبة. بعدها طلبت منها تلك المسئولة البشعة أن تغتسل في الحمام ومن ثم أرسلتها إلى البيت..

حين وصلت ليلى إلى البيت بكت أكثر بين أحضان أمها حتى جفت النفس و نضبت الروح. في عالم أنثوي مخصي حتى لحظات النضج والبزوغ تتحول إلى مأتم عزاء..كان من المفترض أن تكون تجربة اكتمال دورتها الأنثوية مكللة بأهازيج الفرح والسرور، لا بسياط الألم والخوف..

صاحت ليلى وكأن الحدث للتو حصل :

– تبا لهذه حياة..يا لها من حياة بلا مذاق ولا نكهة..آآآه كم أنا بحاجة إلى دعوة للبكاء. أين مني مأتم حسيني أو حائط المبكى؟ أود أن أسكب كل همومي على الزوايا وأتخلص من سقم الذاكرة..أريد أن أذرف أوجاعي خارجا وأحرر النفس منها..

وبينما كانت ليلى تصارع آلام ذاك التصدع النفسي الذي ألمَّ بها وهي طفلة، أتت ممرضة لتمسح دماء ليلى وتنظف عضوها القدسي النازف وتقوم لها بالواجب على مضض...

سمات

التجرد من الذات عتق مبهم الأبعاد يهابه السواد الأعظم من الناس الذين هم عبدة الموروث و إماؤه

يوم متحامل على نفسه ..هاهو أتى موعد تدليك ليلى. تمددها الممرضة على السرير وتجهزها لإعادة قليل من الحياة في جسدها. ليلى تحدق بإمعان في تضاريس مدلكتها.ترسم ليلى ابتسامة رضا دون أن تظهر آثار لها على وجهها. لأنه مازالت كل أجهزة التحكم في جسدها معطلة.. تحاكي ليلى الممرضة في داخلها..

– جميلتي الحبيبة.. باشري عملك حالا ابتداء بأطرافي..أتدرين أن سحر أصابعك يا ممرضتي الناعمة تغنيني عن العالم بأسره؟ ليتك تسمعيني يا ممرضتي السمراء الصامتة..ليتني ابني جسور محبة كي توصلني بك؟ آه يا أنثى الرحمة.. هل لديكِ أحلام مثلي؟ هل أملتك الدنيا بحياة بهية؟ هل لك أحد هناك ينتظرَ قدومك على

الضفة الأخرى؟ أخبريني ماذا ستقدمين له حين تلتقين به؟ اسمعي يا حبيبة إن كنت تعشقيه بالفعل، لا تشحي عليه بشيء.. هل لك نية أن تهبيه جسدك..وروحك وكل ما عندك..؟ صدقيني كل ذلك لا يكفي! لا بد أن تعطيه كلك من أجل أن تكتمل بينكما الهالة العشقية.. اعبديه فهو مولاكِ تماما كما أنت مولاته.. هبيه بتلاتك الوردية وهي مغلفة بتلافيف شَبق ألولهي..دعيه يتلمس شؤونك الصغيرة ويحتضنك بأحلامك الكبيرة.. امنحيه أحاسيسك كي يرتشفها ومشاعرك ليلعقها حتى تدغدغ فؤاده وفؤادك..ليأخذ كل شيء حتى التافه منك..انشغلي به واشغليه بك..كوني له أسطورة الكون والفردوس، بددي نفسك من أجله دون ندم.. متعيه كغجرية مغموسة في غنج ودلال..كوني محمومته التي لا ترغب سوى وصاله.. اهديه النفيس والرخيص، ولا تنسي أن منه وبه تتمكن روحك من التحليق بنشوة.. تبركي بتضاريسه.. تجولي بين هضابه ووديانه..اصهري حبيبات قلبك المنهمرة بين راحتيه.. ذوّبي أناتك فيه بعفوية حتى التجلي دون أن تتساءلي أو تترددي.. لأن تلك هي قمة الذروة يا سيدتي.. اتسمعيني يا حلوة؟ أجل تلك هي ذروة الإنعتاقِ التي أفتقدها كل يوم عندكم في زنزانتي هذه..آه..دعي أناملك تنعش شراييني بطعم الحياة ولو لدقائق..فأنا مقبلة على مرحلة جديدة يا ملك الأرض المعطاء..أنا راحلة..نعم سأحمل أمتعتي وأرحل..هناك قطار ينتظرني عند محطة ما..ربما اليوم أكون هناك..وربما بعد شهر .. أو ربما بعد سنة.. لكني بالتأكيد سأدلف تلك المرحلة العمرية مستقبلا.. وسأنتشي بعواصفها ونسماتها.. برعودها وبسكونها .. بزخات أمطارها وبرذاذها..

– مبارك هذا التفاؤل يا ليلى.أصبحت تنظرين إلى الأبواب المفتوحة عوضا عن التحديق باستجداء في النوافذ المغلقة..

– عشتار ينعشني حضورك يا رفيقة العتمة..هل ستزورينني حين أتحول يوما ما إلى كائن بشري بمعنى الكلمة..؟

– أنت كائن بشري الآن يا ليلى

– نعم.. شكليا لكن جوهريا أعني جسديا أقرب إلى الموت من الحياة ..

– كنت في تلك المحطة من قبل لكنك اليوم في رحلة النهوض والقيام..

– نعم هذا ما أمني النفس به وأحسه..بالفعل ما أأمن به سأراه أليس كذلك يا عشتار؟

– نعم

– أتدرين يا عشتار؟

– ماذا؟

– تجتاحنا نحن البشر أحيانا خصال غريبة، ربما تكون مغروسة في جوارحنا منذ أمد طويل..دون أن نعلم بها. فعلاقاتنا الممتدة عبر العصور بالمخلوقات الأخرى جعلت منا بشرا "محيونين".

– ماذا تعني ببشر "محيونيين" مفردة لم أسمع بها من قبل؟

– حين كانت الكهوف مأوانا الوحيد الذي يحمينا من عالم كنا نهابه لأننا نجهله.. تلك الحقبة الزمنية العصيبة جعلتنا نلتصق برفاقنا الحيوانات وأبناء عمومتنا كما يفضل أن يسميهم البعض، كنا نرتدي سماتهم . أتدرين يا عشتار يقال حتى حرفي العين والغين في اللغة

العربية اقتبسناهما من الأصوات التي يصدرها الإبل... وان ذكور القرود في الجزيرة العربية يرافقن في حياتهم أربع إناث..هو الحد اقصى لهم .

– صحيح..؟

تلذذت ليلى بتساؤل عشتار فأجابتها..

– نعم، لم الغرابة؟ حتى طباعنا صارت مثل الحيوانات التي تغير جلودها. نحن أصبحنا نتشكل على حسب ما تتطلبه الأوضاع والمواقف منا..فأيام تمر علينا نتحول فيها إلى قساة كالضواري، وأخرى مخادعين وماكرين كالثعالب والضباع، أو أحيانا وديعين كالحملان، أو نشطين وفرحين كطيور الصباح مثلي الآن..لكني اعتقد بصورة عامة معظم تقمصاتنا أرنبية..

– أرنبية؟ مصطلح آخر لم أسمع به من قبل يا ليلى..

مرة أخرى تشعر ليلى بغبطة المعرفة فتكمل :

– أعني كالأرانب يا عشتار، لأن مجمل تحركاتنا ومواقفنا تنم عن الجبن والخوف وتصغير الأكتاف أمام الآخرين الذين نهابهم ونخشى مواجهتهم لسبب أو لآخر..

– يا ليلى يرجع ذلك لتعلق البشر الشديد بالحياة حتى لو كانت تلك الحياة مبتذلة ..فهم يغمضون عيونهم بإصرار ويغضون الطرف عن أمور قد تؤثر سلبا فيما بعد على حياتهم.

– نعم نحن المستضعفون تدربت حواسنا على تعاطي أفيون ما أقوى من "أفيون الدين"، فنمسي لا نبصر ما يدور حولنا، أو نراه بصورة مختلفة ونقنع أنفسنا أنه لا يعنينا.. متوهمين بأنه سيزول بيد إلهية أو أنه لن يمسنا بأذى.. وكالنعامة نتناول الأمور بجبن وسذاجة ..

فندس رؤوسنا في وحل التجاهل والنكران، وبطيبة غبية نعتقد أننا بهذا التصرف سننجو بسلام من هذا العالم الذي يزداد قتامة وظلاما يوما عن يوم..

– كلامك يا ليلى دليل على أن ما يؤمن به الناس يرونه.. فالبشر لديهم قدرة عجيبة على تحويل الأوهام إلى حقائق ومسلمات لا يجوز المساس بها بتاتاً..

– أنا الآن يا عشتار أحس أني صافية كمياه الأنهار المتدفقة من الجبال الشاهقة. مفرغة من شوائب إيمان العبيد ومحصنة من براثن كفر الصعاليك..أنثى مجردة من ترسبات الموروث المترهلة! لا احمل مشاعر خاصة لشيء أو لأحد بل لكل الأشياء، "فكل قطرة في محيطات العالم ثمينة" بالنسبة لي، وكل فكر إنساني نبيل مهم، وكل وجود لأي كائن من كان قيّم وضروري! أرى نفسي منفتحة ومستعدة لكل الاحتمالات ..للبقاء وللفناء..للحياة وللموت.. للدنيا وللآخرة.. للهناء وللشقاء.. للأرض وللسماء..كلها سأستقبلها بصدر رحب فسيح يتسع الكون بأسره..أليس ذلك هو أساس الإيمان منذ الأزل يا عشتار؟ أن نمثل اللا انتماء.. اللاشيء.. اللا وجود..

– بل ذلك الإيمان بالوجود كله!

– ربما الإحساس بالوجود وهو في أعظم تجلياته..

– هل أنت راضية بتلك المشاعر يا ليلى؟

– تمام الرضا..أعيش علاقة عشقية مع الذات جعلتني أحلق ببهجة في أجواء سرمدية ساحرة، أكاد ألمس الحقيقة المطلقة..

– جميل..لكن لا تدعي فرحتك بالوصول إلى تلك المرافئ تنسيك إنها تلك البداية لانطلاقة جديدة من اجل اكتشاف مكنوناتك

الأخـــرى. أيضا لا تغفلي عن أصول اللعبة..فأقدامك مازالت مثبتة على هذه الأرض الصلبة..

تعجبــت لــيلى من كلام عشتار فسألتها والجدية تكسي تقاسيمها فقالت :

– أية لعبة؟

– لعبة الحياة..

– ما هي أصولها؟

– أن تحتفــي بــالحلم ..وتعيشـــي اللحظة بكل أبعادها..اتركي الأمـــس يرحل بما حمل غير مأسوف عليه..ودعي الغد يأتي محملا بما معه دون التلهف إليه.. استمتعي بما أنت فيه..استطعميه بانتشاء ولذة..كما تفعلين الآن..

– نعم اللحظة هي لب المسألة...هي لب المسألة..

أطفـأت الممرضـــة النور ورحلت بعد أن أدت واجبها على أتم وجـــه وأخـــذت ضـــغط ليلى وسحبت عينة دم من عرقها، وتركتها ترتشـــف من سكون الليل وسكينته بروية وهدوء، بانتظار بزوغ يوم آخر كعادته يأتي متأبطا بشمس أنيقة متجددة..

المومس

الشرف جلباب فضفاض يزداد ضيقا واختناقا كلما قرب من جسد الأنثى، وبحبوحة واتساعا حين يرتديه الذكر

انـــه كـــان نهار جميل بالنسبة لليلى. فلقد حرروها من أجهزتها كلها، ربما بعدما تأكدوا أن أشعة الدماغ سليمة، تلك التي قد كانوا التقطوها لها قبل مدة. صارت ليلى تشعر بتحسن، تكاد تحس بسريان عـــبق الحياة في جسدها، تتمنى أن تبدأ بتحريك شفاهها ولسانها، كي تخـــبر كـــل من يرتاد غرفتها خاصة والدتها وأخيها إبراهيم، بأنها مـــتفائلة بالشـــفاء هـــذه الأيام. وإنها تحس أن جنة الدنيا ستفتح لها الأبواب قريبا.. لكن تلك المشاعر ظلت حبيسة بين جنبات ليلى دون أن يعلم أحد عنها..لأنها ما زالت سجينة وراء قضبان لا تقوى على كسره..

هاهـــي إحـــدى الممرضات المألوفة الوجه لدى ليلى، قادمة مع مجموعـــة مـــن الأطباء. يبدو أنهم سيتخذون قرارا هاما بشأن ليلى. تحـس انــه بقي عليها أن تكون أكثر إصرارا وهمة من اجل بلوغ ملذات الدنيا الحقيقية. استبشرت ليلى خيرا من ذاك الحضور الطبي في زنزانتها. كأنها سجينة سيفرج عنها. وقبل أن تبني ليلى عروش أمنـــياتها، تفاجـــأت من أن الوفد لم يطل زيارته لها. اجتمعوا عندها علـــى مضـــض، وتـــبادلوا أطراف الحديث ورحلوا. عاد ذاك الوفد الطبـــي مـــن حيثُ أتى، دون أن يوحي لليلى بأن أوضاعها سيمسها التغيـــير. حزن فطَر فؤاد ليلى لرحيل زوارها وخيبة أردت بحلمها قتيلا.. سخطت منهم وتذمرت قائلة :

– مـــا هذا؟ ماذا جرى؟ ما بهم هؤلاء العباقرة؟ خرجوا جميعهم دون أن يغيروا شيئا بحالي..إنهم بالفعل حمقى..تبا لهذا الطاقم الأبله..

بالـــرغم من ذاك الموقف المحبط للآمال إلا أن ليلى تمكنت من أن تحتفظ بذاتها الراضية عنها هذه الأيام.. فأخذتها معها إلى أحضان أيـــام غادرتهـــا منذ سنين غابرة، حيث قدم الصيف الحار بساعات نهـــاره الطويلة و لياليه الخانقة. الناس في هذا البلد يتجنبون الخروج من بيوتهم عند اشتداد سخونة الجو واحتدام لفحات رياحه. فضربات الشمس تصهر الأدمغة، حيث كانت تتسبب في موت الكثير، خاصة من الصغار والمسنين. لذلك الناس يتكاسلون في القيام بأعمالهم عند الظهـــيرة..ويمكـــثون في البيوت رغما عنهم ولا يخرج إلا من كان مضطرا لذلك.

اشـــتدَّ لهيب الشمس واختفى الناس من الطرقات، بعد يومين من ريـــاح "الطـــوز". تلك الرياح الموسمية التي تأتي على البلاد وهي محملة بالغبار والرمال الصحراوية. تهب على المدينة فتحول كل ما فـــيها إلـــى كـــتل مـــن الرمال الصفراء. حتى الناس تمتلىء أنوفهم وأعيـــنهم مـــنها.وكل مرة تصبح المدينة التي تقطن فيها خالية على عروشـــها، كأنهـــا مهجـــورة أو مكان للأشباح، لا يُسمع فيها سوى أصـــوات الرياح ولا يجوب في أزقتها سوى الأتربة المتطايرة. في هذه الفترات المومس رباب يزداد نشاط زوارها، ويكثر ارتيادهم لها فـــي تلك الأوقات، حيث تقل احتمالات أن يلمحهم أحد، في لحظات دخولهـــم أو خروجهم من عندها. لأنهم يدركون انه لو فُضِح أمرهم فسوف يفقدون كل شيء. ستمتنع الناس عن التعامل معهم بأي شكل مـــن الأشكال، لا يزورنهم ولا يرحبون بهم وحتى أبنائهم سيعاملون بازدراء. سيتلبسهم العار طوال حياتهم وربما الأجيال القادمة ستدفع الثمـــن كذلـــك، ومـــن ثم سيجبرون على مغادرة الحي دون رجعة والاختفاء عن أنظار أهله إلى الأبد.

حتى الآن رباب لم يُعرف بعد لأي فئة تنتمي، لكن الأمر لم يعد مهما، سواء كانت شيعية أم سنية، فهي المرأة الحيزبون التي اختارت أو ربما القدر اختار لها أن تسلك طريقا يرفضه الجميع. رباب امرأة قـــد تكـــون أكثر نساء الحارة معرفة وثقة، لأنها تُدرك جيدا ما تريد وتعـــرف كيف تصل إليه. تقتات كل يوم على تقاسيم جسدها الجميل دون خجل أو وجل. لها زبائن كثيرين من خارج الحي وقلة جدا من

داخلـه. الرجال الذين يترددون عليها معظمهم من أصحاب الذوات الذيـن يتقلدون مناصب في الدولة ويتبوأن مراكز حساسة في قطاع الأمـن. لكـن رباب لا يهمها كثيرا إن كان من يضاجعها ذو مركز مـرموق أم لا، طالمـا هـو قادر على دفع الحساب. أما زوجها أو قوادهـا كما يسميه أهل الحارة، تهمه هذه الأمور، لأنه يريد أن يبني شبكة حماية لنفسه ولمصدر رزقه الذي هو جسد زوجته.

فـي إحـدى الظهيرات الحارقة، أرسلت والدة ليلى ابنتها بطبق "مموش" مكون من الرز والعدس إلى امرأة فقيرة في الحارة تدعى أم الشـيخ . امرأة دميمة في الثلاثينات من عمرها تزوجت مرات عديدة معظمها كانت زواجات متعة. زواج يحدد بفترة معينة من ساعات إلى أيـام أو شهور او ربما سنوات. كل ذلك يدون في وثيقة عقد الزواج. زواج المتعة نقطة اختلاف كبيرة بين المذهب السني والمذهب الشيعي بالـرغم أن النبي مارس ذاك الصنف من العلاقة الزوجية في حياته واباحـه لأصـحابه وللمسلمين، لكن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حرمه وصار يتبع نهجه معظم مسلمي العالم.

تعـامل المرأة في زواج المتعة كزوجة شرعية وهذا ما حصلت عليه أم الشيخ حتى تنتهي المدة المقررة ويتم الطلاق.أغلب أزواج أم الشيخ من الملالي والشيوخ يتزوجونها بغرض دعمها ماديا وإعانتها علـى مصاعب الحياة. في إحدى المرات أنجبت تلك المرأة ولدا من زوج كـان شيخا مرموقا وذو صيت طيب في الحارة. تنبأ الناس أن ابنها سيصبح شيخا كوالده لذلك لقبوها بأم الشيـخ. حملت ذاك اللقب

طـوال حياتها مع أن ابنها متهورا يتصرف كالمعتوه ولم يتعلم حتى قراءة القرآن والسيرة النبوية.

بيت أم الشيخ قريب من بيت رباب نوعا ما. وكلما أرسلت أم ليلى ابنتها تحرص عليها وتذكّرها بصرامة، وأحيانا بنغمة تهديد، أن تتجنب العبور من أمام بيت رباب مع أنه الدرب الأقصر والأسهل لليلى.

فـي ذاك الـيوم وبعـد أن أوصلت ليلى طبق "المموش" إلى أم الشيخ، وهي تمشي بتلكوء في طريق العودة، شعرت ليلى بشيء ما يدفع قدميها ويحرضها على المرور عبر زقاق بيت رباب. كان بابها شبه مفتوح. رباب عادة لا تقفل بابها، لأن لا أحد يجرؤ على مسه، أيضـا لكـي تسـهل العبور لزوارها. والأهم لأنه ليس لديها شرف تخشـى على هتكه. فذاك القيد الشائك الذي يلف حول أعناق الإناث منذ الصغر قد هشمته ورمت به في عالم المهملات، منذ أن تحولت إلى عاملة جنس.

حرّض ليلى فضولها الطفولي على الولوج في تلك التجربة التي لـم تكن في الحسبان. وجدت ليلى نفسها تقرب شيئا فشيئا من بيت ربـاب، حتى وصلته.واذا بهاجس ما جعلها تدفع ذاك الباب الخشبي بهـدوء وتدخـل . أرادت أن تلقـي نظـرة أخرى على تلك المرأة الأسـطورية التـي لا يقـوى أحد حتى على رد السلام عليها. الكل يتوخى الحذر منها.

أصبحت ليلى في داخل بيت رباب، ثم بدأت تشعر برجفة وكأن طـبول حـرب تقرع بشدة في قلبها. أحست بثقل جسدها يتضاعف، ونفسـها ضاقت به رئتيها فتزايد تسارعه.تسحب ليلى روحها بخوف فـي ساحة البيت المكشوفة حيث تتسلل الشمس في من خلال عريش مـن الأخشـاب المتعاكسـة. تشكل سقفا عنكبوتيا يسمح بالنور أن يتخلـله. واصـلت لـيلى التحرك في الساحة دون أن ترى أحدا.ثم اتجهـت إلـى غرفة، يصدر منها تأوهات خافتة وأصوات غريبة. تلصصـت لـيلى بريبة لتسترق النظر، وإذا بها ترى رباب عارية تماما. ملقية على الأرض ممددة على ظهرها مغمضة العينين ورجل ضـخم يعتلـيها، يلز صدره بها ويضغط بكل ما أوتي من قوة على ثديـيها السمراوين، يلعق ويمص حلمتيها الصغيرتين ويعض رقبتها وأكتافها الناعمة، ثم يلصق جسده بجسدها الملتهب. يرفع رجليها تارة وتـارة أخـرى يـنزلها وهـو يجول ويصول في أحشائها بعضوه المتصـلب دون توقـف. يـنهض ويهـبط عليها بعنف.. وهي تأن وتـتأوه.. ويشتمها بكلمات بذيئة نابية.. ويردد "أحب انيكك بقوة يا قحبة؟ أحب انيكك بقوة يا قحبة؟"

صعقت ليلى من ذاك المنظر المقزز لكنها لم تصدر أي صوت. وبسرعة تفوق لمح البصر حملت نفسها المذعورة وخرجت مسرعة، وهـي مشوشة الذهن ومسلوبة العقل وفاقدة الحس. لا تدري إلى أين تـتجه، ومـاذا تفعـل. كانت مرعوبة بشكل غريب. الذعر يقضم إحساسـها بالاطمئـنان إلى العالم أو لأي شيء فيه. أحست بخوف

شـديد، كخـوف بريء متهم ظلما وبهتانا و قد حان وقت إعدامه. جـرت ليلى بسرعة البرق وهي ترتجف بشدة في عز تلك الظهيرة الحامـية. دخلـت بيتها واتجهت مباشرة إلى الزريبة واختبأت بين الأغنام الصغيرة. تمنت أن تختفي عن الوجود أو أن تتحول إلى أي مخلوق آخر حتى لو كان حجرا مرميا بين السفوح. صارت الأغنام تطالعهـا ثـم تواصل اجترار الأكل. مر وقت طويل إلى أن هدأت قلـيلا، فأدركت حينها لماذا والدتها تحرم عليها العبور أو الدنو من دار تلك المرأة الغريبة الأطوار! لكن ليلى لم تع لماذا تفعل رباب ما تفعله مع هؤلاء الرجال القذرين المتوحشين..

ظلـت لـيلى لفترة من الزمن وهي ملتزمة بالصمت المترقب. كانت تحاول برغبة حقيقية أن تتخلص من ذاك الكابوس الجاثم على نفسـها. لم تخبر ليلى أحدا عن تجربتها المخيفة تلك في بيت رباب. حتى صاحبها محمد لم تصارحه عما رأت في ذاك اليوم المنحوس.

طافـت شهور وشهور على نزوح رباب إلى الحي. الكل صار يمقـتها لأنهـا لا تعبأ بأحد. فهي مومس تعيش في دائرتها الهلامية بخطوطها المنحنية بعيدا عن خطوط أهل الحارة الحمراء العريضة. المنعطفات والمنحنيات أدواتها التي تلتف حولهن. هي أنثى لا تؤمن بمفهوم الاستقامة الذي يعتنقه الآخرين ولا تهتم به. لماذا هي كذلك؟ أمـر يستعصي على أن يدركه أحد. كيف أصبحت رباب على هذه الشـاكلة؟ يـراها أهل الحي على أنها لعنة من السماء أتت من نطفة

نجسة من الشيطان. الجميع يكره أن يراها أو يعترف بوجودها. النساء يخفن على أزواجهن منها والرجال كذلك. هي لا تداري أحدا ولا تخفي نفسها لكي يتودد لها الآخرين. تدرك أنها امرأة مرفوضة من هذه البيئة المحافظة حتى العنق. فهذا المجتمع كغيره يكتنز هذه النوعية من الإناث بالرغم من كل نقط التفتيش المنتشرة وشدة الرقابة الذاتية المحفورة في نفوس أفراده وبالذات في نفوس نسائه. رباب ثرية مالا ونفوذا وحياتها مليئة بالمغامرات لذلك لا تجد سببا أن تكسب أي احد من أهل حيها البائس.

- ليلى..

- عشتار أنت معي؟

- نعم معك ووددت أن تواصلي البحث عما كنت تدورين عنه.

- كان طيف من طفولتي. كانت هناك في حينا امرأة تمارس الرذيلة وترتكب الزنا. كانت تكسب الرزق بممارسة الحرام. لا أدري لماذا ترضى رباب لنفسها بأن تكون بهذا الرخص والانحطاط؟

- ليلى عزيزتي، رباب لو لم يكن لها زبائن لما مارست تلك المهنة. فقبل أن يرفع أي أمرء صوته ويبح حنجرته ويطارد الأسباب ويفتعلها للنيل من غيره، يتوجب عليه العودة إلى الذات والنظر بجدية في عثراته والتي قد يكون بعضها أشد خسة وانحطاطا من عثرات رباب ومثيلاتها. إن التعمق في النفس هو احد أهم المسارات وأقصرها للوصول إلى بعض الأجوبة الشافية.

- لكن التساؤل عن هذه الظواهر أمر مهم أيضا!

- التساؤل دائما مهم و مقبول إذا كان للمعالجة والإصلاح أي خارج دائرة تصنيف وإيذاء الآخر. قلة جدا من الناس من يبحث في أعماقه قبل أن يشير بسبابته إلى الغير و يدينهم.

- فعلا، لكن لماذا المتفكرون قلة؟

- ربما لأن معظم البشر يتلحفون بعباءة الجهل ويعالجون واقعهم المرير بالتحديق في فضائهم الخارجي، ومكوناته وتداعياته، يحاولون تحليله وإصلاحه بأحاسيسهم وسبلهم الموروثة المحدودة الأفق، ويغفلون عن "لو أن كل امرئ عاد لنفسه و أصلح من ذاته لصلح جزء من كل ومن ثم صلح الكل كله."

- هذا صحيح

- لكن ذاك لا يحدث يا ليلى، لذلك تأتي الحلول أو النتاج على الساحة مبتورة ومشوهه، وأحيانا أبعد ما يكون عن الصواب. يُخدعون بما ملكوا من قصور إنساني، ومقاييس رثة، فيهدرون كل الفرص الحقيقية المتاحة لهم من اجل الرقي بالنفس والارتقاء بها...

السقيفة

عبث الأنثى خطيئة عُظمى تهتز لها عروش السموات والأرض، بينما عبث الذكر يُعد نضجا لشخصه وامتدادا لعضوه التناسلي

ذات يـوم، ومـثل كل أعيان الحارة ووجهاؤها، قرر والد ليلى الانضـمام إلى جبهة الدفاع عن شرف الحي وعفته، وذلك بإقصاء ربـاب المومس منه وترحيلها دون عودة. اتفق رجال الحي اختيار علـى أعضاء الجبهة لكي يكونوا حامين لكرامة الأسر والأفراد في الحـارة. حُدد لقاء لهم بعد صلاة العشاء في حسينية الزهراء القريبة مـن بيت رباب. كان الهدف من الاجتماع هو إيجاد طريقة ملائمة لطـرد ربـاب من الحي، وتطهير المكان من رجسها ومن زبائنها القذريـن. علمـت رباب بخفايا الاجتماع من أحد المترددين عليها والمسـتمتعين بخدماتها، فقررت أن تواجه مصيرها بنفسها، وتجتاح سقيفتهم وتُبطل مكائدهم.

ذهبت رباب إلى حسينية الرجال بعزيمة صلبة، وروح ضارية، وقلب جسور وهي مرتدية القليل الذي يثير. وصلت إلى قاعة الاجتماع ودخلتها بخطى ثابتة وكل عفاريت الدنيا يتنططون ويتطايرون أمام ناظريها..كان في الحسينية أكثر من عشرين رجلا جالسين على الأرض يتشاورون في أمر العاهرة رباب. وقفت رباب أمامهم والعباءة متدلية من أعلى رأسها حتى قدميها تحاول عبثا وباستحياء زائف أن تستر بعض من جسدها الصارخ ومشاعرها الغاضبة، لكن دون جدوى. حين لمحوها الرجال نهضوا بسرعة وهبوا واقفين والتعجب قد غزا ملامحهم. لم يتصور أحد منهم أن رباب بهذه الجرؤة. نظرت إليهم رباب بغشاء رهيف ناعم منسدل برقة يفضح معالم وجهها الفاتن، فصرخت بأعلى صوتها على وجهاء الحارة وقالت :

– على ماذا انتم مجتمعون يا مخانيث يا عيال المنيوكة؟ من أين أتتكم هذه الجرأة يا كلاب يا جبناء؟ هل تظنون أني إحدى نسائكم اللاتي تعودتم على صفعهن يمنة ويسرة؟ شايفيني منيكة لكم!! ما تردون..أنا بالفعل قحبة وأقولها بكل فخر واعتزاز لأني امرأة حرة، ولا أهاب أحدا، ولا أرضى أبدا بالقهر والهوان كحريمكم الإماء، اللاتي تَتكُونهن فقط لتلبية شهواتكم الحيوانية. لكن لا يمكن أن اقبل أن يفرض أحداً رأيه علي أو يمشي كلامه دون رضاي.اسمعوني جيدا يا منيوكين يا رجال آخر زمن، ليست كل امرأة تقبل أن تكون عبدة، وليس كلِ طير يؤكل لحمه .وأنا لحمي أمر من المر نفسه..والذي يمس...

وقبل أن تكمل رباب تهديداتها حاول الشيخ أبو عبد الهادي ذو المنزلة الرفيعة في الجمع أن يوقفها عند حدها فصرخ قائلا وهو ينتفض من الغضب حتى كادت عمامته أن تسقط من على رأسه..

– اخرجي يا امرأة من حارتنا والله يستر علينا وعليك..نحن لا نريد سوى أن تغادري وتتركي هذا الحي لأهله..لأننا لا نريد أن تكون هذه الحارة موطن للمنحرفين والذين لا يخافون الله في أنفسهم ولا في غيرهم..ارجعي من حيث أتيتي ولا..

وقبل أن يكمل الشيخ كلامه وتهديده صرخت رباب مقاطعة الشيخ وقالت :

– نعم ..نعم ..

ثم وجهت نظرة امتعاض تجاه الشيخ حيث حنقها ازداد احتداما وشدة وهي تهز جسدها بغضب، ونهداها الغضّان يكادان يندلقان من جيبها الواسع..وأردفت قائلة بصوت ساخط

– ايوه ..ايوه..يا شيخنا المحترم.. ماذا قلت؟ الله.. الله..ارحل عن هنا!! لماذا ؟؟ هل هذه حارة أبوك ولا جدك كي تطردني منها؟ أم هي ملكك ونحن لا ندري..هذه المرة لن أرد عليك لأنك شيخ كبير، وفي سن والدي، فأنت تعرف أني من الممكن أن اسحق أي رجل يقف في طريقي.

تــدارك الشــيخ الموقـــف وهو يلم مشلحه الأسود حوله بحركة ميكانيكية وأردف قائلا :

– يـــا حرمة اتقي الله في نفسك..ابتعدي عن الفحشاء وخافي ربك ..فإنه شديد العقاب..نحن لا نريد لك الأذى..كفي شرك عنا وغادري..فنحن لا نريد أن تصبح الحارة مرتعاً لأصحاب الفسق والفجور..ارحلي عن هنا فهذا الحي ليس مكانا لك ولا لزبائنك..

تظاهرت رباب بعدم الإصغاء ولفّت بوجهها عنه وصارت تنظر لبقـــية الحشـــد من الرجال الذين كانوا واقفين والتقزز مرسوم على معالمهم.. رفعت صوتها عليهم مرة أخرى وقالت :

– إســمعوني جيدا يا فحول.. عاملين أنفسكم سِباع شرسة على النسوان بس، أما أمام السلطة فأنتم مثل الفئران الجبانة الجربانة، بل "قمل مقصوع". تتسترون بكساء التقية كي تخفون جبنكم وخوفكم من الحكومـــة..يـــزجون بعـــيالكم في السجون ولا أحد منكم يفتح جوفه ليطالب بحق أبنائه.. وتجتمعون هنا كالبواسل من أجل طرد حرمة!! ألا تخجلون من أنفسكم؟؟؟ لو كان فيكم حفنة شجاعة، كان مرجلتكم هـــذه توها أظهر هناك عند الحكومة ..هذا إذا كان بينكم من يسمي نفسه رجل..

غمغـــم الـــبعض منهم وشتموا وسبوا بصوت تكاد تسمعه رباب لكنها لم تكترث لتذمرهم وواصلت خطابها الساخط قائلة:

– الكلام هذا لا يعنيني بشيء..أنا لن أخرج من هنا إلا برغبتي والـــذي لا يعجبه الحال فليريني عرض أكتافه ويغادر الحي.. أنا من هـــذا البلد ولي حق في هذا الحي مثل كل واحد منكم، في أن أعيش فـــي المكـــان الذي يناسبني ويريحني، والذي ليس راضيا فليضرب رأسه في اقرب "طوفة" جدار، أو ليشرب من ماء البحر..

أخذت نفساً لتعاود الكلام بلهجة ساخرة :

– أقول ..الأحسن لكم أن تفضوا هذه المخنثة الآن وتذهبوا إلى بيوتكم يا حبايبي، وتشدوا شواربكم وتفتلوا عضلاتكم على الضعيفات اللاتـــي تسجنوهن هناك في معاقلكم..حتى تدغدغوا رغبات الفحولة المعفنة فيكم..اتفو على هكذا رجال..

ســـكتت ربـــاب والشـــر ظاهر على تقاسيم وجهها، وخيم على المكـــان صمت مبطن بغضب شديد وخوف أشد..صار وجهاء الحي يغمغمون مرة ثانية ويتلفظون بكلمات بذيئة..ويشتمونها لكن دون أن يمـــس أحدهم شعرة منها، مع أن كل واحد منهم يتمنى لو سنحت له أن يقطّـــع أوصـــالها، ويهشـــم هامتها، ويرمي بها للكلاب الضالة لتلتهمها.

خرجت رباب من الحسينية وهي مكللة بمشاعر الفوز والانتصار، منفوشة الريش، رافعة مناخيرها في السماء، وكأنها بفعلتها تلك استردت كل الحقوق المغتصبة لنساء البلد.

النصر الذي حققته رباب كانت ستحققه على أية حال، حتى لو لم تحضر ذاك الاجتماع، لأن ظهرها مسنود وقوي من روادها الدائمين ذوي السلطة والنفوذ في الحكومة..لذلك لم يجرؤ أحداً من المجتمعين على مواجهتها بقوة .. الجميع كانوا خائفين على أنفسهم من سلطتها .

تتنشل الهواجس ليلى من تلك الخيالات البعيدة ويملؤها سؤالا وهي طريحة على فراشها..تتساءل قائلة :

– ترى هل بالفعل رباب بنفسها اختارت أن تمارس "أقدم مهنة في التاريخ" أم أن الزمن فرض عليها ذلك؟

تجيبها عشتار بوضوح بالرغم من تكدس أتربة الأوهام في ذهنها

– ليلى حتى الآن لم تدركِ الإجابة..؟

– لا أدري يا عشتار..لكني أتصور أن "الجوع أبو الكفار" وانه قادر على أن يمسخ النفوس ويغيرها..

– وماذا عن غير الجائعات اللاتي يمتهن ذاك العمل؟ والجائعات اللاتي يرفضن تماما مزاولته؟

– ربما هناك سبب آخر يدفعهن للقيام بذلك العهر..ليس كلنا مخلوقون بنفس العزيمة في مقاومة الصدمات والانكسارات. هناك من هم ضعفاء وتتصدع نفوسهم مع أول مواجهة..ويخنعون ويتناثرون أشلاء..أيضا هناك من يُغصبون على أدوارهم ويُجبرون على أدائها!

– ليلى.. أيضا لا تنسي أن الناس لم تخلق بنفس قوة الأبدان، لكن كثير ممن هم ضعفاء البنية استطاعوا أن يبنوا أجسامهم ويواجهوا بها من هم كانوا أشد وأقوى منهم. أما من قلتِ عنهم المجبرين على أداء أدوارهم فيجب أن لا يواصلوا المسيرة حال ما يدُركوا أنهم قادرون على تحريك السواد من حولهم..

– كيف يتسنى لي أن أحرك سوادي وأبني نفسي الضعيفة؟

– أن تختاري بنائها بسمو تجاه هدفك الأعلى..

– نختار..نَختار.. مرة أخرى المسؤولية تُلقَى على عاتقنا..

– نعم يا ليلى، الإنسان ليس مجبرا على شيء هو من يختار مواقفه وأدواره. ألا تذكرين الحادثة التي جرت لك مع عامل النظافة ذاك؟ كل فرد يأتي إلى الدنيا وهو محمل بكل الخيارات ولكنها مغلفة وغير ظاهرة..وكل ما هو مطلوب منه أن يعرف كيف يزيل ذاك الغلاف الرهيف ويكتشف خياراته ويمارس الحياة بكل أبعادها..

- هناك أمور كثيرة لا دور لنا فيها.. التركيبة ليست بتلك البساطة!

- ليلى، ربما تتصوري الشيء الذي ليس لك دور فيه هو جغرافيتك، أي مهبط رأسك، الذي رسم معالمك من الداخل من هوية وانتماء وفكر وعقيدة وغيرها، ونقشك من الخارج بملامحك الفسيولوجية التي أنت عليها الآن من بشرة سمراء وشعر اسود وعيون واسعة. لكن في نهاية الأمر حتى تلك الهبات أصبح اليوم لديك القدرة على تغييرها واستبدالها هذا إن شئت ذلك!

- آه..نعم بالفعل ..أنا غيرت رؤاي منذ أن غادرتني ملذات الحياة أتصور أني اخترت أن أكون أكثر جدية في البحث والتساؤل لسد ثقوب الذهن المتأصلة. ربما هذا ما حصل مع رباب، هي أيضا اختارت دورها..لكنها لم تعرف مدى خطورة النتائج..ربما ضحت بالعيش الكريم لمعالجة شيء ما في النفس..!

- ربما..لكل واحد أسبابه ومبرراته

- عشتار..

- نعم يا ليلى..

- أتعجب كثيرا من مفاهيمنا الخرقاء مثل إدانة المومسات ومقتهن وغض النظر عمن يدفع المال لهن مقابل ما يقمن به!!

- تعني الرجال!

- نعم المومس لا تمارس ذاك العمل وحدها. العلاقة تتم بين

طرفين ملقي ومتلقي..وكلاهما "عاهران" هذا إذا آمنت بذاك المصطلح المتداول..

- لا ...اعتقد أن ما تقوم به رباب ليس عهرا حقيقياً يا عشتار..

- اذا ما هو العهر الحقيقي في نظرك..؟

- العهر هو ما يمارسه الذكور في هذا العالم.. من إشعال حروب وتهديم بيوت وتشتيت اسر..وقتل بشر وإبادتهم..العهر هو حين يباع الإنسان ويشترى في صفقات، وحين تُصادر الروح الإنسانية وتُفتك في السجون والمعتقلات.. العهر حين تُسحق النفوس والأحلام.. العهر حين يتألم معظم الناس من شدة الجوع ويموتون بسببه بالآلاف كل يوم، بينما الحفنة منهم يلعبون بخيرات الدنيا ويبددونها على أهوائهم وشهواتهم.. العهر حين يجمّل الفساد، ويزّهر الظلم، ويُصبغ بأقلام وحناجر ذكور يقتاتون على الكذب والنفاق وبيع الذمم...

- عدتِ يا ليلى تحملين أطنانا من الغضب بعد أن خلصتِ النفس منها..

- لا يا عشتار..أنا أفكر بصوت مرتفع ..كي افهّم نفسي واسمي الأمور بمسمياتها الحقيقية..دون أن احمّل القلب بأي مسحة من الغضب..

وبطريقة أرادت أن تدرك ليلى أمر مهم فقالت لها :

– لكــن هناك إناث يا ليلى فعلن العهر نفسه الذي عرّفتيه بتشكيلة عجيبة وألصقتيه بالرجال.. فالقبح والشر والظلم والاستبداد ليست سمات الذكور دون الإناث.. نعود للنظرية التي لا تحتمل سوى إجابة واحدة..

– وهي؟

– من يتربى في إناء الخير لا ينضح إلا خيرا سواء كان أنثى أم ذكرا..

– عشـــتار حبيبتي..اشعر أن ليلي سينجلي عن قريب..وسأرى ذاك النور القاطن في آخر النفق..و سأنعم به..

– أعتقد انك ستريه قريبا يا ليلى..أحلام سعيدة...

– نعــم سأحتفظ بأحلامي السعيدة...وسأعيش من أجل تحقيقها حتى استنفذ آخر نَفَس لي في هذه الدنيا..

الغربة

أصحاب النفوس الخربة يتجنبون النظر في المرآة التي تعكس لهم داخلهم البشع

نهــار مشرق يأتي ليزور ليلى ليكسر بعضا من قيود الروتين. الــيوم ســيكون تاريخيا في عهد الغيبوبة التي تلازمها. يوم لتحميم جســد قرّحه الفراش، وأعياه الجمود..تسعد ليلى بقدوم الصباح وبما حملــه لها. تبتهج وتتحدث مع من لا يسمعوها..المشغولات بتنظيف جسدها..

– أوه.. تمـــام.. الـــيوم سأحمم..جميل جدا..شكرا لكن يا إناث جمـــيعا علـــى هذا العمل الرائع..أكاد اقبل أياديكن.."وأبوس الأرض تحت نعالكم وأقول أفديكم" انتن بالفعل ملائكة الرحمة ..كم أتمنى أن اظهر لكنّ امتناني وسروري في هذا الصباح الندي، لكن كما ترون ما باليد حيلة.. آآآآه.. كم هذا الحمام طري ومنعش..لقد قرفت من

مسح جسدي بالفوط الرطبة..أريد أن اشعر بتدفق مياه المحيطات والبحار جميعها على بشرتي الناضبة..آه..دعوا سيول الأرض تخترقني وتندس بفضول في المسامات وتغرقها بطراوة..فلتتغلغل في منابت شعري المحلوق..لتبللني حتى النخاع..اتركوني أغرق..واغرق إلى مالا نهاية لا تتوقفوا ادعكوا بشرتي الميتة..أزيلوا عني صديد الروح ..اقتلعوا جذوري الواهنة واغسلوها كما يحلوا لكنّ..لا ..لا..لا تتوقفن ..كم أعشق هذه الأنامل الناعمة..بالفعل أن الإناث آلهات الأرض وعبقها. لا تقفلن الصنبور أرجوكن..أوه.. ليس الآن وقت التنشيف لم أرتو بعد من عذوبة الماء وصفائه..لا ..لا أريد أن ارتدي هذا الكساء الذي تفوح منه رائحة الكفن ويبعث البلادة..لا أريد العودة إلى قبري المفتوح ذاك..كفوا عن العبث بي ..لا تقلمن أظافري ..ولا تسرحن هذا الشعر القصير..انه أكثر سقما واحتضارا مني..

رحلت الممرضات الحنونات عن ليلى بسرعة ربما لأن هناك مرضى آخرين ينتظرون حمام منهن. وبتلكؤ راحت ليلى تغط في غفوة وحملها بساط الذاكرة إلى يوم مغادرتها للمرة الأولى لجدران بيت والدتها، كان ذلك حال انتهاء مدة الحداد الأربعة شهور والعشرة أيام. تلك المدة التي تفرض دينيا على المرأة الأرملة والمطلقة للتأكد من عدم حملها كي لا تختلط الأنساب. ومع أن العلم تطور وصار بالإمكان أن تعرف المرأة أنها حامل منذ الأسبوع الأول، لكن ذلك القانون ظل مسلطا على رقاب النساء دون أن يمسسه احد.

أخبروا ليلى أن مدة الحداد انتهت، وبأن الوقت قد حان لأن تتوقف عن تقديم صلوات خاصة وتثويبها لروح زوجها سامي. وفي ليلة ذاك اليوم أعدت والدتها ثلاثة أكياس وضعت في كل واحدة منها رغيفا وبيضة مسلوقة! العدد ثلاثة لسبب ما له وقع خاص في نفوس الناس هنا. ذهبت ليلى إلى المسجد مع والدتها وخالتها ودخلنه بعد خروج جميع المصلين منه. صلين ركعتين تحية للمسجد، ثم ناولن ليلى الأكياس الثلاثة ومررتها على رأسها وأرجعتها لهما من خلف ظهرها، ذلك الفعل، على حسب ما أوهموها بأنه سيدفع البلاء عن طريقها ..بعدها أعطيت هذه الأكياس لعابر سبيل. في اليوم التالي، بعد صلاة المغرب تحديدا، أخذوا ليلى إلى البحر لكي تغتسل ومارسوا بعض الطقوس معها، حيث رموا بها في البحر بعباءتها وكل ملابسها. اغتسلت في البحر بالسدر. بعد ذلك خلصت جسدها من كل ثيابها وسلمتها للأمواج لترحل بها بعيدا. وخرجت عارية دون الشعور بشيء، حتى الخجل لم يمسها إثناءها .. وارتدت ثيابا وعباءة جديدة، لتبدأ حياة جديدة، وكأن البحر القادر على إزالة أوساخ الأجساد يستطيع أن يفعل الشيء نفسه مع الأرواح، فيغسل همومها ويمحو عنها متاعبها وآلامها!

أثناءها تمنت ليلى لو أعيدت حياتها مرة أخرى كي تصححها، وأن ترجع طفلة صغيرة وتغتسل من جديد في عيون الواحة وأنهارها. ترتشف من مياهها العذبة وتنتعش بالسباحة فيها.

في تلك الأيام كانت دائما والدة ليلى تصطحب أبناءها وبناتها،

مـرة كـل أسبوع للذهاب إلى المناطق الزراعية للاستحمام. كانت العيون النابعة من تحت الأرض متوفرة بكثرة في كل الفصول.عيون ذات مـياه معدنية دافئة تستخدم في الشتاء وعيون بمياه منعشة باردة تضخ لموسم الصيف. كانت مياه الواحة صافية ونظيفة تتدفق طوال السـنة وتعـتمد عليها الناس في حياتهم دون أن تحتاج إلى معالجة. تجـري بين الحقول وتسقي أشجارها دون توقف. كل أطفال الواحة التـي تقطـن فيها ليلى يجيدون السباحة منذ الصغر. كانت العيون مفـتوحة للجمـيع لكي يستحموا فيها دون أن يدفعوا أجرا بالمقابل. النسـاء كن لا يرتدين شيئا هناك. يعمن و يتجولن ويدلكن بعضهن بعـض وهن عاريات تماما بعيدا عن أنظار الرجال. في تلك الحقبة مـن الزمـن لـم تكـن هناك قيود صلبة تحكم أذهان الناس وتشوه أرواحهـم. الثقة بالآخر والشعور بالقبول من الجميع والطمأنينة هي الأحاسـيس التي كانت تحرك الجميع وتدفعهم إلى التواصل..تتساءل ليلى وتقول لعشتارها :

– كيف وصلنا إلى هذا الزمن الأغبر..لا أدري

– ليلى ما أوصل الناس إلى هذه الحالة هي الغربة..

– عشتار! .. أية غربة تعنين؟ و نحن بين أهلنا و ذوينا!

– غربة الذات والأمكنة..

– غـربة الذات والأمكنة!! وكيف وصلنا إلى ذاك الصنف من الغربة؟

– الغربة الذاتية تتفاقم بفقد التحاور مع النفس ومساءلتها..أضاع الـناس مرآتهم وبعضهم حطمها، لأسباب مختلفة، بعدها لم يعد احد

منهم يقف وينظر إلى نفسه ولو لوهلة كي يحاورها..لذلك ماتت روح الـتأمل فـي الذات ومحاسبتها، وكتمت أنفاسها في الأذهان.. فخيم الجهل وعشش شبح الشك والريبة في النفوس..فجمدت المشاعر من زمهرير المٍّ بها..

– وماذا عن غربة الأمكنة؟

– أنظـري حولـك يا ليلى وحدقي بتمعن في كل الموجود في الأمكـنة، سـتجدين عالما متناقضا مع كينونتك وكيانك.عالم تحكمه المسـتقيمات والأشكال الهندسية والزوايا الحادة.يسيّره النمطية.كل تلـك تشوهات ونتوءات سببت تصدعا للنفس وعجزا في الأحاسيس الإنسـانية. فـذاك الزخم الهندسي المنتظم يتنافى بقسوة معك كجسد ويتضـارب بعنف مع الطبيعة ويختلف بشدة مع الكون بأسره..لأن الوجود تسوده المنحنيات والاستدارة واللولبية. بينما ما تلمسه حواسك الخمسة وربما الستة كل يوم لا يمت لك بأي صلة..

– لكن يا عشتار نحن سلكنا ذاك الطريق من أجل تسهيل أمورنا الحياتية ولتدويرها..

– بـالفعل سـهلت الحياة لكنها سطّحتها أيضاً وباتت كصحراء قاحلـة. سرقت الدهشة من أذهانكم وجففت الحميمية من منابعكم. لم يعـد هـناك مساحة للتطلع بصورة صحية والتفكير بعمق بعيدا عن الميكانيكية المحددة بمفاهيم المسطرة والقلم والأجهزة الكمبيوترية.

– آه كفاك تشخيصا لغربتنا..اشعر بصقيعها يندس في بدني ..لماذا نبهتينـي إلـيها ؟؟هل أنا بحاجة إلى أن احمّل هذا الفؤاد هما آخرا على همومـه المكدسة؟ عزيزتي عشتار والآن ما العمل؟ هل بالإمكان أن تدليني إلى سبيل للعودة إلى تلك المرافئ الدافئة؟

– نعم..هذا خيار أبوابه مشرعة دائما، لكن لا بد لك من إجلاء عتمة الجهل وإشعال مصابيح المعرفة..

– كيف؟ فتلك العبارة فضفاضة ومن الصعب احتواءها..

– صحيح، إذا كان عبور المرآة أمراً لم تعتد روحك على فعله بشكل يومي فكل دعوة إنسانية ستستعصي عليك. تحتاجي أن تري نفسك عارية على الضفة المقابلة لتتالي عذوبة التجربة وشرفها كل مرة. أن تتدربي على محاكاة نفسك لذاتها وللأمكنة بصدق وتأن، وأن تصغي بتمعن لما يقوله عقلك وأدواتك الصغيرة والكبيرة. أصغي لما تقوله الأشياء لك .. ملابسك فراشك حيطان غرفتك، استمعي لتلك الزهور المتناثرة في الزوايا وستتعلمين منها الكثير. تحدثي مع كل عالمك بجماداته وبأحيائه كي تكتمل في ذهنك التجربة.حطي أقدامك بين الأمكنة وفي مواطئ الجميع لتتلمسي شخوصهم وتتفهميها. تجردي من الأنا المتلهفة على تحقيق مصالحها ورغباتها على حساب أناتك الأخريات اللاتي تسكن في داخلك. ادعي المرآة لمائدتك وسامريها في كل مناسبة، وفي كل لحظة، لتكن لك رفيقة دربك. اتركيها تخترقك وتعكس لك أطيافك خاصة التي تنكري وجودها فيك. اقتربي من الأرض وحاكي دوداتها التي ستهبينها هذا الجسد يوما ما وستهبك روحك بالمقابل. تحسسي الثرى بأناملك عاينيه جيدا فهو مسكنك الدائم الذي ستسجلين فيه إقامتك الأبدية..ليلى حينها ستعثرين في أعماق الذات على ذوات غائبة وعن وقفات أخرى مثرية..ومن ثم ستضمحل شيئا فشيئا براثن الغربة..

الرحلة

ما نراه لا يعني أنه موجود

"كما تفقد الأنهار الجارية أسماءها وأشكالها لتنتهي في المحيط الكبير" كذلك الأشياء بدت تفقد هويتها في سرمدية الأيام التي تعيشها ليلى.غريبة تقاسيم هذا النهار. تشعر ليلى بسطوعه في داخلها. تحس بحيوية من نكهة خاصة تسري في جسمها. يبدو أنها بالفعل صارت تتحسن. تلفت أنظارها حركة غير معتادة من طاقمها النشط. تستغرب..تود أن تحكي عما يدور في داخلها وان تكشف عن بعض أسئلتها المؤجلة منذ دهور.الحركة غير الطبيعية التي تجري أثارت فضولها..تتساءل ليلى كعادتها بلسانها المشلول وتقول :

– ما هذا؟ لمَ كل هذه الممرضات مع الطبيب مجتمعين هنا؟ لماذا يقتربون مني ..ماذا يردن هؤلاء الممرضات؟ توقفن..توقفن..

لماذا تحملوني من السرير؟ ماذا ستفعلون بي؟ ولماذا وضعتوني على كرسـي العاجزيـن هذا؟ ألا ترون أني لا أقوى على الجلوس واني احـتاج إلى شيء ما يسندني..يا جماعة.. يا جماعة..اسمعوني ولو مـرة.. إلى أين ستذهبون بي؟ اجيبيني أيتها الممرضة الشقراء؟ هل سـتؤخذ صورة أشعة مرة أخرى لهامتي؟ اعتقدت أني أنهيت دورة التصـوير الإشـعاعية تلك. يا جماعة استمعوا لهمسي، حاولوا أن تقرؤوني وأن تفهموا ماأود قوله، لا تأخذوني إلى هناك. أنا لا احتاج شـيئا الآن. كل ما أوده هو قليل من الراحة وصفاء الذهن وسأشفى عما قريب. هل الدكتور سيرافقني أيضا؟ هذا أمر عجيب!

ظلـت الممرضـة تدفـع بليلى إلى الأمام وهي جالسة يلتهمها الوجـوم وتضرب أخماسا بأسداس على كرسي العجلات، في حيرة ممـا يجري. تحدق بالوجوه والأماكن التي تمر بها. تنظر إلى العالم خـارج زنزانتها باستغراب وفضول. تعبر قبور الاحتضار وتسمع أنيـن المرضـى تصدر من الغرف. ترتسم على وجنتيها تساؤلات، كانت وكأنها مانديلا أعظم سجين في العالم حين أفرج عنه بعد حبس دام عقود طويلة.

أوصـلتها الممرضة إلى إحدى الغرف التي يبدو أنها خصصت لها. وضعوها على السرير وفحصها الدكتور كالعادة بصقيع سماعته وجفـاف أنامله ثم أعطى ملاحظاته للممرضة، وذهب ليكمل دورته الصباحية للمرضى الآخرين.

بعدهـا نقلوا إلى غرفة ليلى الجديدة زهور الندم التي يجلبها لها أخوهـا إبراهيم معه، فازدانت الزوايا والنافذة تتوجت بأكاليل الورد الجمـيلة. سعدت ليلى برؤية أشعة الشمس حيث غابت عنها منذ أمد طويل، وكأنها تتعرف على نورها للتو. تتساءل باهتمام

- ترى هل رحلّوني من غرفة العناية المركزة لأنهم علموا أني أمر بمرحلة متقدمة؟ هل سأتعافى؟ هل شعروا أن صحتي أفضل هذه الأيـام واني قريبة للشفاء؟ وهل علموا أني لست بحاجة إلى مراقبة طـوال الأربعـة والعشرين ساعة؟ لا أدري، المهم أني سعيدة لأني أبعدت عن طاقم الأشباح الفضولي ذاك.

قـررت ليلى أن تغفو قليلا بعد أن فشلت في العثور على تفسير شـاف لجلـبها إلـى هذه الغرفة. تشعر ليلى هذه الأيام براحة أبدية تسـري فـي بدنها.. استرخت بغبطة..وتذكرت فرحتها حين أخذتها والدتهـا مع إخوتها في رحلة طويلة إلى ارض بابل وارض فارس. كانـت رحلة مليئة بالتعب والتشويق. والد ليلى لم يصاحبهم في تلك الـرحلة فقد كان كالعادة مشغول بأعباء عمله وبهمومه الخاصة في البحث عن زوجة ثانية.

تـتذكر لـيلى وهي هناك كيف كانت فرحتها بالقرقيعان كبيرة. القرقيعان احتفال شيعي الجذور ساحلي الطابع، يأتي مرتين في العام، الأولـى فـي منتصف شهر شعبان والثانية في النصف من رمضان شهر الصيام. المناسبة الأولى مرتبطة بمولد الأمام المهدي المنتظر،

الذي يعتقد الشيعة انه سيأتي آخر الزمان مع السيد المسيح ليرفع القهر والظلم عن الناس وينشر العدل بينهم بعد أن تكون الأرض قد امتلأت استبدادا وجوراً.

المناسبة الأخرى تأتي بنفس الصبغة لكنها لمولد الإمام الحسن ثالث إمام للشيعة. يحتفلون بمولده لأنه على حسب ما ذكر في مطبوعاتهم أن النبي احتفى بحفيده الأول ووزع الحلوى على الصغار. النمط المتبع لهذين الاحتفالين يشابه احتفالات هلووين الذي يقام في بعض الدول المسيحية.

شيعة أرض بابل يحتفلون مثل الشيعة الآخرين في الواحة بتلك المناسبتين، ويوزعون الحلويات على الأطفال. تتذكر ليلى حين كانت هناك وهي تتنقل مع صغار كربلاء من بيت إلى بيت، حاملين أكياسا لتجميع الحلويات فيها. يطرقون الأبواب وحين يفتح لهم ينشدون معا بصوت واحد"عطونا الله يعطيكم..بيت مكة يوديكم..ويرجعكم لأهاليكم ويلحفكم بالجعد..عن المطر والرعد..لما ولدكم ما جينا..يفك الكيس ويعطينا..يعطينا من مال الله.." لا يكفوا عن غنائهم ذاك حتى يحصلوا على غنائمهم اللذيذة من الحلوى والمكسرات.

كانت تلك السفرة رحلة استكشافية بالنسبة لليلى وأخوتها، زوّرتهم والدتهم أضرحة الأئمة ومساجدهم في كلا البلدين. الأئمة الأسطوريون الذين سمعوا عن مواهبهم الخارقة في التجمعات

الحسينية.كان من أجمل المساجد هو مسجد ضريح الإمام علي في النجف وابنه الإمام الحسين في كربلاء. أما المدن فأبهاها كانت طهران، حيث كانت عالم آخر متمدن يعج بالصخب والحياة. حين وصلوا طهران كان الوقت متأخرا في الليل، وكانت الأنوار كاللآلئ تشع بالأنوار البراقة. انبهرت ليلى من حياة المدينة ومن الناس الذين يرتدون أزياء غربية، ومن النساء الكاشفات اللاتي يلبسن ثيابا مثل المومس رباب. في طهران كل النساء جميلات بلباسهن المثير وكل الرجال بدوا وسيمين ببدلاتهم الأنيقة. الحرية الجسدية بكل أشكالها كانت تمارس في طهران. لا رقيب ولا حسيب على ما يجري في الشارع الإيراني. الفتيات اليانعات يتمايلن بغنج وفرحة مع الفتية ويحلمن معا بمستقبلهم. الحياة هناك تختلف تماما عن الحياة التي اعتادت عليها ليلى. الحب بين الفتى والفتاة مثل شرب القهوة. النساء يختلفن عن نساء حارة ليلى. هناك يتصرفن كالبشر. لا تشعر الواحدة منهن بالخجل أو الاستحياء من وجهها أو جسدها . الإيرانيات لا يغطين أنفسهن بالسواد ولا يخبئن هويتهن وراءه.

لم تظل ليلى وأسرتها في طهران لفترة طويلة مع أن ليلى أحبتها كثيرا، وتمنت أن تعيش فيها طوال حياتها لأن ليلها مثل نهارها مضيئا وكله حيوية. لا تشعر ليلى بالخوف من ظلام طهران بل تحبه وتستأنس به.لكن كان لا بد لهم من العودة إلى أرض بابل. قضت أسرة ليلى معظم أيام رحلتها في كربلاء. حيث قطنت ليلى مع أهلها في بيت قريب من مسجد الحسين لكي يسهل عليهم التردد عليه. كانت ليلى دائما تستمع لما توصي وتنبه به خاصة في أداء

الفـــرائض الدينـــية. حين تنوي الذهاب مع والدتها وأخوتها لزيارة مســـجد الإمـــام الحسين، تغتسل وترتدي اطهر ملابسها وتدخل مع أفـــراد أســـرتها من باب الحرم الشريف. تعبر معهم مساحة واسعة حـــول المســـجد تسمى بالصحن الحيدري وهي ممسكة بيدي والدتها وكأنهـــا تخشى أن تفقدها. الصحن يضم كل الزوار الذين فرغوا من عـــبادتهم وطلـــبة الديـــن والمشايخ.حين تصل ليلى وأفراد أسرتها المســـجد، يخلعـــون نعلهم ويتركونها عند رجل يجلس بقرب الباب يطلق عليه "الكشوان".

كلمـــا دخلـــت ليلى مع والدتها وأخوتها إلى المسجد، كانت والدتهـــم هـــي التي تقودهم لتدلهم على الطريقة المتبعة لزيارة الإمـــام. فـــي أول زيارة لمسجد الإمام الحسين الحفيد الأصغر للنبي، بهرت ليلى من التفاف الناس حول ضريحه، ومن توابيت الموتـــى التي يطوفون بها حوله، وذُهلت من الذهب المحاط به، ومـــن الزخارف الجميلة المنقوشة بدقة على الجدران والأسقف والأعمـــدة الاسطوانية. أبواب المسجد فارعة الطول والعرض، ومرصـــعة بالذهـــب الخـــالص الثمين. الأرض رخامية ملساء نظيفة. البخور والرائحة الطيبة تفوح من جميع الجهات وتعطر الزوار القادمين من كل مكان لغرض الصلاة. لكن ليلى تعجبت أكـــثر مـــن الفقـــر المدقع الذي يعصف بالناس في تلك المدينة. الزوار معدمون لكنهم حالمون. فقراء ولا يترددون في تقديم ما عندهم لإحياء الضريح.

بعد أن صلت ليلى مع أخوتها ووالدتها تحية المسجد، بدأت أم نور تقـــوم بدورها كملاية، صارت تقرأ الزيارة بصوت مرتفع خاشع ذو نـــبرة حزينة مما جعل نسوة المسجد يقتربن منها ليستمعن لما تقرأه.. حيـــث تلت ***"السلام عليك يا بن رسول الله، السلام عليك يا بن خـــاتم النبيين، السلام عليك يا بن سيد المرسلين، السلام عليك يا بن سيد الوصيين، السلام عليك يا أبا عبد الله، السلام عليك يـــا حســـين بن علي، السلام عليك يا بن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، السلام عليك..."***

تابعت أم ليلى قراءتها لكتيب زيارة الإمام، بينما ليلى لهت عنها وهـــي تحـــدق في ضريح ذاك الرجل العظيم الذي ظل بريق دمائه مـــتوهجا لمـــئات الســـنين. هذا هو الإمام الذي كانت تلبسها والدتها السواد من أجله في كل عام لمدة شهرين كاملين محرم وصفر حدادا علـــيه. كانـــت ليلى مثل كل الشيعة في هذا العالم تبكيه وتلطم عليه حزنا خاصة في ذكرى قتله الذي حدث في اليوم العاشر من محرم. فـــي ذاك الـــيوم تنقلب مساكن وأحياء الشيعة إلى مآتم بكاء ونحيب. بعـــض الشيعة يقيمون في نهار العاشر من محرم ما يسمى بالتشبيه فيضـــربون أنفســـهم بالســـيوف والسلاسل حتى تسيل دمائهم. لديهم إحساس بالذنب متوارث عبر الأجيال، مشابه لما يشعر به المسيحيين تجـــاه الســـيد المســـيح. كلتا الفئتين يحسون أنهم خذلوا منقذهم حين اســـتنجد بهـــم واحتاج لنصرتهم وانه ضحى بحياته من أجلهم. فبعد هزيمة الحسين في معركة الطف التاريخية في كربلاء قبل أكثر من

ألف عام، قُطِعَ رأس الحسين ورؤوس أصحابه معه، وحُملوا على الرماح ورحلُوا مع ما تبقى من نسائه وأطفاله إلى خصمه يزيد بن معاوية في دمشق. وحتى اليوم ليس معروفا موقع دفن رأس ذاك الإمام..لكن المثبت أن الجسد دُفن في كربلاء بينما الرأس إما واراه تراب الشام أو مصر.

والدة ليلى كانت تحيي مآتم العزاء طوال السنة كي تبقى ذكرى ذاك الإمام متقدة. كانت ليلى صغيرة السن ولم تفهم حينها تفاصيل ما يجري من صخب وعويل. لم يكن الهدف واضحا ولا الغاية مفهومة من إقامة الحداد في ذكرى مقتل الإمام الحسين. معظم الناس وبدون علم لم يكونوا أوفياءً له، ولا للسبب الذي أهدر دمه من أجله، لأن كثير منهم نسوا لماذا قُتل ذاك الإمام وركزوا على تراجيدية قتله. قلة ممن هم يدركون انه كان رجل ثائرا ضد الفساد وبيع الذمم وممارسة الظلم وهضم حقوق البشر..

- ليلى

ردت ليلى بفرح

- نعم عشتار .. كيف حالك؟

- بخير..كنت تخوضين معركة مساءلة مع الذات.

- نعم عن رجل ثائر خلده أتباعه ونسوا لماذا خلدوه..

- يجب أن تفهمي يا ليلى أن عامة البشر تهتم بما يطفو على السطح لأنها لا ترى غيره، وتتمسك به لأنها تخشى من الغوص في

الأعماق، فمن لا يحسن فن العوم بطبيعة الحال يخشى الغرق ويتجنب المياه العميقة. لذلك يتشبثون الناس بما ورِثوا دون تساؤل أو مساءلة.

- ربما لأنهم لم يتدربوا على طرح السؤال.

- ليلى، الناس يولدون وهم مسلحون بكم هائل من التساؤل، وبطاقة متجددة من اجل البحث عن الإجابات، لكن خنق السؤال من الصغر ومصادرته هو الذي يوقف عملية إثراء الذات.

- عشتار.. نحن البشر نميل إلى التعليب ونفضل أن نُصب في قوالب جاهزة كي ترتاح أذهاننا..

- هذا ما يجري الآن، لكن ذلك ضد طبيعة الإنسان، لذا الكثير منكم يعيشون في نزاعات مع أنفسهم وفوضى ذاتية، وإذا ما تفاقمت حالة الفرد منهم تصادم مع الآخر، وتعارك مع من لا يتواءم مع قالبه..

باعتراف مرير أجابت ليلى :

- آآآآآه...هذه أزمة بشرية

- بالفعل، لكن حلها ليس بالصعب وقد استدل عليه كثير من الناس.

- ليس صعبا لمن يستوعبه

- أتعرفين ما هو يا ليلى؟

- نعم تعلمته منك، وهو أن نطرق كل الأبواب ونحاكي الفكر الذي يخاطب العقل ونتحداه في العثور على إجابة ونسأل أنفسنا دائما: لماذا نفعل ما نفعله؟ وهل ما نفعله سيحقق ثراءً إنسانيا للناس قاطبة؟ وأن لا نكتفي بالإجابات الموروثة المصاغة منذ زمن بعيد.

- بالضبط، لأن الكون لغز كبير لم تُفك طلاسمه بعد..

- التفكر فيه يتطلب شجاعة..يا عشتار

- يتطلب شجاعة سارقي النار الذين أفشوا سر النار للإنسان فغضبت منهم الآلهة، لكن اصرّ أن يحتفظ بالسر لتظل النار مشتعلة . مثل الذين رفضوا العتمة فأضاءوا الوجود بأسئلتهم وإطروحاتهم المتقدة، وبإمكانك يا ليلى أن تنضمي للقافلة وتكوني واحدة في ذاك الركب المتوهج هذا إن رغبت..

إرتسمت ابتسامة في داخل ليلى دون أن تتجسد على معالمها، وأفاقت من غفوتها وهي تسأل نفسها هل بالفعل بإمكان فتاة مثلها أن تكون منهم؟ وإذا هي في حيرة من أمرها، أتت الممرضة كالعادة لتأخذ دم من ذراعها بصمت وهدوء ثم ترحل.

المأوى

من لم تكن الذات مأوى له لن يسكن قلبه الأمان أبدا، وإن قطن القصور ولاذ بالقلاع

هبت الممرضة مفزوعة تجاه ليلى التي كانت تنتفض على فراشها بحركة سريعة ومنتظمة وكأن مساً من تيار كهربائي قد أصابها. كانت عيناها مفتوحتين وشبح الخوف معشش في بؤبؤهما. ترتعش أطراف ليلى بصورة عجيبة وأسنانها تصطك وتتناطح وتصدر أصوات طقطقة مزعجة. كانت ليلى ترتجف بشدة كأنها مرمية دون كساء على أرض جليدية. قدمت رئيسة الممرضات مسرعة وهي حاملة غطاء شتويا ثقيلا ولحفت به ليلى علها تستعيد شيئا من حرارة بدنها المتسربة.

أتـــى الطبيب على عجل وزودته الممرضات بآخر الفحوصات، وطلب منهن بتدفئة الغرفة وتغطية ليلى جيدا. صارت ليلى تسترجع شـــيئا فشـــيئا ما سرقه الزمن من جسدها والذي هو مأواها الأخير. استردت حرارة جسدها الذي ائتمنت ضمير العالم المتحرك عليه ولم يحـــافظ علـــى شـــباته. هدأت ليلى وسكن كل من كان حولها ورحل الطـــاقم الطبـــي وبقيـــت واحـــدة من ممرضـاتها جالسة بالقرب من سريرها كي تلاحظ غدر المرض عليها.

مـــنذ أمد بعيد لم تشعر ليلى برجفة بهذه الدرجة، تذكرت جدتها الضــــريرة التـــي كـــان كساؤها الشتوي مأوى لها كلما قرص البرد عظامها الهشة. كانت جدة ليلى أم والدها في شبابها تعد من جميلات القـــرية لكـــنها أيضـــا أكثرهن اعتزازا بذاتها. تزوجت عدة مرات وتطلقت لأنها لم تكن تطيق معاشرة الرجال المعتلين بفحولتهم.

كانـــت تحكـــي للـــيلى ولأخوتها قصص جميلة ومفرحة دائما. محـــاور حكاياتها تدور رحاها حول الوفاء والإخلاص والأمانة وقيم أخـــرى حلـــوة. كانت ليلى وإخوتها يلتفون حولها ويشعرون بدفـء التاريخ الإنساني يسري بعمق بين خلجاتهم.

ســـكنت لـــيلى وتحرك في داخلها شوق شريد نأته عنها، وتاقت نفسها لحميمية أيام جدتها الضريرة وهمست..

– ليـــتك يـــا جدتـــي لم تغادرِ هذه الدنيا..ليتك اخذتيني معك يا حبيبتي حين عزمتِ على مفارقتنا..

– كيف حالك يا ليلى؟

– عشتار رفيقتي..أرجوك خذيني معك..أو ابعثي بي إلى حيث تقطن جدتي. اشعر ببرد قارص في الداخل..

– يبدو لي انك فقدت إحساسك بحبال الأمان يا ليلى.

– بل بكل شيء!

– ليلى..أتذكرين مقولة إن السماء لا تمطر ذهبا؟

بتعب أجابت ليلى :

– نعم.. وما علاقتها بحالتي؟

– أتدريـــن أنهـــا نعمة أن السماء لا تفعل ذلك، وإلا لسئم البشر حـــياتهم وخســـروا إحساسهم بالأمان تجاه أي شيء رصين كالذهب مثلاً لكان هو الآخر فقد قيمته. لذلك السبب السماء تمطر شيئا متجددا وهـــو الماء.. شيء يبعث في الحياة حياة وفي الماء ماء..لكن لا بد مـــن الـــبروق والـــرعود والغيوم الداكنة والبرد الشديد من اجل أن تـــتمخض السماء وتنجب زخات المطر وتروي عطش الدنيا وتخفف جفاف الأرض...

– مـــا زلـــتُ لا أجـــد شيئا فيما قلتيه له علاقة بتلاشي مشاعر الآمان من عالمي..

– اعتـــبري نفســـك السماء التي أبت أن تمطر ذهبا أي شعور الوحشـــة، واخـــتارت إن تزخ أمطارا، أي إحساس الآمان الممزوج بروح الحياة...ستجدي أنه لا بد أن تمر عليك أيام صقيعية ورعدية مـــن أجل أن تُورق في داخلك سفوح خضر وأشجار كثر ونخيلات تثمر..

– آآآه منها تلك الرعود يا عشتار..كم هي مرعبة..

فتحـــت ليلى عينيها بعد أن أحست بحركة ما في المكان، فرأت الممرضـــة المرابطة قد نهضت من مقعدها بعد أن دخلت أخرى إلى الغرفة لتحل محلها. صارت تتحدث إليها وتشرح لها بالتفصيل حالة ليلى، ثم حملت نفسها ورحلت. تبوأت مكانها الممرضة المناوبة على كرســـيها وأمسكت بكتاب لتقرأ فيه..وخيم الصمت مرة أخرى على الـــزوايا فعـــاودت تكات ساعة حياة ليلى تتمخط على جدران الزمن بخمول وقرف..

زوار الفجر

نور الشمس لن تحيده الغيوم القاتمة من محاولة الظهور في صباح يوم آخر

الله أكبر.. الله أكبر
اشهد أن لا اله إلا الله
....
اشهد أن محمدا رسول الله
....
حي على الصلاة..
....
حي على الفلاح
....
قد قامت ..قد قامت الصلاة..الله اكبر

أنهى الشيخ الآذان وبدأ بالصلاة وتلاوة آية من سورة النور *(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)*

تفتحت مسامع ليلى على صوت الآذان والصلاة وكأنها للمرة الأولى تلامس أحاسيسها. منذ أن دخلت ليلى هذا المستشفى لم تسمع الآذان سوى هذا الفجر. فقد كانت في غرفة العناية المركزة التي كانت كزنزانة العزل، حيث قطّعت عنها كل سبل التواصل مع العالم الخارجي.

تفتح ليلى عينيها و ترى الظلمة فتتساءل...

– عجيب! لماذا يا ترى هذه الغرفة مازالت حيطانها مخضبة بالعتمة؟ لما لم يتسلل النور بعد من تلك النافذة اليتيمة؟ لا بد أننا في موسم الشتاء حيث الشمس تنحدر متأخرة وكأن لسعات البرد تصيبها بالكسل والتقاعس.

الشتاء في مدينة ليلى كان دائما موسم خروج زوار الفجر، للتصنت والتجول في أزقة أحياء المدينة، من أجل اصطياد وقنص الضحايا. صارت ليلى تخشى سماع الأذان، عند حلول الظلام لأنه يذكرها بتلك الليلة المشئومة. الليلة التي اعتقل فيها أخيها الأكبر نور،

حيث زج به في السجن ظلما وبهتانا لستة سنوات عصيبة. لم يعف عنه إلا بعد وفاة الحاكم، وإحلال أخيه كحاكم بديل ليكمل المسيرة التي بدأها والدهم على هذه الأرض. المتعارف عليه في هذا البلد أن من يُتهم بقضية سياسية، لا بد أن يكمل مدته والتي عادة تأخذ سنوات طويلة، ولا يُعفى عنه أبدا إلا في حالة واحدة فقط، تسمى مكرمة من راعي الدولة، وذلك حين تتدخل يد القدر وتستبدل حاكم بآخر، أو حين يصاب الحاكم بمرض ويشفى منه .

كانت ليلى صغيرة السن حين اعتقل أخيها نور. تتذكر أخيها أنه كان في السنة الأخيرة للتخرج من الثانوية. وأنه كان قارئا جيدا، كالدودة النشطة يقرض كل كتاب يمر بأنامله. فقد كان في طور التكوين والتشكيل لم تكن صبغته واضحة بعد. يقرأ في الأدب والفن والسياسة والأديان. كان أيضا رساما بارعا يجيد الإصغاء لمن تستنطق به الألوان ويحسن مخاطبتها بالريشة. انضم إلى نادٍ أدبي في الحي يُقال أن في إدارته رموز ينتمون إلى التنظيم القومي العربي. وكانت تلك الجنحة هي التي دمرت كل مرتادي ذاك النادي البائس وأودت بهم في غياهب السجون. كانوا فتية مقبلين على الحياة بعنفوانهم ومحتضنين عبقها بصدورهم. تم اصطيادهم واحد بعد الآخر دون استثناء. كان أهل ليلى يسمعون بهم يتساقطون كالفراشات الضعيفة التي تلتهمها ألسنة لهيب النار دون رحمة، ويزدادون خوفا من أن يلاقي نور نفس المصير.

لم يطل بعدها شعور والديّ ليلى باقتراب المخابرات من دارهما، خـاف أبو نور كثيرا على إبنه، لكنه لم يجد طريقة مثلى لتهريبه أو إخفائـه عن العيون. قررت والدة ليلى بدفن كل المطبوعات والكتب الموجـودة فـي البيت في محاولة يائسة لإنقاذ إبنها نور من السجن المـتربص بـه. حفر جميع أفراد الأسرة في ساحة المنزل الترابية خـندقا عمـيقا ودفنوا كل كتبهم المهربة لأنه تلك الكتب لاتباع في الأسـواق لذلـك تهرب من بلدان أخرى. أن تهريب الكتب جريمة يعاقب عليها القانون بشدة.

بـدأوا أولا بدفن كتب والدة ليلى من مولد النبي ومقتل الحسين ونهـج الـبلاغة ووفـيات الأئمة ودعاء الصالحين وألف ليلة وليلة والمتنبـي وأبو نواس.. وكثير من الرسائل الدينية لمقلدين وأئمة، ثم بعـد ذلـك جاء دور كتب نور من مكتبته المتواضعة، حيث شملت الجـاحظ والمعـري والحـلاج وطه حسين وهيغل والعقاد ونيتشة وحسـين مـروة و خرشوف وسلامة موسى وفكتور هيجو ونجيب محفـوظ وتولستوي وديكنز وجبران وغادة السمان ونازك الملائكة ونـزار قبانـي..وغيرهم الكثير. لم تترك أي ورقة في غرفة نور شـعرت والدته أنها قد تثير تساؤلا أو تجلب مشكلة إلا ودفنتها. كل المطـبوعات فـي تلـك الغرفة كانت مدانة في نظر أهل نور لأنهم يجهلون فحواها ولأنهم مرعوبين حتى الجنون من زوار الفجر .

لم تكن ليلى تعرف أن والدتها تعشق الكتب إلى ذاك الحد سوى فـي ذلـك اليوم الكئيب، فقد بكت بألم يمزق القلب ويذيب المشاعر وهـي تـواري الكتب تحت الثرى، وناحت كنوح الثكلى التي تندب

على فقدان أبنائها. فيوم دفن المعرفة ذاك كان وطأه شديدا جدا على الجمـيع. شـعروا كـأن التاريخ أعادهم مئات السنوات إلى الوراء. أحسّوا بكل أوجاع الأمة المنكوبة في تلك السنين الغابرة، حيث قام التـتار بتدمير مكتبة بغداد برمتها، ورمي كل مطبوعاتها في نهري دجلـة والفـرات حـتى اتشـحت المياه بحبر داكن من كثرة الكتب وثرائها.

تَحسُب أسرة نور وقلق أفرادها لم يطل كثيرا، فحين ولّى ذاك اليوم الحزيـن بمقبرة الكتب الجماعية، مرَّ يومين بعده، فداهموا زوار الفجر الأوغـاد بيـت أهل ليلى، واختطفوا أخيها نور من بين أحضان والدتها وهي تذرف دموعا وتصيح بألم شديد نابع من أحشائها وتقول :

– خافوا الله فينا..حرام عليكم تحرمونا من أولادنا.. خافوا الله فيـنا وفـيهم..حرام عليكم.. ابني لم يفعل شيئا اتركوه..يا ظُلام ..يا متجبريـن.. الله أكبر عليكم ..الله أكبر عليكم الله أكبر على كل من طغى وتجبر"

يرد أحد قساة القلب عليها بوقاحة وتهكم..ويقول :

– اخرسي يا امرأة..وإلا سحبنا أخوته معه.. الآن خفتِ عليه يا رافضية.. الآن عرفتِ ربك..لو كنت تخافي على ابنك لكنتَ منعتيه ممـا يفعل.. وارشدتيه لطاعة ربه وولاة الأمر..أنت لم تربيه جيدا.. لذلـك هـو فـي حاجة من يرد له صوابه، لكي يتعلم أن يكون ولاءه لحاكمه وللوطن الذي أنعم عليه بخيراته..

تعاود الكرة وتحاول أن تستدل على طريقة ليتركوا إبنها ويرحلوا عنهم، لكن لم يعبأ أحد منهم بها وكأنهم صم عمي لا يفقهون. انتزعوا نـــور من بين أفراد أسرته برعونة وهم يشتمون ويدفعون والده بعيدا كي لا يتمسك به. والده يطلب منهم بصوت ذليل ويترجاهم أن يتركوه ويغفـــروا له خطيئته هذه المرة، ويعدهم بأن نور سيستقيم ولن يرتكب إثمـــا بعـــد الـــيوم، لأنه لن يمس كتابا أبدا طوال سنين حياته القادمة، ويلتزم بطاعة السلطة وكل ما يأمر به الحاكم..لكن لم يهتم احد بكلامه ولا بوعوده.

قلـــبوا غرف البيت عاليها سافلها ونبشوا في كل الزوايا. أخذوا يسألون نور بلهجة حادة عن مطبوعاته ويصفعوه أمام الجميع، لكنه ظـــل ملـــتزما الصـــمت من هول الموقف وكأنه ابتلع لسانه. بعدها جرجروه إلى سيارة الجيب واختفى عن الأنظار.

أُســـدلت الستارة على ذاك المشهد المروع والكل وقف بوجوم، أمـــام ذاك المشـــهد الخـــاطف. كـــان الجمـــيع متجمدين كالأموات المصـــلوبة، وكـــأن هناك نسور تتربص بهم وتحوم حول رؤوسهم لـــتحط على جثثهم وتنهش أعضاءهم. في أقل من ساعة تلاشى كل شيء، فغاب صوت الوالد واندثر نحيب الوالدة وتبدد ذعر أخوة نور وتلاشى بكائهم في سراب كئيب ممتد. بعدها تسلل في جنبات البيت نهار آخر، بقسمات متسمة بنكهة مُرة.

لمرات عديدة ظل والد نور يراجع مركز المباحث ويسأل عن إبنه فيخبروه انه لم يُسمح له بعد برؤية أحد. السجون في هذا البلد كالكهوف المجهولة الممرات "من دخلها مفقود ومن خرج منها مولودٌ ".

بعـــد مـــرور أربع سنوات عجاف، ونور يكابد ويلات السجن ولعـــناته، تمكن والديه من زيارته والاطمئنان عليه. وبعدها بسنتين توفـــى الحـــاكم وأفرج عن نور وعن رفاقه، فعاد إلى أسرته بذهن باهت وروح مهشمة. رجع نور إلى أهله ببدن منقوش عليه بوحشية خـــرائط تبيـــن مـــدى التعذيب والمهانة التي تعرض لها على أيدي جـــلادي السجون. أخبر نور والده عن أصناف التعذيب التي قاساها فـــي الحـــبس، من اقتلاع أظافره، ونفض جسده بتيارات كهربائية، والضـــرب والتعلـــيق، والحجز الأنفرادي حيث كان يسمع أصوات الســـجناء وهم يعذبون ويهانون. الجرائم الإنسانية التي تحدث عنها نـــور كانت تشيب لها الولدان ويندي لها الجبين وتنحني لها عروش الآلهة من شدة وطئها ومرارتها.

بقـــي نور بين أهله قرابة السنتين، وهو تائه، فاقد بريقه ودون أية نكهـــة تنم بحياة ، لكنه كان ينتظر الافراج الحقيقي من السجن الأكبر الذي يُطلق عليه وطن فحالما سُمح له بالسفر، دبَّ فيه الأمل من جديد فحمل أمتعته وفر مهاجرا إلى أمريكا مطلقا البلد بمن فيه دون رجعة.

تتململ ليلى من تلك الذكريات، فبشاعة المتجبرين على أرضها قادرة أن تسحق دون رحمة كل من لا يدور في فلكهم..تحس بعشتار وهي تحاكيها

– ليلى ..أنت منزعجة نوعا ما؟

فتجيبها ليلى :

– آآه..نعم يا عشتار من الظلم ..وكسر الضلوع وتهشيم الوجوه ومصادرة الحقوق..

– ليلى هذا لون من ألوان العسر القرائي الذي يعاني منه البشر..

– العسر القرائي؟

– نعم العسر القرائي للبشر هو حين يتعثر الناس في إدراك وقراءة الآخرين، ويفشلون في تقدير آدميتهم واحترامها..

– لماذا هذا العسر القرائي الذي يقضمنا مازال يُمارس حتى الساعة؟

– لأن كثير من البشر اليوم يندرجون تحت فئتين:"سادة" و "مسودين". فئة "السادة" هي التي يتسم أفرادها "بعنجهية الديناصورات" التي تكاد لا ترى أحدا .يعتقدون أنهم الأحق بالعيش ويتظاهر كثير منهم بمعرفة كل الإجابات المطلقة، التي لا تحتمل سوى الصواب..ومن لا يوافقهم فهو لا ينتمي، ومصيره إما الإقصاء، أو أن تُصادر حقوقه الإنسانية والفكرية دون وجل..

– والمسودين؟

– فئة "المسودين" وهي تمثل الأغلبية الساحقة المصابة "بعمى الخفافيش" التي تكاد لا ترى أحدا هي الأخرى، فهي تخشى النور وتهابه. تقتات على الفكر الضحل، وتتوالد وتتكاثر، وتلتهم فضلات الفئة الأولى من "جهل مطلي بمعرفة زائفة" ليزداد جهلها جهلا ،

وتصحرها تصحرا.. فيفشل أفرادها في إدراك "الأغيار" الذين لا يجترون نهجهم ولا يلوكون قيمهم..

– لكن هذا يعني أن قوافل من أمثال أخي نور ستظل تُطارد في كل بقاع الأرض لسنين طويلة قادمة..

– نعم... لأن كثير من أصحاب السلطة مصابين بعسر القراءة ولايدركون أن ... "من شاء أن يحكم الناس عليه أن يتواضع أمامهم، فالحكيم إذا حكم لم يشعر بثقله أحد، وإذا سار في المقدمة لم يعرقل الركب"

وقبل أن تكمل عشتار الحديث، رحلت عن ليلى غفوتها، فشعرت فجأة بأشعة الشمس الصافية تندس في غرفتها باستحياء، وتدخل معها ممرضة شقراء، ينافس شعرها سطوع الشمس، ويضيف عليه لمعانا وجاذبية.. صبّحت بليلى بلطف أنثوي ساحر، ثم اقتربت منها وتحسست نبضها وهي تحدق في ساعتها الفضية الضخمة التي تكاد تلتهم ذراعها الشديد البياض. بدلت كيس المغذي وكيس تجميع البول ثم رحلت بهدوء كضوء قمر في فجر ربيعي جميل. ودعت الممرضة ليلى وهي حاملة معها ابتسامتها الرقيقة لتخبرها بلهجة عربية مهشمة بأنها ستزورها لاحقا...

انعتاق

التجربة الناجحة تفرز انزيما مفعما في الداخل دائما يحرض النفس على الخوض في مغامرات أخرى جديدة

"الانعتاق لا يتحقق إلا انطلاقا من الشرط الإنساني وحين تكون الــروح متقمصة في إنسان، فالإنسان وحده من دون بقية المخلوقات هو القادر على تخليص الروح وتحقيق الانعتاق، إما الآلهة فإن عليها أن تنتظر فرصة تجسدها في انسان لتستطيع من خلال حياة كاملة أن تنفلت من دورة السببية الكبرى"

كانــت لــيلى مستلقية على ظهرها على فراش المرض، وهي مجــبرة كالعــادة علـــى قراءة تفاصيل غرفتها المملة. كانت عيناها محدقــتان في اللاشيء بسكون متعب، راحت تتجول بذهنها الشارد بين رفوف مكدسة في الذاكرة، تردد كلمات الشاعر "أمل دنقل" وهي

تنظر إلى زهورها بوجوم.. " ***وسلال من الورد ألمحها بين إغماءة وإفاقة وعلى كل باقة اسم حاملها في بطاقة... كل باقة بين إغماءة وإفاقة تتنفس مثلي بالكاد ثانية..ثانية.. وعلى صدرها حملت راضية.. اسم قاتلها في بطاقة!*** " اقشعر بدَن ليلى من تلك العبارات التي كانت ترددها فلفظتها من جوفها قائلة :

– لا ..لن احمل اسم أحدا، ولن اقبل بغير اسمي بديلا..لن استسلم لمصيري مثلك يا شاعري الجميل، فهناك فجر ندي ينتظرني بعد انقلاع هذا الليل الطويل.. ليحتفي بي..ونزدان ببعضنا البعض ظهور وأناقة..

أتدري يا شاعري بأني موعودة بأكاليل فرح وبسلة من أقواس قزح؟ شاعري ..رسالتي لم تنتهِ بعد ومازال مطلوب مني أن أنهيها..نعم يجب أن أختمها قبل أن أدعَ هذا الجسد يرحل بما فيه عن هذه الدنيا..

صمتت ليلى لبعض الوقت لا تدري كيف تتبع سير الساعة من غير أن تلوكها أضراس الضجر..ظلت تتمعن في بصيص نور عن بعد..وحلم معه يكبر، وللمرة الأولى كانت تفتل طيات الذاكرة وهي في صحوتها. تذكرت لحظات فرحها بالعيد حين يأتي لها بأثواب جديدة..خاصة العيد الذي يأتي بعد رمضان شهر الصيام. بعد أن يمتنع فيه الجميع لمدة شهر طوال النهار عن كل ملذات الحياة من أكل وشرب وعلاقات شبقية، ومن ثم يحتفي الناس برحيله عنهم.

رمضان شهر الصيام شهر تأثيره عجيب على الناس، فمن المفترض أن يهذب الروح ويقوّم النفس. فهو يدعو إلى الكفاف والتمنع عن تلبيةّ الغرائز لدى البشر. وأن أي خدش أو جرح لمشاعر الآخرين يبطل صوم الإنسان. لكن تلك المثل العالية التي يحث عليها الصيام مثل كل النظريات الإنسانية الرائعة ليست إلا حبراً على ورق. معظم الناس يتصرفون عكس ذلك تماما في ذاك الشهر. فالجوع يجعل منهم بشرا مكهربين ولا يحتملون حتى نسمة الهواء أن تتحرش بهم. أرواحهم في أنوفهم يفرغون ألم الجوع في أي أحد يختلفون معه. الروحانية فقط يمارسونها تحت أسقف المساجد وبين أروقة الجوامع. أما في حياتهم اليومية ما هم سوى أشداء جلاودة على بعضهم البعض..

لكن يظل العيد في ذاكرة ليلى ذو نكهة حلوة. ربما هو اللمسة الوحيدة في تاريخها الطفولي ذو طابع مبهج. حيث ترتدي ليلى في العيد ملابس جديدة وتحصل على "العيدية" بعض النقود من والدها ورجال العائلة. تسعد باللعب والمرح مع أبناء وبنات الأسرة. يتجمعون في بيت العائلة الكبير على وجبة العيد التي عادة ما تكون الكبسة، طبخة شعبية برز ولحم دسم..

أحست ليلى بالارتياح وصور العيد تعبر بمخيلتها، ودون أي إنذار مسبق، فجأة شعرت ليلى بسعادة العيد في كيانها وأحست بأن لها جسد، وكأنها تقتنيه لأول مرة، فانتفضت بقوة! تحركت أناملها الصغيرة بإرادتها، صارت تقبض راحة يديها وتبسطها. لم تصدق

نفســها ظنــت أنها بقايا أضغاث أحلام، فكررت الفعل نفسه مرات ومــرات لتتأكد من أن سلطتها قد عادت لها، وأن إرسالاتها الدماغية كانــت صحيحة، وأنها أصبحت تُحسن التحكم ببدنها بصورة جيدة. بعدهــا حملت ذراعيها للأعلى بعنوة. ازاحت الغطاء عنها وحركت جــزئها السفلي قليلا على السرير، أحست بهموم ضعفاء العالم كلها جاثمة على صدرها، لكنها لم تكترث بها، لقد صارت تحس بسخونة دمهــا وإحمــراره المتوهج. تشعر به وهو يجري بحركة منعشة في العروق..تتزاحم كرياته فيها بسرعة .. تتراكض في كل الأنحاء وفي جميــع الاتجاهــات كصــغار فرحيــن بمدينة ملاهي مليئة بالهدايا والألعــاب المســلية. اكتشفت ليلى جسمها وكأنها تتعرف عليه هذه اللحظة، اجتاحتها مشاعر غريبة لم تعهدها من قبل. حركت هامتها، تلفتت يمينا ويسارا بهدوء وروية..تفتقت أساريرها غبطة.. ابتسمت شــفاهها بفرحة لذيذة. صارت تضحك وتضحك دون توقف. كانت لــيلى فــرحة بلســانها الذي بدأ يتحرك دون تعثر أو تلعثم. أصبح باستطاعة لسانها أن يصول ويجول في فمها بخفة، وهو يبحث بهمة عن منافذ اللغة..

تحاول ليلى أن تصدر صوتا مدويا..كي تعلم الكون بأسره بأنها اســترجعت حقهــا في العيش في هذه الدنيا، وأنها لم تعد تلك الأنثى المسكينة مسلوبة الإرادة، المعلقة بين الأرض والسماء دون هدف أو معــنى. الــيوم استعادت مساحتها من الجاذبية الأرضية، مثل كل مخلوقات هذا الكوكب. الآن وللتو تمكنت من الإمساك بخيوط البقاء وأقدامهــا حطــت في مواقعها بسلام.. أصبحت قادرة على تحريك

أطــرافها..علــى الانقلاب والجلوس وربما المشي والجري ومسابقة الــريح أيضــا..إنها الآن سعيدة جدا بتنفس الحرية..السعادة تغمرها بدفء تكاد لا تصدق ما يحدث لها ولجسدها الذي عاد تحت إمرتها. لــم تتمالك ليلى مشاعرها من شدة الدهشة، فسبقت الكلمات أوتارها الصوتية وزعقت بأعلى صوتها :

– يمــه..يمــه..أيــن أنت يا أمي؟ تعالي يا أمي! تعالي "يا ست الحبايــب يــا أحلى حبيبة."تعالي احضنيني..لميني .. قبليني يا أمي بقــوة..احتفي بي إلى حد الجنون، طيري وحلقي معي بين النجوم.. واسعدي وكأني اخرج للتو من رحمك الحنون.

أماه يا أغلى إنسان في الوجود، لقد عدت يا أماه إليك من جبهات القتال المعتمة، عدت شامخة ومتوجة بأوسمة النصر المجيد، الذي لا بعده نصر ولا قبله. لن أخجل من دمعك يا أماه، بل كفكفيها كلها فلا حاجــة لــنا للبكاء يا والدتي بعد اليوم، فانا متعافية وبصحة الجبال العتيدة..

يــا أمي لقد صرت أكبر من التصدع والهزيمة، وأقوى من كل الحواجــز والأسوار الخانقة. لا تتعجبي يا أيتها الحنونة فأنا ما زلت ابنــتك البارة التي لم يقو على هزمها القدر، ولم تتشبث بحبال الحظ من أجل النجاة، ولم يعثر النصيب أقدامها أو يعيقها عن الوصول. أنا صبيتك التي رفضت كل ألوان الانكسارات والخنوع، ونزعت عنها كســاء التخاذل والضعف. أنا الثائرة ضد البلادة، والرافضة لاجترار

الغــش الذهنـــي المـــتداول، والمتمردة على كل أصناف الاستسلام والـــتراجع والمعتـــنقة للبراءة المطلقة. أنا ليلى ابنتك الرائعة ورفيقة آلهـــة الحـــب والخير والعطاء..أنا الأنفة أنا العزة..أنا المعنى الجديد للأنثى يا أماه!

كانـــت ليلى تتحدث لنفسها بصوت مرتفع، وتضحك تارة وتبكي بابتهاج تارة أخرى. الدنيا لم تسعها من شدة فرحة الانعتاق. ظلت على ذاك الحـــال إلى أن سمعنها من كن في محطة الممرضات فهببن إليها مســـرعات. التففن من حولها طاقم من ملائكة الرحمة، اللاتي تابعنها طوال مسيرة العدم ورحلة الشقاء تلك. وانقضضن عليها يقبلنها بشوق حميمـــي، كأمهات أنهكهن الدهر من ضيم الفراق وللتو التقين بفلذات أكبادهـــن الغائبين عنهن لسنين. شعرت ليلى بحبيبات دموعهن وهي تهطـــل منهـــن كالأمطـــار على وجناتها العطشى المقفرة.. والفرحة تســـربلهن وهن يرددن لها بسعادة وافتخار..كأجراس النصر "قود فور يـــو قيرل" .. "قود فور يو قيرل"..وعن بعد تكاد تسمع صوت رفيقتها عشتار ترددها معهن.. أحسنت يا فتاة..أحسنت يا فتاة..

فجأه أحست ليلى بمن يهز أكتافها ويحاول إيقاظها..وصوت ينادي بهدوء :

– ليلى..ليلى..هيا اصحي..لقد وصلنا البيت..هيا..

فتحت عينيها بتثاقل ونظرت حولها كأنها لقيطة تائهة تبحث عن خـــيوط تشـــدها بهذا العالم..رأت وجه أخيها إبراهيم قريبا منها يكاد يلتصق بوجهها..تعرفت على المكان..أنها أمام بيت والدتها..وقبل أن

تسأل بادر إبراهيم بالقول :

– يكفـــيك نوم..طوال الرحلة كنت تغطين في سابع نومه.. هيا اصـــحي...كـــأنك لـــم تـــنم منذ دهور.. انهضي أنا سأنزل بعض الأغـــراض بســـرعة كـــي أتمكن من اللحاق على الشوط الثاني من المباراة قبل أن يبدأ..لقد تأخرنا في الطريق بسبب الحادث...

تعجبت ليلى مما قاله إبراهيم فأردفت قائلة باستغراب :

– ها.. ماذا قلت؟ حادث؟ أي حادث؟

– أنت كنتِ نائمة لم تحسِ بما جرى في الطريق..

وبتلعثم أردفت ليلى قائلة :

– بلى ..بلى.. أتذكر انه كان هناك حادث.. نعم حادث اصطدام السيارة بالجمل اجل رأيته..

– رأيتيه ؟؟؟؟؟ معقول؟؟؟ كنتِ نائمة!

– فتحـــت عينـــي بعد أن اضطررنا لتخفيف السرعة وشاهدت الحادث

فرد إبراهيم :

– هل رأيت الذي حصل؟ فرق دقائق معدودة بيننا وبين السيارة التي أمامنا.. اصطدمت بالجمل وأنا تمكنت من تخفيف السرعة دون أن يحدث لنا شيئا.. كل شيء حدث في ثواني أمام ناظري.. شعرت بـــالخوف والفزع..حين رأيت السائق الشاب وثيابه تقطر دما حيث كـــان يصـــرخ مـــن قمـــة رأسه من شدة الألم ..اعتقد انه أصيب بكســـور..لكن الفتاة التي كانت معه اعتقد أنها ماتت..لأنها ظلت في السيارة ولم يصدر منها أي صوت أو حركة..

– نعـــم شـــاهدت ما حدث..كان حادثا مفزعا مسكينة تلك الفتاة أصابتها كانت شديدة ، لكن لاأعتقد أنها ماتت.

أجاب إبراهيم وكأنه متأكداً :

– أعـــتقد أنهـــا ماتـــت لأنهـــا كانـــت تـــرفل بثـــياب مخضبة بالدماء..هشمت هامتها الزجاجة الأمامية في السيارة وأصيبت بالرأس إصابة بليغة ..لذلك فارقت الحياة..الحمد لله إنه كان هناك سيارة نجدة عـــند مفترق الطريق وأتت مسرعة لمكان الحادث.. كنت مرعوبا من هول ما جرى..لم أستطع أن أتحرك من السيارة لمساعدتهم..لكن الدنيا فعـــلا مازالـــت بخـــير ..فقـــد ألـــتم مجموعـــة مـــن الناس لمساندة المصابين..لذلك رأيت من الأفضل أن أواصل الطريق..

ســـكت قلـــيلا حيث يسترجع من ذاكرته ما جرى..ثم التفت إلى ليلى وسأل :

– ما بك يا ليلى؟

وبربكة مفضوحة إجابته :

– لا شـــيء..يـــا إبراهـــيم ..لا شـــيء..الحـــادث بالفعل كان مفزعا..لقد رأيت الفتاة المضرجة بالدماء..لكني مازلت أعتقد أنها لم تمت..بل أنا متأكدة من ذلك..

رد إبراهيم بأستغراب :

– متأكدة ؟

– نعـــم..تلك الفتاة ساعتها لم تحن بعد.. فهي لم تنتهي من سرد رسالتها في هذه الدنيا ..فمازال أمامها الكثير لتقوله والأكثر لتعيشه..

– لـــيلى.. تتكلميـــن عنها وكأنك تعرفينها.. وتبدين متأكدة مما

تقولـــيه!!! لا احد يدري ما الذي سيجري عليها.. ربما تنجو وربما لا..لكنـــي أتصـــور إن هـــي نجت من الموت ستعيش بعاهة طوال حياتها..

لم تعلق ليلى على استنتاج أخيها إبراهيم ..فقد رأت من الأفضل أن لا تكمل الحديث.. لكنه غيّر الموضوع وقال :

– عمومـــا أنا سأذهب الآن لأشاهد بقية المباراة..أرجو أن تجلبي معكِ الكيس الذي على المقعد الخلفي..لا تنسي أن تقفلي أبواب السيارة..

ذهـــب إبراهيم مسرعا إلى داخل البيت وأسارير الفرح مرسومة على وجهه وكأن مفاجآت الدنيا كلها تنتظره هناك..

تمتمت ليلى مع نفسها وهي تحاكي سرمدية لا تكف عن مناجاتها

– نعم أعرف تلك الفتاة..بل أعرفها جيدا.. كما تعرف الشموس أقمارهـــا..وأحســـها..كما تحس الأمهات بصغارها..فقد تحررت من ذاتها من عالم الاستغفال هذا دون عودة..

"إن المنعـــتق لـــيس بـــالطويل ولا بالقصير، وليس بالثقيل ولا بالخفيف. انه بلا جسم لأنه لن يُبعث بعد ذلك، أو يتناسخ، ولا شيء يصله من قريب أو بعيد بعالم المادة، انه ليس بأنثى وليس بذكر، كما انه ليس حيادي الجنس أيضا، انه يُدرك وانه يُعرف ولكننا لا نستطيع أن نعرف كيف.."

انتهت



القرآن المقدس

في ذلك اليوم وبعد أن أوصلت ليلى طبق «المموش» إلى أم الشيخ، وهي تمشي بتلكوء في طريق العودة، شعرت ليلى بشيء ما يدفع قدميها ويحرضها على المرور عبر زقاق بيت رباب. كان بابها شبه مفتوح. رباب عادة لا تقفل بابها، لأن لا أحد يجرؤ على مسه، أيضا لكي تسهل العبور لزوارها. والأهم لأنه ليس لديها شرف تخشى على هتكه. فذاك القيد الشائك الذي يلف حول أعناق الإناث منذ الصغر قد هشمته ورمت به في عالم المهملات، منذ أن تحولت إلى عاملة جنس.

حرّض ليلى فضولها الطفولي على الولوج في تلك التجربة التي لم تكن في الحسبان. وجدت ليلى نفسها تقرب شيئاً فشيئاً من بيت رباب، حتى وصلته. واذا بهاجس ما جعلها تدفع ذاك الباب الخشبي بهدوء وتدخل . أرادت أن تلقي نظرة أخرى على تلك المرأة الأسطورية التي لا يقوى أحد حتى على رد السلام عليها. الكل يتوخى الحذر منها.

من الرواية

